مد أحمد باشميل

موسوعة الغزوات الكبرى

غزوة حنين

المكتبة السلفية

محمد أحمد باشميل

من معارك الإسلام الفاصلة

– ٩ –

غزوة حنين

المكتبة السلفية

[الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م]

عنيت بطبعه



٢١ شارع الفتح بالروضة ــ القاهرة ٭ تليفون ٨٤٠٣٦٤

غَزْوَةُ حُنَيْنٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بقلم معالى الشيخ إبراهيم العنقرى
وزير الإعلام بالمملكة العربية السعودية

هذا هو الكتاب التاسع من سلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) التى دأب ــ مشكوراً ــ الأستاذ محمد أحمد باشميل على إصدارها منذ عدة سنوات .

وقد احتوى هذا الكتاب (وبأسلوب المؤلف المعروف) على دراسات رائعة ، وتحليلات ثمينة دقيقة ، يجدر بكل حريص على اكتشاف كنوز تاريخه الإسلامى أن يقرأها ، ويقرأ دراسات وتحليلات المؤلف فى بقية هذه السلسلة التاريخية القيمة . . وفى غزوة حنين دروس وعبر وعظات أجاد المؤلف أيما إجادة فى عرضها وإبرازها أثناء دراسته وتحليله فى كتابه هذا .

إن معركة حنين هى ــ من وجهة النظر العسكرية ــ أهم وأكبر معركة يخوضها المسلمون بقيادة نبيهم ﷺ ، فقد اشترك فيها من جانب العدو الوثنى عشرون ألف مقاتل ، ومن جانب المسلمين اثنا عشر ألف مقاتل ، وهو عدد لم يسبق أن قذف الفريقان بمثله فى معركة دامية طيلة العهد النبوى كله ، كما أن معركة حنين هى آخر وخاتمة المعارك التى يخوضها المسلمون بقيادة نبيهم ﷺ . كذلك كان انتصار المسلمين الحاسم فى هذه المعركة آخر مسمار يدق فى نعش الوثنية بجزيرة العرب حيث (بعد انهيار قوة هوازن وهى أقوى قوة ضارية فى جزيرة العرب) لم تعد هناك أية قوة قادرة على مواجهة المسلمين .

ولهذا لم يعد المسلمون ــ بعد حنين ــ بحاجة إلى تجريد قوات كثيفة لتوطيد دعائم الإسلام فى الجزيرة ــ فما بقى للوثنية بعد حنين إنما هو جيوب صغيرة جرّد الرسول ﷺ على كل منها مفرزة صغيرة من أصحابه أنهت مقاومتها .. وغزوة تبوك الشهيرة التى قاد الرسول فيها بنفسه ثلاثين ألف مقاتل ، إنما كانت لإرهاب الرومان الذين بلغه أنهم يحتشدون للإغارة على جزيرة العرب .

إن الجهد الذى يبذله الأخ الأستاذ محمد أحمد باشميل لإصدار هذه السلسلة التاريخية الثمينة (معارك الإسلام الفاصلة) جهد مشكور ينبغى أن يلقى حقه من التقدير والتشجيع .

إن الذى يتصفح هذا الكتاب وبقية الكتب من هذه السلسلة يدرك مدى الجهد المضنى الذى يبذله المؤلف لخدمة التاريخ الإسلامى ، برفع الأتربة عن كنوز هذا التاريخ الذى يجب أن يهتم به ويقرأه ــ بتدبر وإمعان ــ شبابنا ليكون دليلهم الهادى فى طرق العزة والمجد والشرف والاستقامة .

فالتاريخ الإسلامى (وخاصة العهد النبوى) زاخر بروائع البطولات وأمثلة الفداء والنبل والشهامة ، هذه الأمثلة التى عن طريقها دخل المسلمون التاريخ من أوسع أبوابه ، وما أحوجنا نحن المسلمين والعرب خاصة (وخاصة فى هذه الفترة الحرجة من تاريخنا) إلى الإلمام بهذه الأمثلة والروائع من تاريخ أسلافنا الأماجد كى تكون لنا القدوة النافعة الصالحة ، وتبتعد بنا عن مزالق شعارات المبادئ الهدامة المستوردة التى أضرّت بنا فى مسيرتنا أكثر مما أضر بنا سلاح العدو العسكرى .

لقد سلك الأخ الأستاذ باشميل فى تحليلاته ودراساته التاريخية فى هذا الكتاب ــ وفى بقية الكتب من سلسلته ــ مسلكاً قل الذين يسلكونه اليوم .

فمما يغبط عليه هو تركيزه فى هذه السلسلة على الدقة فى الدراسة والتحليل وإحالة القارئ بعناية ، إلى المصادر التاريخية الرئيسية الكبرى ،

التى لا يفتأ المؤلف يذكرها ويرشد القارىء إليها فى كل مناسبة . . الأمر الذى يوحى للقارئ بالثقة بأنه حينما يقرأ للأستاذ باشميل كتاباً من هذه الكتب التسعة ، إنما يقرأ مراجع تاريخية إسلامية هامة ، لا قصصاً سطحية ينتهى أثرها بالانتهاء من قراءتها .

إذن (وهذه كلمة حق) فسلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) التى أجهد المؤلف نفسه فى إصدارها ، هى من أهم المراجع التاريخية الثمينة فى العهد النبوى ، لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار الجهد الذى يبذله المؤلف لتنسيق الأحداث التاريخية وربط بعضها ببعض ربطاً دقيقاً محكماً ، بأسلوب سهل ممتنع ، بحيث يسهل على أى راغب فى معرفة أية سرية أو حملة عسكرية أو حادثة سياسية أو تشريعية هامة فى العهد النبوى ، أن يجدها فى هذه السلسلة ، وهذ أمر فيه خدمة كبيرة لطلاب الدراسات العليا فى الجامعات والمدارس .

ثم إن ما يمتاز به هذا الكتاب التاسع وكل كتب المؤلف من هذه السلسلة هو أن المؤلف لا يقتصر فى دراساته وتحليلاته على حيز المعركة أو الغزوة التى يجعلها العنوان الرئيسى للكتاب (كغزوة حنين هذه) وإنما يقدم أثناء ذلك للقارئ — وبمنتهى الدقة والصبر — عرضاً شيقاً للأحداث العسكرية والسياسية والتشريعية المهمة التى سبقت المعركة الرئيسية أو واكبتها .

ففى كتبه التسعة من هذه السلسلة أتى بالتفصيل على ذكر جميع السرايا والحملات الحربية الثانوية والأحداث السياسية وغيرها من الأحداث الهامة ، التى تحدث بين المعركة الرئيسية التى تكون عنواناً لكتابة ، وبين المعركة التى تكون عنواناً للكتاب الذى يليه ، كالأحداث والسرايا والبعوث التى حدثت (مثلاً) ما بين غزوة بدر وغزوة أحد ، وهذا هو دائما نهج المؤلف فى جميع مؤلفاته التسعة من هذه السلسلة .

إذن يمكن أن يطلق (عن جدارة) على هذه السلسلة القيمة اسم

الموسوعة الكبرى فى تاريخ العهد النبوى ، وخاصة إذا اكتملت بالكتاب العاشر (غزوة تبوك) الذى شرع المؤلف فى تأليفه .

وبعد فإنى إذ أزجى شكرى الخالص العميق للأخ الأستاذ محمد أحمد باشميل على هذا الجهد الكبير الذى يبذله لخدمة التاريخ الإسلامى بمثابرته (وبصبر كبير) على إصدار هذه السلسلة ، أدعو شبابنا المسلم ــ وخاصة الطلاب منهم ــ إلى الاهتمام بكنوز تاريخنا الإسلامى المشرق ، التى سيجدون منها ما يشفى غليلهم وينير لهم الطريق ــ فى هذه السلسلة ، أو الموسوعة السهلة المبسطة ، التى قطع المؤلف شوطاً كبيراً فى إكمالها ، كما أننى أدعو من صميم قلبى للأخ المؤلف ببالغ التوفيق ، وأن يجعل الله تعالى ثوابه جزيلاً على هذا الجهد الكبير .

وزير الإعلام
إبراهيم العنقرى
الرياض . . المملكة العربية السعودية
٢٠/٤/١٣٩٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

— ١ —

نحمدك اللهم ونستعينك ونستهديك ونعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وصل اللهم على نبيك ورسولك محمد وآله وصحبه وسلم .

وبعد فهذا أيها القارئ الكريم كتابنا التاسع (غزوة حنين) من سلسلة معارك الإسلام الفاصلة التى استخرنا الله تعالى فى إصدارها .

فنسأل الله عز وجل أن يمدنا بعونه وتوفيقه ، وأن يجعلنا ممن يخلصون له فى القول والعمل ، وأن يثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائه إنه سميع مجيب .

ونأمل من كل قارئ لهذا الكتاب ، أو لأى كتاب آخر من هذه السلسلة أن يرشدنا إلى أى خطأ أيا كان فى أىّ من هذه السلسلة لنسارع إلى إصلاحه ، فكل بنى آدم خطّاءون ، وهدفنا إنما هو خدمة التاريخ الإسلامى .

— ٢ —

إن فى معركة حنين دروساً وعبراً ومواعظ ، أهمها أن القوة العسكرية وحدها لا تكفى لتحقيق الانتصار ، وأن المبالغة فى الاعتماد على القوى المادية العسكرية إلى حد الغرور هى — دائماً وأبداً — مصدر النكبات .

فالغرور بالقوة العسكرية يؤدى إلى الاستهانة بالعدو ، والاستهانة بالعدو تشيع اللامبالاة والاسترخاء بين عناصر الجيش المغرور ، الأمر الذى يتيح لعدوه أكثر من فرصة قد تؤدى إلى تدميره رغم كثرته وحسن تسليحه .

— ٣ —

ولقد أدّب الله المسلمين فى معركة حنين . . بسبب إعجابهم بقوتهم ، فنزلت بهم الهزيمة المروعة فى المرحلة الأولى من المعركة ، وذلك لكى يشعروا أن السلاح الذى يكفل لهم النصر ، إنما هو — فى الدرجة الأولى — قوة الإيمان بالله تعالى لا القوة العسكرية المجردة ، وإلى هذه الحقيقة أشار القرآن الكريم بقوله ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ (١) الآية .

وتاريخ المسلمين — فى عهودهم المشرقة — زاخر بالشواهد والأدلة على أن ما حققوه من أمجاد رائعة رغم قلتهم وكثرة أعدائهم — إنما سببه فى الدرجة الأولى — إيمانهم بالله تعالى واتباعهم الإسلام اعتقاداً وقولاً وسلوكاً .

فعلى أجيالنا التى تتوق إلى العزة والسؤدد أن تحذو حذو أولئك الأبرار من أسلافنا فى التمسك بالإسلام قولاً وعملاً ، وإلا فإن من طلب العزة من المسلمين بغير الإسلام أذله الله . . نسأل الله تعالى أن يعيد أتباع محمد ﷺ إلى جادة الصواب ليستعيدوا عزهم الضائع ومجدهم المفقود .

المؤلف
جدة — المملكة العربية السعودية
١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م

---

(١) التوبة ٢٥ — ٢٦ .

الفصل الأول

مجمل الأحداث بين فتح مكة وغزوة حنين

بعد أن تمت السيطرة للمسلمين على مكة (وهى أهم وأعظم معقل للوثنية) بدا واضحاً وكأن نجم الوثنية (لا فى الحجاز وحده ، بل فى الجزيرة العربية كلها) يسرع نحو الأفول . وأن أمر انهيار الوثنية فى الجزيرة كلهاإنما هو مسألة وقت فقط .

لأن مكة (سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو المعنوية أو الروحية) محط أنظار الوثنيين على اختلاف ميولهم ومشاربهم .

وبعد انهيار الوثنية شرقى المدينة وبعد انتهاء الوجود اليهودى فى خيبر الذى كان أعظم خطر (من الناحية البشرية والسياسية والمالية) يهدد الوجود الإسلامى . . بعد حدوث ذلك لصالح الإسلام والمسلمين . لم يبق من يخشاه المسلمون ويحسبون له الحساب الدقيق ، وله وزنه الثقيل فى نظرهم سوى قوتين عظيمتين اثنتين (قريش فى مكة وهوازن فى بواديها الشاسعة الواسعة الممتدة من حدود الحرم فى الحجاز حتى أطراف نجد فى الشرق والشمال) .

أما قريش العدو الرئيسى الأكثر تنظيماً والأخطر عداوة للإسلام والمسلمين فقد تحطم وجوده وزال خطره بوقوع عاصمته مكة فى أيدى قوات التوحيد فى شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة[١] ، ولم يبق من يخشاه المسلمون خشية حقيقية سوى قبائل هوازن ذات القوة الحربية الشديدة والعدد الهائل حيث كان باستطاعتها أن تحشد أكثر من عشرين ألف مقاتل ، هو ما فعلته حين زحفت بهذه القوة صوب مكة فالتقى بها المسلمون فى أوطاس (وادى حنين)

(١) انظر تفاصيل فتح مكة وإنهاء وجود قريش الوثنى فى كتابنا الثامن (فتح مكة) .

فدارت بين الفريقين تلك المعركة التاريخية الحاسمة التى هى موضوع دراستنا الرئيسية فى هذا الكتاب .

جيوب المقاومة حول مكة قبل هوازن

غير أنه رغم زوال سلطان قريش (الأم الكبرى للوثنية) فقد بقيت حوالى مكة (غير هوازن) جيوب مقاومة للوثنية من العرب . . رأى النبى ﷺ أن ينهى مقاومتها ويخضعها لسلطان التوحيد قبل أن يدخل فى المعركة الفاصلة مع قبائل هوازن .

فبعد أن استتب الأمر للمسلمين وتمت لهم السيطرة الكاملة على مكة المكرمة . بعث الرسول ﷺ بعدة وحدات من جيشه من مكة ، للعمل على إزالة أى أثر من آثار الوثنية فى المنطقة . فقامت هذه الوحدات بهدم كل ما تبقى من أصنام فى تلك المناطق الواقعة فى الجنوب والجنوب الشرقى من مكة المكرمة .

فهدمت وحدات الجيش الإسلامى صنم (مَناة) وصنم (العُزَّى) وهما من أعظم الأصنام التاريخية المعظمة عند العرب ، واللذين جاء ذكرهما فى القرآن الكريم ، كما هدمت غيرهما من الأصنام التى هى المظهر الرئيسى للوثنية .

والعمليات الحربية التى قام بها الجيش الإسلامى من مكة (قبل معركة حنين) هى خمس عمليات عسكرية . وهى :

— ١ —

سرية المشلل[١] عام ثمان للهجرة

وهى دورية قتال قام بها من مكة سعد بن زيد الأشهلى لهدم صنم مَنَاة بالمشلل فقام بهدم الصنم ذكر ذلك الواقدى فى مغازيه . إلا أنه لم يذكر أية تفاصيل عن كيفية هدم الصنم وكيف كان موقف عبَّاده . هل حدثت منهم مقاومة أم لا ؟.

---

(١) المشلل (بضم أوله وفتح ثانيه مع الكسر..) قال الكلبي في كتابه الأصنام .. المشلل ، مكان على ساحل البحر بقديد بين مكة والمدينة .

فكل ما قاله الواقدى : وبعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلى إلى مناة بالمشلل فهدمه . ومناة من أقدم الأصنام التى كان العرب يعبدونها ، فهى أقدم من العزى وسائر الأصنام كلها . قال الكلبى فى كتابه الأصنام : ومناة أقدم أصنام العرب ، وكانت العرب تسمى عبد مناة ، وزيد مناة ، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله ، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة ، وما قارب من الموضع يعظمونه ويذبحون به ويهدون له .

وكان أولاد معدّ على بقية من دين إسماعيل عليه السلام وكانت ربيعة ومضر على بقية من دينه ، ولم يكن أحد أشدّ تعظيماً له (أى مناة) من الأوس والخزرج .

وقال الكلبى : كانت الأوس والخزرج ومن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها ، فكانوا يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رؤوسهم فإذا نفروا ، أتوا (مَناة) فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده ، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك ، فَلإعظام الأوس والخزرج (لمَنَاة) يقول عبد العزّى بن وديعة المزنى أو غيره من العرب .

إنى حلفت يمين صدق برة　　بمناة عند محل آل الخزرج

وكانت العرب فى الجاهلية يسمون الأوس والخزرج جميعاً . . الخزرج ، فلذلك يقول . .(عند محل آل الخزرج) .

ومناة هذه ذكرها الله عز وجل فقال ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ وكانت لهذيل وخزاعة[1] .

ويخالف الكلبى الإمام الواقدى . فيذكر أن الذى تولى هدم (مناة) هو الإمام على بن أبى طالب فيقول : وكانت قريش وجميع العرب تعظمه (أى مناة) ، فلم يزل على ذلك حتى خرج رسول الله ﷺ من المدينة سنة ثمان من الهجرة ، وهو عام فتح الله عليه ، فلما سار من المدينة أربع ليال أو خمس

---

(١) كتاب الأصنام ص ١٣ ــ ١٤ .

ليال بعث علياً إليها فهدمها وأخذ ما كان لها ، فأقبل به إلى النبى ﷺ ، فكان فيما أخذ سيفان كان الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك غسان أهداهما لها . أحدها يسمى مخذماً ، والآخر رسوباً ، وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة فى شعره فقال :

مظاهر سربالى حديد عليهما عقيلا سيوف مخذم ورسوب

فوهبهما النبى ﷺ لعلى ، فيقال : إن ذا الفقار سيف على أحدهما . ويقال : إن علياً وجد هذين السيفين فى الفلس وهو صنم طىء حيث بعثه النبى ﷺ فهدمه .[1]

— ٢ —

حملة هدم العزى ٢٥ رمضان سنة ثمان للهجرة .

قامت بها دورية قتال مكونة من ثلاثين فارسا قام بقيادتهم خالد بن الوليد الذى كلفه الرسول ﷺ بهدم العزّى (وهى أعظم الأصنام عند قريش) .

وقد ذكر أصحاب المغازى والسير أن خالد بن الوليد ذهب بفرسانه إلى العزّى (وهى مقامة بأحد روافد وادى نخلة المسمى اليوم بوادى اليمانية) فهدمها .

قال الواقدى : قدم رسول الله ﷺ مكة يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رمضان فبث السرايا فى كل وجه ، أمرهم أن يغيروا على من لم يكن على الإسلام فخرج هشام بن العاص إلى يلملم وبعث خالد بن سعيد بن العاص فى ثلاثمائة قِبَل عُرَنَة[2] .

وبعث خالد بن الوليد إلى العزّى يهدمها ، وقال ابن إسحاق : كانت بنخلة ، كانت بيتاً يعظمه هذا الحى من قريش وكنانة ومضر كلها ، وكانت سدنتها وحجابها من بنى شيبان[3] من بنى سليم[4] .

---

(١) كتاب الاصنام ص ١٥ .

(٢) عرنة (بضم العين وفتح الراء) : واد حذاء عرفات بين عرفات والمزدلفة .

(٣) شيبان (بفتح الشين) : اسم يطلق على عدة قبائل عربية ، وشيبان هنا ، هم بطن من سليم وهم حلفاء بنى هاشم .

(٤) انظرترجمة سليم فى كتابنا (فتح مكة).

فلما سمع صاحبها (أى سادنها) السلمى بمسير خالد إليها ، وأسند فى الجبل الذى هى فيه وهو يقول :

أيا عزّ شدى شدة لا شوى لها على خالد ألقى القناع وشمرى
أيا عزّ إن لم تقتلى المرء خالداً فبوئى بإثم عاجل أو تنصرّى[1]

فلما انتهى إليها خالد هدمها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ[2] .

وفى رواية بعض المؤرخين ، أن خالداً لما هدم العزى ورجع إلى النبى ﷺ قال له : هدمت ؟ قال : نعم يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : هل رأيت شيئاً ما ؟ قال : لا . قال : فارجع فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها . فرجع خالد وهو متغيظ ، فلما انتهى إليها جرد سيفه ، فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ، ناشرة الرأس فجعل السادن يصيح بها . قال خالد وأخذنى اقشعرار فى ظهرى فجعل يصيح :

أيا عزّ شدى شدة لا تكذبى على خالد ألقى القناع وشمرى
أيا عز إن لم تقتلى المرء خالدا فبوئى بذنب عاجل أو تنصرّى

فأقبل خالد بالسيف إليها وهو يقول :

ياعزّ كفرانك لا سبحانك إنى وجدت الله قد أهانك

فضربها بالسيف فجزلها[3] باثنين ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : نعم تلك العزى وقد يئست أن تعبد ببلادك أبداً ثم قال خالد ، أى رسول الله ، الحمد لله الذى أكرمنا وأنقذنا من الهلكة . إنى كنت أرى أبى يأتى إلى العزى بحتره[4] . مائة من الإبل والغنم فيذبحها للعزى ويقيم عندها ثلاثاً ثم ينصرف إلينا مسروراً . فنظرت إلى ما مات عليه أبى وذلك الرأى الذى كان يعاش فى فضله ، كيف خدع حتى صار يذبح لحجر لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع . فقال رسول الله ﷺ إن هذا الأمر إلى الله ، فمن يسّره للهدى تيسر ، ومن يسره للضلالة كان فيها . وكان هدم العزى

---

(١) أو تنصرى : أن انتصرى .

(٢) سيرة ابن هشام ج٤ ص٩٧ .

(٣) جزل بمعنى قطع .

(٤) قال فى الصحاح : الحتر ، بكسر الحاء : العطية اليسيرة ، وبالفتح : المصدر .

لخمس ليال بقين من رمضان سنة ثمان (للهجرة) .

وكان سادنها أفلح بن نُضر الشيباني من بني سليم ، فلما حضرته الوفاة دخل عليه وهو حزين ، فقال له أبو لهب : مالي أراك حزيناً ؟ قال : أخاف أن تضيع العزى من بعدي . قال أبو لهب : فلا تحزن ، فأنا أقوم عليها بعدك . فجعل كل من لقي قال : إن تظهر العزى كنت قد اتخذت يداً عندها بقيامي عليها ، وأن يظهر محمد على العزى ــ ولا أراه يظهر ــ فابن أخي .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ ويقال : إنه قال هذا في اللات[1] .

تاريخ العزى

يدل سياق المختصين بتاريخ الأصنام ونشوء الوثنية في جزيرة العرب أن الصنم (مناة) أقدم وجوداً من الصنم (العزى) . وأن العزى إنما اتخذتها قريش وغيرها من العرب إلهاً من دون الله ، بعد اللات ومناة ، فقد ذكر الكلبي في كتابه (الأصنام) أن العزّى أحدث من اللات ومناة ، وعلل ذلك بقوله : إنني سمعت العرب سمَّت بهما قبل (العزى) ، فوجدت تميم بن مر سمى ابنه (زيد مناة) بن تميم بن مر بن أد بن طابخة ، وعبد مناة بن أد ، وباسم (اللات) سمى ثعلبة بن عكابة ابنه (تيم اللات) . . وتيم اللات بن رفيدة بن ثور .. و (زيد اللات) بن رفيدة بن ثور بن وبرة بن مر بن أد بن طابخة .. و (تيم اللات) بن النمر بن قاسط و (عبد العزى) بن كعب بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم فهي (أي العزى) أحدث من الأوليين .

أول من تسمى باسم العزّى من العرب :

وكان عبد العزى بن كعب من أقدم ما سمت به العرب . . وكان الذى اتخذ العزى ظالم بن سعد .

كانت بواد من نخلة الشامية يقال له حراض بإزاء العُمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال فبنى عليها

(١) الوقدى ج٣ ص ٣٧٨ وما بعدها .

(يريد بيتاً) ، وكانوا يسمعون فيه الصوت ، وكانت العرب وقريش تسمى بها عبد العزى ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح[1] .

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول .

واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى
فإنهن الغرانيق العلى وإنَّ شفاعتهن لترتجى

وكانوا يقولون . . بنات الله (عز وجل عن ذلك) وهن يشفعن إليه . فلما بعث الله رسوله أنزل عليه ﴿ أفرأيتم اللات والعُزَّى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكرُ وله الأنثى تلك إذن قسمة ضِيزَى إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾[2] .

وكانت قريش قد حمت للعزى شعباً من وادى حراض يقال له سقام . يضاهون به حرم مكة ، فذلك قول أبى جندب الهذلى ثم القردى فى امرأة كان يهواها فذكر حلفها له بالعزى :

لقد حلفت جهداً يميناً غليظة بفرع الذى أحمت فروع سقام
لئن أنت لم ترسل ثيابى فانطلق أباديك أخرى عيشنا بكلام
يعز عليه صَرم أم حويرث فأمسى يروم الأمر كل مرام

ولها يقول درهم بن زيد الأوسى .

إنى وبيت العزى السعيدة والله الذى دون بيته سرف

وكان لها منحر ينحرون فيه هداياها يقال له الغُبَغُب .

فله يقول الهذلى وهو يهجو رجلاً تزوج امرأة جميلة يقال لها أسماء :

لقد أنكحت أسماء الحى بُقَيرة
من الأدم أهداها امرؤ من بنى غَنم
رأى قذعاً فى عينها إذ يسوقها
إلى غبغب العزّى فوضع فى القسم

(١) كتاب الأصنام ص ١٩ نشر الدار القومية للطباعة والنشر ــ القاهرة
(٢) النجم ١٩ ــ ٢٢ .

فكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها . فلغبغب ، يقول نهيكة الفزارى لعامر بن الطفيل :

يا عام لو قدرت عليك رماحنا والرقصات إلى منى فالغبغب
لتقيت بالجعّاء طعنة فاتك مُران أو لثويت غير محسب

وله يقول قيس بن منقذ بن عبيد بن ضاطر بن حبشية بن سلول الخزاعى (ولدته امرأة من بنى حداد من كنانة) وهو قيس بن الحدادية الخزاعى :

تلينا ببيت الله أول حلفة وإلا فأنصاب يسُرنَ بغبغب

وكانت قريش تخصها بالإعظام . . فلذلك يقول زيدين بن عمر بن نفيل . وكان قد تأله فى الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الأصنام :

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلدُ الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى غنم أزور . .
ولا هُبلاً أزور وكان رباً لنا فى الدهر إذ حلمى صغير

وكان سدنةُ العزّى بنو شيبان بن جابر بن مرة بن عبس بن رفاعة بن الحارث بن عتبة بن سليم بن منصور من بنى سليم ، وكان آخر من سدنها منهم دبية بن حرمى السلمى ، وله يقول أبو خراش الهذلى ــ وكان قدم عليه فحذاه نعلين جيدتين فقال :

حذانى بعدما خذمت نعالى دبيّة إنه نعم الخليل
مقابلتين من صلوى مشبّ من الثيران وصلهما جميل
فنعم معرِّس الأضياف تذحى رحالهم شآمية بليل
يقاتل جوعهم بمكللات من الفرنى يرعبها الجميل

فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه ﷺ فعابها وغيرها من الأصنام ، ونهاهم عن عبادتها ونزل القرآن فيها .

فاشتد ذلك على قريش ، ومرض أبو أحيحة (وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) مرضه الذى مات فيه ، فدخل عليه أبو لهب يعوده ، فوجده يبكى . فقال : ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن الموت تبكى ولابد منه ؟ قال : لا . ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعدى . قال أبو لهب : والله ما عبدت فى حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك . فقال أبو

أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة ، وأعجبه شدة نصبه فى عبادتها .

قالوا : فلما كان عام الفتح دعا النبى ﷺ خالد بن الوليد فقال : انطلق إلى شجرة ببطن نخلة فاعضدها ، فانطلق فأخذ دُبية فقتله ، وكان سادنها ، فقال أبو خراش الهذلى فى دُبية يرثيه :

ما لدُبيّة منذ اليوم لم أره
وسط الشروط ولم يلمم ولم يطف[1]

لو كان حياً لغاداهم بمترعة
من الرواويق من شيزى بنى الهطف[2]

ضخم الرماد عظيم القدر جفنته
حين الشتاء كحوض المنهل اللقف[3]

أمسى سقام خلاء لا أنيس به
إلا السباع ومَر الريح بالغرف

قالوا : وكان سعيد بن العاص أبو أحيحة يعتمّ بمكة ، فإذا اعتم لم يعتم أحد بلون عمامته .

وعن ابن عباس . قال : كانت العزّى شيطانة تأتى ثلاث مرات ببطن نخلة .

ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزى . فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية ، وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزى . وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء الآخرين ، كلهم كان معظماً لها (أى العزى) .

ولم يكونوا يرون فى الخمسة الأصنام التى دفعها عمرو بن لحيّ وهى التى ذكرها الله تعالى فى القرآن المجيد حيث قال : ﴿ولا تذرنّ وداً ولا سواعا ولا يَغوث ويعوق ونسرا﴾ كرأيهم فى هذه ولا قريباً من ذلك[4]

---

(١) يطف : أى يطيف من الطوفان ، من طاف يطيف .

(٢) الهطف بطن من بنى عمر بن أسد .

(٣) اللقف الحوض المتكسر .

(٤) كتاب الأصنام للكلبى ص ١٧ إلى ٢٧ .

— ٣ —

حملة يلملم أواخر شهر رمضان سنة ثمان للهجرة :

وهى دورية قتال مكونة من مائتى مقاتل بعث بهم النبى ﷺ بقيادة هشام بن العاص لمقاتلة من تبقى على الوثنية فى منطقة يلملم الواقعة جنوب شرقى مكة المكرمة والواقعة بين مكة والطائف ، وعلى مسافة ليلتين من الطائف للماشى .

ويلملم هو ميقات أهل اليمن للحج ، وفيه مسجد معاذ بن جبل . وقال المرزوقى : هو جبل من الطائف على ليلتين . وقيل ، هو واد ، قال فيه الشاعر أبو دهبل :

فما نام من راع ولا ارتد سامر

من الحى حتى جاوزت بى يلملما[١]

ولم أر فيما بين يدى من مصادر إلى أية قبيلة فى يلملم قصدت ذلك الحملة العسكرية التى جردها الرسول ﷺ بقيادة هشام بن العاص . كما أنه لم يبلغنا هل دار قتال فى هذه الغزوة أم لا .

وكل ما حصلنا عليه هو قول الواقدى : « فبعث رسول الله ﷺ السرايا فى كل وجه وأمرهم أن يغيروا على من لم يكن على الإسلام ، فخرج هشام ابن العاص فى مائتين قبل يلملم »[٢] .

ولكن من المرجح أن تكون حملة هشام بن العاص هذه وجهت إلى حى من هوازن ، لأن قبائل كل تلك المنطقة الواقعة حول الطائف كلهم من هوازن أو حلفاء ثقيف ، وهم بطن من هوازن .

---

(١) معجم البلدان لياقوت ج ٥ ص ٤٤١ .

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٧٣ .

— ٤ —

حملة عُرَنَة : أواخر رمضان سنة ثمان للهجرة :

وعرنة هو الوادى المشهور اليوم بحذاء عرفات ، وليس منها ، وفى هذا الوادى ألقى الرسول ﷺ ــ وهو فى طريقه إلى عرفات ــ خطبته المشهورة بخطبة حجة الوداع .

وكان سكان عرنة عند ظهور الإسلام بطنا من هُذيل ، شديدى العداوة لرسول الله ﷺ فكانوا فى السنة الرابعة من الهجرة قد حشدوا جيشاً فى عرنة يقصدون به غزو النبى ﷺ فى المدينة .

إلا أن النبى ﷺ أرسل أحد الفدائيين من أصحابه وهو عبد الله بن أنيس الجهنى ، ففتك (فى عرنة) بقائد الجيش خالد بن سفيان الهذلى . ففشل غزو هذيل إذ ألغوا مخطط الغزو بعد مصرع قائدهم [١]

أما القوة التى تحركت من مكة إلى عرنة فى السنة الثامنة من الهجرة عقيب الفتح فقد كانت مكونة من ثلاثمائة مقاتل ، أعطى النبى ﷺ قيادتهم لخالد ابن سعيد بن العاص[٢] ، لإنهاء الوجود الوثنى فى عرنة ، غير أن أحداً من المؤرخين كذلك (فيما وصل إلى علمنا) لم يعط أيه تفاصيل عن عمليات القوة العسكرية التى قادها خالد بن سعيد بن العاص إلى عرنة .. إلا أنه مما لا جدال فيه أنها موجهة إلى قبيلة هذيل التى بقى الكثير منهم على الوثنية عقب فتح مكة ، والتى موطنها (عرنة) التى وجهت إليها الحملة .

— ٥ —

غزوة بنى جذيمة[٣] ، أواخر شهر رمضان سنة ثمان للهجرة :

ومن أهم الأحداث العسكرية التى حدثت بعد فتح مكة وقبل غزوة

---

(١) انظر كتابنا (غزوة الأحزاب) ص ٣٠

(٢) انظر ترجمة خالد بن سعيد فيما يأتى من هذا الكتاب .

(٣) جذيمة . بطن من كنانة ، وهم بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة . كانوا يسكنون =

حنين . تلك الوقعة التي أوقع فيها خالد بن الوليد ببنى جذيمة ، وتعرض فيها للوم من رسول الله ﷺ بسبب خطأ وقع فيه لم يكن عن سوء نية منه . حيث قتل مجموعة من بنى جذيمة وهم مسلمون ظناً منه أنهم لا يزالون مشركين .

وتفصيل ذلك أن النبى ﷺ كلف خالداً بن الوليد قائد الفرقة الرابعة التي تولت الزحف على مكة من جنوبيها كلفه بالتوجه إلى ديار بنى جذيمة داعياً إلى الإسلام ، ولم يبعثه مقاتلاً[1] .

فقد ذكر المؤرخون أن النبى ﷺ عقد لخالد بن الوليد لواء القيادة على ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المجاهدين والأنصار وبنى سليم . وبعثه من مكة إلى بنى جذيمة أسفل مكة .

وكان خالد (كقائد عسكرى حازم) معروفاً بسرعة اتخاذ القرارات وسرعة تنفيذها . . ونتيجة ذلك تسرع فى أمور (مجتهداً) فارتكب أعمالاً تبرأ منها الرسول ﷺ وغضب لها على خالد ، وذلك أنه (باجتهاد منه) أمر رجاله بأن يعدموا بعض الأسرى من بنى جذيمة الذين اتضح أنهم مسلمون وليسوا مشركين . ولكن الرسول ﷺ عقب التحقيق الذى أجراه مع خالد رضى الله عنه بعد أن استغفر له ثم دفع ديات القتلى من بنى جذيمة . لأنهم مسلمون ولأن قتلهم كان عن طريق الخطأ فى الاجتهاد من القائد المسؤول خالد بن الوليد .

قال الواقدى : لما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى إلى رسول الله ﷺ وهو مقيم بمكة ، بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى جذيمة ، وبعثه داعياً لهم إلى الإسلام ولم يبعثه مقاتلاً فخرج فى المسلمين من المجاهدين والأنصار وبنى سليم ، فكانوا ثلاثمائة وخمسين رجلاً ، فانتهى إليهم بأسفل مكة ، فقيل لبنى جذيمة هذا خالد بن الوليد معه المسلمون . قالوا : ونحن قوم مسلمون ، قد صلينا وصدقنا بمحمد ، وبنينا المساجد وأذنا فيها . فانتهى إليهم خالد وقال :

= الغميصا (معجم قبائل العرب) ج ١ ص ١٧٦ .

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٧٥ .

الإسلام . فقالوا : نحن مسلمون . قال : فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم . فأخذنا السلاح لكى ندفع عن أنفسنا من خالف دين الإسلام . قال : فضعوا السلاح فقال لهم رجل منهم يقال له جحدم : يا بنى جذيمة ، إنه والله خالد وما يطلب محمد من أحد أكثر من أن يقر بالإسلام ، ونحن مقرون بالإسلام ، وهو خالد لا يريد بنا ما يراد بالمسلمين ، وأنه ما يقدر مع السلاح إلا الإسار ، ثم بعد الإسار السيف . . قالوا نذكرك الله ، تسومنا . فأبى يلقى سيفه حتى كلموه جميعاً ، فألقى سيفه وقالوا : إنا مسلمون والناس قد أسلموا ، وفتح محمد مكة ، فما نخاف من خالد ؟ فقال : أما والله ليأخذنكم بما تعلمون من الأحقاد القديمة . فوضع القوم السلاح ، ثم قال لهم خالد : استأسروا . فقال جحدم : يا قوم ما يريد من قوم مسلمين يستأسرون . إنما يريد ما يريد ، فقد خالفتمونى وعصيتم أمرى ، وهو والله السيف ، فاستأسر القوم ، فأمر بعضهم يكتِّف بعضاً ، فلما كتفوا دفع إلى كل رجل من المسلمين الرجل والرجلين ، وباتوا فى وثاق ، فكانوا إذا جاء وقت الصلاة يكلمون المسلمين فيصلون ثم يربطون ، فلما كان فى السحر ، والمسلمون قد اختلطوا بينهم ، فقائل يقول : ما نريد بأسرهم ، نذهب بهم إلى النبى ﷺ . وقائل يقول : ننظر هل يسمعون أو يطيعون ، ونبلوهم ونخبرهم ، والناس على هذين القولين ، فلما كان فى السحر نادى خالد بن الوليد : من كان معه أسير فليذافه — والمذافة الإجهاز عليه بالسيف — فأما بنو سليم فقتلوا كل من كان فى أيديهم ، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا (أطلقوا) أساراهم .

وقد جرت مشادة بين القائد خالد بن الوليد وأحد كبار الأنصار — أبو أسيد الساعدى — ، حين غضب خالد إذ أطلق الأنصار والمهاجرون أسراهم ولم يعدموهم . فقال أبو أسيد : اتق الله يا خالد والله ما كنا لنقتل قوماً مسلمين . قال خالد : وما يدريك ؟ قال (أبو أسيد) : نسمع إقرارهم بالإسلام ، وهذه المساجد بساحتهم .

وعند عودة خالد من ديار جذيمة — بعد الذى فعل — لامه كبار الصحابة ، عبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وكان

يدافع عن نفسه مبرراً ما صنع .

إلا أن عمر بن الخطاب استطاع أن يكشف له أنه قد أخطأ فى تصرفه ، فاعترف خالد وطلب من عمر أن يذهب إلى رسول الله ﷺ ويطلب منه أن يستغفر له .

فقد قال عمر لخالد وهو يناقشه فى الأمر ـــ: ويحك يا خالد أخذت بنى جذيمة بالذى كان من الجاهلية ، أو ليس الإسلام قد محا ما كان قبله فى الجاهلية ؟ فقال : يا أبا حفص ، ما أخذتهم إلا بالحق ، أغرت على قوم مشركين وامتنعوا فلم يكن لى بد من قتالهم إذ امتنعوا فأسرتهم ، ثم حملتهم على السيف . فقال عمر أىَّ رجل تعلم عبد الله بن عمر ؟ قال أعلمه والله رجلاً صالحاً ، قال فهو أخبرنى غير الذى أخبرتنى وكان معك فى ذلك الجيش . قال خالد . فإنى أستغفر الله وأتوب إليه . قال : فانكسر عنه عمر ، وقال : ويحك إيت رسول الله يستغفر لك[1] .

قالوا : فلما بلغ رسول الله ﷺ ما صنع خالد رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه ، وهو يقول : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد ، وقدم خالد بن الوليد والنبى ﷺ عاتب .

ثم إن النبى ﷺ بعد الذى بلغه ، وبعد ما أثبتت التحقيقات خطأ خالد فيما صنع ، قرر أن يدفع ديات قتلى بنى جذيمة الذين أعدمهم خالد باعتبار أن قتلهم كان خطأ ، فاستدعى على بن أبى طالب وأعطاه مالاً . فقال : انطلق إلى بنى جذيمة واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك . فَدَلَّهم ما أصاب خالد بن الوليد .

فخرج على بذلك المال حتى جاءهم ، فشرع فى دفع ديات قتلاهم ، فلم يكف المال الذى اصطحبه معه ، فاستزاد من رسول الله مالاً جديداً ليكمل دفع حقوق بنى جذيمة ، حيث بعث أبا رافع إلى الرسول ﷺ يطلب منه مده بالمال فأجاب طلبه ودفع المال المطلوب إلى رافع ، الذى عاد بدوره إلى على بديار بنى جذيمة ، فوَدَى (أى دفع دية) كل ما أصاب خالد حتى أنه

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٠ ـــ ٨٨١ .

ليدى لهم ميلغة[1] الكلب ، حتى إذا لم يبقَ لهم شيء يطلبونه ، بقى مع على بقية من المال . فقال على : هذه بقية من المال لكم من رسول الله ﷺ مما أصاب مما لا يعلمه ولا تعلمونه . فأعطاهم ذلك المال ، ثم انصرف إلى النبى ﷺ فأخبره[2] .

وكان النبى ﷺ قد استقرض المال الذى دفعه ديات وتعويضات لبنى جذيمة . استقرضه ، لأنه لم يكن لدى المسلمين مال عند فتح مكة . . قالوا : استقرض رسول الله ﷺ هذا المال من ثلاثة من كبار تجار مكة وهم حويطب بن عبد العزّى ، وصفوان بن أمية ، وعبد الله بن أبى ربيعة[3] .

حقيقة موقف خالد من قتل بنى جذيمة

ليس هناك شك فى أن القائد خالداً قد أخطأ فى قتله مَن قتل من بنى جذيمة ، ولو لم يكن قتلهم ومصادرة أموالهم خطأ ما دفع الرسول ﷺ لهم الديات والتعويضات . كما أن مما لا جدال فيه أن تصرف خالد الذى انتهى بقتل من قتل من بنى جذيمة ناتج عن خطأ فى الاجتهاد ، فلم يقتلهم عن عمد وإصرار مع علمه أنهم مسلمون . بل حدث التباس فى الأمر ، فجرى قتلهم على اعتبار أنه أمر بالإغارة عليهم وانطلاقاً من الظن أنهم غير مسلمين . وهذه حقيقة يسندها أن النبى ﷺ دفع الديات عن القتلى لبنى جذيمة ، ولو ثبت أن خالداً قتلهم (مع تيقنه أنهم مسلمون) لنفذ فيه الرسول حكم القصاص ، ولكن عنصر الخطأ الناتج عن الخطأ فى الاجتهاد ، لما كان موجوداً فى القضية ، اكتفى الرسول ﷺ بدفع ديات مَن قتل خالد من بنى جذيمة . بل إن النبى ﷺ رضى بعد ذلك عن خالد بعد أن كان قد غضب عليه وأعرض عنه فترة من الزمن .

بل لقد جاء فى بعض الروايات (صريحاً) أن خالداً إنما قتل مَن قتل من بنى جذيمة بعد أن امتنعوا منه واستعدوا لمقاتلته رغم إعطائهم مهلة كافية نهايتها صلاة العشاء .

---

(١) الميلغة : الإناء بلغ فيه الكلب .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٧٢ ــ ٧٣ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٠ ــ ٨٨١ ــ ٨٨٢ .

(٣) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٢ .

فقد قال الواقدى : وحدثنى سيف بن يعقوب بن عتبة عن عثمان بن محمد الأخنسى ، عن عبد الملك بن عبد الرحمن بن الحارث ، قال : أمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد يغير على بنى كنانة إلا أن يسمع أذاناً أو يعلم إسلاماً ، فخرج حتى انتهى إلى بنى جذيمة فامتنعوا أشد الامتناع ، وقاتلوا وتلبَّسوا السلاح ، فانتظر بهم صلاة العصر والمغرب والعشاء ، لا يسمع أذاناً ، ثم حمل عليهم فقتل من قتل وأسر من أسر فادَّعوا بعد الإسلام .

قلت : بل مما يؤكد الالتباس فى مشكلة بنى جذيمة وأن خالداً أخطأ فى قتلهم عن عدم سوء نية ما جاء فى صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٠٣ من رواية الزهرى عن سالم عن أبيه قال : بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا ، صبأنا ، صبأنا . فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ودفع إلى كل رجل منا أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره ، فقلت : والله لا أقتل أسيرى ، ولا يقتل رجل من أصحابى أسيره ، حتى قدمنا على النبى ﷺ فذكرناه فرفع النبى ﷺ يده فقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين .

وقال بعض من يعذر خالداً : إن خالداً قال — لما وجه إليه اللوم — ما قاتلت حتى أمرنى بذلك عبد الله بن حذافة السهمى[1] وقال : إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام[2] .

وجاء فى كتب السيرة أن النبى ﷺ لما بلغه ما حدث لبنى جذيمة على يد خالد سأل رجلاً ممن انفلت من الجيش بالخبر : هل أنكر عليه (أى خالد) أحد فقال : نعم ، قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة ، فنهمه خالد فسكت عنه . وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب ، فراجعه ، فاشتدت مراجعتهما . فقال عمر بن الخطاب : أما الأول يا رسول الله فابنى عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى أبى حذيفة[3] .

---

(١) أنظر ترجمته (فى كتابنا صلح الحديبية)

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ٧٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٧٢ .

الرسول يرضى عن خالد بعد أن غضب عليه

وقد جرت مشادة (فى مجلس الرسول ﷺ) بين خالد وبعض السابقين الأولين فى الإسلام مثل عبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر .. حول ما صنع خالد ببنى جذيمة ، وكان خالد قد غالط عبد الرحمن بن عوف فى الكلام فبلغ الرسول ﷺ ذلك فقال حديثه المشهور : « يا خالد ذروا لى أصحابى متى يُنكَ أنف المرء يُنكَ ، لو كان أُحد ذهباً تنفقه قيراطاً قيراطاً فى سبيل الله لم تدرك غَدوة أو رَوحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن بن عوف .. وفى حق عمّار بن ياسر . قال رسول الله ﷺ : « صه يا خالد لا تقع بأبى اليقظان ، فإنه مَن يعادِه يعاده الله ، ومن يبغضه يبغضه الله ، ومن يسفهه يسفهه الله » [1] .

وقد ذكر المؤرخون أن خالد بن الوليد اعتذر لعبد الرحمن بن عوف عما بدر منه وطلب منه الصفح فقد مشى عثمان بخالد إلى عبد الرحمن بن عوف فاعتذر إليه حتى رضى عنه فقال : استغفر لى يا أبا محمد[2] .

غير أن الرسول ﷺ إذا كان قد نهى خالداً عن التعرض للسابقين الأولين مثل عبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر ، فإن الرسول كذلك نهى الجميع عن سب خالد والتعرض له .. فقد روى الواقدى عن عبد الله بن جعفر عن عثمان بن محمد بن الأخنسى عن عبد الملك بن أبى بكر بن عبد الرحمن ، قال : قال رسول الله ﷺ : لا تسبُّوا خالد بن الوليد فإنما هو سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين[3] .

وقد رضى الرسول ﷺ عن خالد بن الوليد (بعد عتبه وغضبه عليه) وكرر الثناء عليه . فقد روى عن أبى الأحوص عن النبى ﷺ أنه قال : نِعم عبد الله خالد بن الوليد وأخو العشيرة ، وسيف من سيوف الله ، سله على الكفار والمنافقين . كما أن الرسول ﷺ بعد قدوم على بن أبى طالب من مهمته التى دفع فيها ديات قتلى بنى جذيمة . رضى عن خالد وأقبل عليه (بعد أن

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٠ — ٨٨١

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ٨٨١

(٣) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٣

ترضّاه خالد) ، وما زال خالد عند الرسول ﷺ من علية أصحابه حتى توفى الرسول ﷺ[1] .

ولا أدل على أن مكانة القائد خالد بن الوليد ظلت على ما كانت عليه لدى الرسول ﷺ من أنه ﷺ جعل خالداً على مقدمة الجيش عندما تحرك به إلى حنين . فخاض معه (وهو على مقدمة جيشه من الفرسان) تلك المعركة الحاسمة .

وقال الواقدى : ولقد كان (أى خالد) المقدّم حتى مات . ولقد خرج معه ﷺ بعد ذلك إلى حنين على مقدّمته ، وإلى تبوك ، وبعثه رسول الله ﷺ إلى أكيدر ، ودومة الجندل فسبى من سبى ، ثم صالحهم . ولقد بعثه رسول الله ﷺ إلى بلحارث بن كعب إلى نجران أميراً وداعياً إلى الله . ولقد خرج فى حجة الوداع مع رسول الله ﷺ ، فلما حلق رسول الله ﷺ رأسه أعطاه ناصيته ، فكانت فى مقدمة قلنسوته ، فكان لا يلقى أحداً إلا هزمه الله تعالى ، ولقد قاتل يوم اليرموك فوقعت فجعل يقول : القلنسوة .. القلنسوة . فقيل بعد ذلك يا أبا سليمان .. عجباً لطلبك القلنسوة وأنت فى حومة القتال . فقال : إن فيها ناصية النبى ﷺ ، ولم ألق بها أحداً إلا ولىَّ .

ولقد توفى خالد يوم توفى وهو مجاهد فى سبيل الله ، وقبره بحمص . قال الواقدى : فأخبرنى مَن غسله وحضر موته ، ونظر إلى ما تحت ثيابه ، ما فيه مصح ، ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم . لقد كان عمر بن الخطاب ، الذى بينه وبينه ليس بذلك ، ثم يذكره فيترحم عليه ويتندم على ما كان صنع فى أمره ، ويقول : سيف من سيوف الله تعالى . ولقد نزل رسول الله ﷺ حين هبط من لفت[2] فى حجته ، ومعه رجل ، فقال رسول الله ﷺ : من هذا ؟ فقال الرجل : فلان . فقال : بئس عبد الله فلان . ثم طلع آخر . فقال : من الرجل ؟ فقال : فلان . فقال : بئس فلان عبد الله . ثم طلع خالد بن الوليد فقال : من هذا ؟ قال : خالد بن الوليد . فقال : نعم عبد الله خالد بن الوليد[3] .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٣

(٢) لفت . قال فى معجم البلدان ج ٧ ص ٣٣٣ : ثنية بين مكة والمدينة

(٣) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٣ ـــ ٨٨٤

الفصل الثانى

- من هم هوازن ؟
- هوازن تشعر بالخطر بعد استيلاء المسلمين على مكة .
- الاستنفار العام بين عشائر هوازن لحرب المسلمين .
- هوازن تفكر فى إخراج المسلمين من مكة .
- هوازن تحشد عشرين ألف مقاتل لغزو المسلمين .
- هوازن تنصب مالك بن عوف النصرى ملكاً عليها وقائداً عاماً لجيشها .
- الخطأ القاتل فى استراتيجية قائد هوازن .
- قائد هوازن يأمر باصطحاب النساء والأطفال والأموال مع الجيش .
- دريد بن الصّمَّة المعمِّر ينتقد استراتيجية مالك بن عوف .
- استخبارات الرسول ﷺ فى معسكرات هوازن .
- تحرك الجيش الهوازنى صوب مكة .
- هوازن تعسكر فى وادى حنين قبل المسلمين .

من هم هوازن ؟

قبل الدخول فى تفاصيل معركة حنين يحسن بنا إعطاء القارئ الكريم لمحة عن نسب وتاريخ هوازن .

يُجمع المؤرخون وأصحاب المعاجم أن هوازن من أعظم القبائل وأكثرها خطراً فى الجزيرة العربية . فهى قبيلة مضرية عدنانية ، وهى تنتسب إلى قيس عيلان . وتعتبر أهم بطونها .

فهى تنتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

لهوازن أجنحة كثيرة جداً ومن أهم هذه الأجنحة (ثقيف سكان الطائف وما حواليها) وكعب وكلاب وبنو هلال وبنو عامر بن صعصعة وبنو جُشَم عشيرة (دريد بن الصمّة) وبنو نصر (قوم مالك بن عوف) .

وتجمع هوازن أجرام رئيسية ثلاثة كلهم لبكر بن هوازن ، وهم : بنو سعيد ابن بكر ، وبنو معاوية بن بكر ، وبنو منبّه بن بكر .

وهوازن من حيث القوة والعدد يضاهون قبائل غطفان النجدية الشهيرة والتى حاربت الرسول ﷺ فى عدة مواطن ، وحاصرت المدينة مع قريش عام الأحزاب .

أما مواطن هوازن فهم يحتلون مسافات شاسعة فى الجزيرة العربية حتى إنهم لكثرة عشائرهم وبطونهم يشتركون فى سكنى نجد والحجاز ، حيث تمتد منازلهم من وادى حنين قرب مكة حتى توغل فى جنوب نجد الغربى مما يلى اليمن . فهوازن قبيلة نجدية حجازية .

كانت هوازن قبيلة شرسة محاربة فى الجاهلية ، ولها حروب كثيرة مع جيرانها من القبائل المختلفة ، ومع بعضها البعض ، كما هى أساليب الحياة السائدة فى الجاهلية قبل الإسلام .

فمثلاً ثقيف تُعتبر من أهم أجنحة هوازن ، لأنها من نسل أحد الأجرام الرئيسية لهوازن ، ثقيف هذه دارت بينها وبين بقية قبائل هوازن فى الجاهلية معركة تاريخية ، تسمى معركة أنتان ؛ وذلك لكثرة جثث القتلى التى تركت فى

الميدان حتى أنتنت ، وهذه المعركة دارت بين ثقيف وهوازن بالقرب من الطائف .

كما حاربت هوازن فى الجاهلية كنانة وانتصرت عليها ، وكنانة قبيلة عظيمة تقع فى الحجاز على محور يدور بين قريش وسُليم وخزاعة وهوازن . وكانت كنانة حليفة لقريش . وكان اليوم الذى دارت فيه المعركة بين كنانة وهوازن يسمى يوم شمظة .

كذلك فى الجاهلية حاربت هوازن بنى الحارث بن كعب وهى من أعظم القبائل القحطانية الساكنة بنجران وما حواليها .

هوازن وحروب الفِجَار

ولعل أشهر حروب هوازن فى الجاهلية هى حروب الفجار [1] وكانت الحروب كلها بين هوازن من جهة وبين كنانة وقريش من جهة ثانية .

وكانت هذه الحروب أربع كلها تقع فى الأشهر الحُرُمُ حيث يجتمع العرب فى سوق عكاظ . وكانت أخطر هذه الحروب وأشدها ضراوة حروب الفِجار الرابعة التى استمرت عدة سنوات وقتل فيها مجموعة هائلة من شيوخ وسادات الفريقين . ونحن نذكر باختصار هذه الفِجارات الأربع :

الفجار الأول : وسببه أن رجلاً من غفار ثم من بنى كنانة يقال له بدر ابن معشر ، كان قد حضر سوق عكاظ ، وكان متكبراً ويتحرش بالناس ويتحداهم ، وكان قد اتخذ مجلساً وبسط فيه رجليه وينادى : أنا أعزّ العرب ، فمن زعم أنه أعز منى فليضرب هامتى بالسيف . فمر به رجل من بنى نصر من هوازن يقال له الأحمر بن مازن بن أوس ، فتحداه وضربه بالسيف فبتر رجله . وكادت الحرب الشاملة تنشب بين الفريقين إلا أن العقلاء تداركوا الأمر ، واصطلحوا فيما بينهم .

---

(١) سميت هذه الحروب باسم حروب الفجار . بمعنى المفاجرة ، مثل القتال والمقاتلة ، وذلك أن القوم تحاربوا فى الأشهر الحرم ، ففجروا فيها ، ولذلك سموا الفجار .

الفجار الثانى : وسببه أن فتية من قريش وكنانة تحرشوا فى سوق عكاظ بامرأة من هوازن من بنى عامر بن صعصعة ونالوها بإهانة . فغضبت لذلك هوازن ودارت الحرب بين الفريقين ، ولكن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيد قريش ، نجح فى إيقاف هذه الحرب حيث اعتذر لهوازن باسم قريش عما بدر من فتيانها حيال المرأة العامرية ثم دفع ديات قتلى هوازن ولم يحسب قتلى قريش وكنانة فرضيت هوازن .

الفجار الثالث : وكان سببه أن رجلاً من بنى جَشَم من هوازن له دين على رجل من بنى كنانة ، فماطله طويلاً ، فلما أعياه عمد إلى التشهير به فى سوق عكاظ ، حيث أخذ قرداً ثم صار يطوف على القبائل منادياً : من يبيعنى مثل هذا الرُّباح بما لى على فلان بن فلان الكنانى ، فلما طال بذلك نداؤه وتعييره به كنانة ، مر به رجل من بنى كنانة فضرب القرد بسيفه فقتله ، فتداعى الفريقان للحرب ، إلا أن العقلاء من الفريقين حجزوا بينهم ، وقالوا : أفى قرد تريقون دماءكم . ثم حسم الموقف عبد الله بن جدعان كريم قريش المشهور ، وضمن للهوازنى ماله الذى له على الكنانى ودفعه إليه . وانتهت المشكلة .

الفجار الرابع : وهو أخطر الفجارات الأربع حيث بسببه دارت بين هوازن من جهة وبين قريش وكنانة من جهة ثانية خمس حروب طاحنة سقط فيها عدد هائل من الضحايا من الفريقين .. ولم تتوقف هذه الحروب إلا بعد أن شعر الفريقان بالدمار ، فأجروا فيما بينهم مفاوضات انتهت بالصلح .

أما سبب هذه الحروب والمشهورة بحرب الفجار . والتى كان بين بدايتها وبين مبعث النبى ﷺ ست وعشرون سنة[1] ، هو أن رجلاً من بنى ضِمرة ابن بكر من كنانة ، كان سكيّراً مدمناً وفاسقاً ، اسمه البرَّاض بن قيس بن رافع ، فخلعه قومه وتبرأوا منه لسوء سلوكه . فلجأ إلى قريش فى مكة ، وحالف حرب بن أمية بن عبد شمس ، فأحسن إليه ، ولكن البكرى (البرَّاض) الخليع عاد سيرته الأولى فسكر وعربد فى مكة ، فهمَّ حرب بن أمية أن يخلعه ويتبرأ من حلفه . ولكن البراض رجا حرب بن أمية أن لا يفعل ، وأن

---

(١) الأغانى ج ١٩ ص ٧٥ طبعة بولاق .

يبقيه على حلفه ، شريطة أن يغادر مكة . وفعلاً خرج من مكة ولحق بالملك النعمان بن المنذر بالحيرة فى العراق فأقام عنده وهو على حلفه مع حرب بن أمية .

سوق عكاظ هى السبب

كانت سوق عكاظ من أشهر الأسواق بين العرب لا فى الجزيرة العربية وحدها ، بل فى الشرق الأدنى كله ، وكانت هذه السوق تبدأ بأول ذى القعدة من كل عام ولا تزال قائمة يبيع الناس ويشترون فيها ويتعاكظون إلى أن يحضر الحج . وعكاظ تقع ما بين نخلة (وادى اليمانية والطائف) . فهى (أصلاً) فى ديار هوازن .

وكان الملك النعمان بن المنذر يغتنم فرصة سوق عكاظ فيبعث من كل سنة قوافل محملة بمختلف السلع والبضائع إلى هذه السوق ، لتباع هذه البضائع والسلع ، ويُشترى بثمنها من منتوجات البلاد العربية ، وبضائع أخرى مما يرد إلى سوق عكاظ .

وفى تلك السنة التى نشبت فيها حرب الفجار ، أوقر الملك النعمان قافلة كبيرة من الجمال بمختلف السلع والبضائع ، وقرر أن يبعث بها (كالمعتاد) إلى سوق عكاظ ، وبحث عمن يجيرها فى بلاد العرب حتى تعود من عكاظ إلى الحيرة . فقال البراض أنا أجيرها . فقال له النعمان (وكان يعرف أنه خليع وأنه ليس من قيس) : إنما أريد رجلاً يجيرها على أهل نجد . فقال عروة الرحال ابن عتبة بن جعفر بن كلاب (وهو من هوازن) : أنا أجيرها أبيت اللعن . فقال له البراض (وهو من كنانة) : أتجيرها على كنانة ؟ قال : نعم وعلى الخلق كله ، أفكلب خليع يجيرها ؟ يعرّض بالبراض بن قيس . وكان عروة الرحال فى أعز قبيلة نجدية هوازنية ، وهى بنو عامر بن صعصعة . فقبل الملك النعمان بجوار عروة ، فشخص عروة بقافلة الملك النعمان ، فاجتاز بها حدود الجزيرة العربية . وكان البراض بن قيس يتعقب عروة الرحال ، فيعرف عروة ذلك فلا يخشاه .

وحتى إذا ما تخطى عروة بالقافلة أكثر بلاد نجد ، وفى مكان من أرض

(م – ٣ * غزوة حنين)

غطفان يقال له (تيمن) وهو قريب من خيبر ، نام عروة الرحال فى ظل شجرة ، فاغتنمها البراض بن قيس فرصة فوثب على عروة فى الشهر الحرام وقتله . ثم استولى على القافلة واستاقها وما تحمل من أموال تابعة للملك النعمان وقصد بها مكة .

وفى الوقت الذى قتل فيه البراض بن قيس الكنانى عروة الرحال الهوازنى ، كانت سوق عكاظ قائمة وذلك فى الشهر الحرام وهو شهر ذى القعدة الذى يأمن فيه العرب ، كل العرب ، بعضهم بعضاً مهما كانت بينهم من دماء . وكان البراض ، كما قلنا ، كنانياً وحليفاً لقريش ، وكانت قريش وكنانة متواجدتان فى سوق عكاظ التى هى فى أرض هوازن ، فخشى البراض ، بعد أن ارتكب فعلته ، أن يبلغ الخبر هوازن فتقتل برجلها عروة رجلاً عظيماً من قريش أو كنانة ، فاستأجر البراض رجلاً وكلفه ، بعد أن أجزل له العطاء من الإبل ، بأن يبلغ حليفه حرب بن أمية بن عبد شمس ، وعبد الله بن جدعان ، وهشاماً والوليد ابنَى المغيرة بأنه قد قتل عروة الرحال لينسحبوا مع سائر قريش وكنانة من عكاظ قبل أن يبلغ قيسا عيلان الخبر فيقتلوا به عظيماً من قريش . فقال المستأجَر للبراض : وما يؤمنك أن تكون أنت ذلك القتيل ؟ قال : إن هوازن لا ترضى أن تقتل بسيدها رجلاً خليعاً طريداً من بنى ضمرة (يعنى نفسه) .

وفى الحال وقبل أن يصل خبر الحادث الفظيع هوازن ــ تبلَّغت قريش وكنانة الخبر فكتموه لئلا تفتك بهم هوازن فى عكاظ ، فقرروا الانسحاب منها خلسة .

ولما كان الوقت فى الشهر الحرام والناس آمنون بعضهم بعضاً ، دفع العرب كلهم أسلحتهم إلى عبد الله بن جدعان القرشى وديعة حتى يفرغوا من أسواقهم وحجهم ثم يردها عليهم ، وتلك عادتهم من كل سنة .

المعركة الأولى من الفجار الرابع

فقد كان عبد الله بن جدعان من أرفع قريش بل من أرفع العرب قدراً ، وكان سيداً عاقلاً حكيماً وواسع الثراء ، فجاءه حرب بن أمية حليف

البراض القاتل . وطلب منه أن يمنع عن هوازن سلاحها المؤمن لديه ، كي يسهل على قريش وكنانة التغلب على هوازن ، إذا ما نشبت الحرب بينهما ، فغضب عبد الله بن جدعان وقال لحرب بن أمية : أبالغدر تأمرني ؟ والله لو أعلم أنه لا يبقى منها سيف إلا ضربت به ولا رمح إلا طعنت به ما أمسكت منها شيئاً ، ثم نادى منادى ابن جدعان فى عكاظ من كان له سلاح قِبَلى فليأت وليأخذه فأخذ الناس جميعاً أسلحتهم ، وانسحبت قريش وكنانة من عكاظ خلسة ، وبعد انسحابهم وهم لمَّا يزالوا فى الطريق خارج الحرم أرسل عبد الله بن جدعان وحرب بن أمية وبقية سادات قريش يبلغون هوازن سبب خروجهم المفاجئ من عكاظ وأنهم يخشون الاشتباك المسلح وتفاقم الأمر فى السوق حيث تحضره عامة العرب ، وبلغ هوازن آخر النهار قتل البراض عروة ، فقال سيد هوازن بعكاظ ، أبو البراء : خدعنى حرب وابن جدعان ، وركب فيمن حضر عكاظ من هوازن وجدُّوا على متون الخيل فى أثر قريش ، فأدركوهم بوادى نخلة فاقتتلوا وتدرجَت قريش فى الانسحاب وهى تقاتل حتى دخلوا الحرم وجنَّ عليهم الليل ، فكفت هوازن عن ملاحقتهم تهيباً من إجراء القتال فى الحرم ، ولكنهم اتَّعَدوا عكاظاً من العام القادم للقتال .

المعركة الثانية من الفجار الرابع

واستعد الفريقان للمعركة الثانية ولم يتحرَّجوا أن تكون فى الشهر الحرام فأوعبت قريش وكنانة كما احتشدت كل قبائل هوازن ما عدا كعب وكلاب ، وسبقت هوازن إلى سمطة من عكاظ ، وجاءت قريش وكنانة فالتقى الفريقان ودارت المعركة رهيبة بين الفريقين ، وكان النصر فى المرحلة الأولى من المعركة لقريش وكنانة غير أن هوازن تذامروا وصبروا ، فاستحرّ القتل فى قريش ، فساندتهم كنانة ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم آخر الأمر حيث انسحبوا إلى جبل يقال له : رخما .

المعركة الثالثة من الفجار الرابع

وبعد مضى سنة التقى الفريقان بعكاظ فى مكان يقال له : العَبلاء فاقتتلوا قتالاً ضارياً وكان النصر فى هذه المعركة حليف هوازن على كنانة وقريش . فقال

فى ذلك شاعر هوازن :

ألم يبلغك ما قالت قريش وحىّ بنى كنانة إذ أثيروا
دهمناهم بأرعنَ مُكْفَهِرٍّ فظل لنا بعقوتهم زئير
نقوِّم مارنَ الخطِّى فيهم يجىء على أسنتنا الزئير

وانسحبت كنانة وقريش بعد أن نزلت بهم الهزيمة .

المعركة الرابعة من الفجار الرابع

وقد تأثرت قريش بالهزيمة فى العبلاء فاستعدت للمعركة القادمة أضخم استعداد ، حتى أن عبد الله بن جدعان وحده جهز ألف مقاتل من كنانة على ألف بعير من ماله الخاص ، وخشيت قريش أن تغلبها هوازن كما فى يوم العبلاء . فوطن رجالها أنفسهم على الموت ، وعلى مدار الحول التقى الفريقان من جديد بعكاظ فى الشهر الحرام ، وثبتت قريش ذلك اليوم ثباتاً عظيماً حتى إن إخوة ثلاثة وهم حرب وسفيان وأبو سفين أبناء أمية بن عبد شمس قيدوا أنفسهم وقالوا لا نبرح حتى نموت مكاننا

ودارت المعركة رهيبة ضارية وصبر الفريقان صبراً عظيماً وأوجع القتل بنى كنانة فهموا بالانهزام ، ولكن قريشاً حافظت أشد الحفاظ على مواقعها فخجل بنو كنانة (بعد أن قرروا الهرب) وصبروا ، فاستعرّت المعركة بضراوة من جديد ، وحملت قريش وكنانة حملة شديدة على هوازن ، فشرعت بعض عشائر هوازن فى الهزيمة وانهزمت كلها إلا بنى نصر فصبروا وعقل قائدهم سبيع بن أبى ربيعة نفسه كى تخجل هوازن ، ونادى يا آل هوازن وكررها ، ولكن الهزيمة كانت أكبر من أن يسمع فيها أحد صوت سبيع .

امرأة من قريش تجير هوازن

وركبت قريش وكنانة هوازن تقتل فيهم وتأسر ، وكان مسعود بن معتِّب الثقفى ، والد عروة بن مسعود قد ضرب على امرأته القرشية ، سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف خباء فى عكاظ . وقال لها : من دخله من قومك قريش هو آمن . فأخذت توسِّع فى خبائها ليتسع لأكبر عدد ممكن من الناس ، فقال لها زوجها مسعود : لا يتجاوزنى خباؤك ، فإنى لا أضمن حياة إلا من

أحاط به الخباء ، فأغضبها قوله ، وقالت له (ساخرة) : أما والله إنى لأظن أنك ستودّ أن لو زدت فى توسعته .

فلما انهزمت هوازن دخل رجال من هوازن خباءها مستجيرين بها من القتل . فاستدعت ابن أخيها حرب بن أمية . فقال لها يا عمة : من تمسك بأطناب خبائك أو دار حوله فهو آمن ، فنادت بذلك فى هوازن وقيس حتى كثروا جداً — حيث لم يبق أحد منهم لا نجاة عنده إلا دار بخبائها ، فقيل لذلك الموضع : مدار قيس (وهى قيس عيلان التى منها هوازن وكان يضرب به المثل فتغضب قيس منه) ولما انهزمت قيس عيلان خرج مسعود بن معتب هارباً إلى زوجته ربيعة بنت عبد شمس ، فجعل أنفه فى صدرها ، وقال : أنا بالله وبك فقالت : كلا زعمت أنك ستملأ بيتى من أسرى قومى ، اجلس فأنت آمن .

المعركة الخامسة من الفجار الرابع

ثم نشبت بين الفريقين المعركة الخامسة ، وقد دارت بعكاظ أيضاً وفى الشهر الحرام ، وهذه المعركة سميّت (يوم الحريرة) وهى حرَّة إلى جانب عكاظ ، وكانت المعركة شديدة أيضاً ، واستحرّ القتل فى صفوف الفريقين إلا أن الدائرة دارت على كنانة قريش فانهزموا ، وكان القتل فى كنانة وقريش أكثر فى هذه المعركة ، إلا أن عقلاء الفريقين أدركوا أن هذه الحرب لن تنتهى حتى يتفانى الفريقان ، فعقدوا بينهم هدنة مؤقتة للتفاوض ، وتفاوض زعماء الفريقين فعلاً ، واتفقوا على الصلح ، وذلك بأن يُحصى قتلى الفريقين ثم تدفع ديات عدد القتلى الزيادة إلى الفريق الذى يكونون فيه ، فاتفقوا على ذلك ، ولكى ينجح الصلح وتنتهى الحرب إلى الأبد ، قدَّم كل من المتحاربين رهينة حتى تدفع ديات القتلى الزيادة .

فرهن حرب بن أمية ابنه أبا سفيان عن قريش ، ورهن الحرث بن كلدة الثقفى عن هوازن ابنه النضر ، ورهن سفيان بن عوف عن كنانة ابنه الحرث ، حتى أُحصىَ قتلى الفريقين ودفعت ديات القتلى الزيادة وكانوا عشرين قتيلاً ، تزعم هوازن أنهم من قريش وكنانة ، وتزعم كنانة أنهم من هوازن . وبهذا

الصلح انتهت تلك الحروب الضارية التى خاضها الفريقان وارتكبوها فى الأشهر الحرم التى أجمع العرب منذ آلاف السنين على تحريم سفك الدم فيها مهما كانت المبررات ، ولذلك سميت (حرب الفِجار) ، ومن الشخصيات البارزة التى قتلت فى هذه المعارك .. من قريش أبو سفيان بن أمية بن عبد شمس عم أبى سفيان بن حرب ، والعوام بن خويلد أبو الزبير بن العوام ، وأخوه حزام بن خويلد ، وأحيحة بن أبى أحيحة العبشمى ومعمَّر بن حبيب الجُمَحى ، كما جرح حرب بن أمية أبو أبى سفيان بن حرب .

ومن هوازن قتل (الصمّة) أبو دريد بن الصمّة الشاعر والفارس المشهور . ويذكر المؤرخون أن الرسول ﷺ شهد حروب الفجار وهو دون العشرين وكان يناول أعمامه وأهله النبل فى القتال ، ويقال : إنه ﷺ طعن أبا براء ملاعب الأسنة ، وسئل ﷺ عن مشهده يومئذ فقال : ما سرنى أنى أشهده ، إنهم تعدوا على قومى ، عرضوا عليهم أن يدفعوا البراض صاحبهم فأبوا[1] هذه هى خلاصة حرب الفجار بين هوازن وقريش .

نظرة العرب إلى قريش

كان العرب الوثنيون ينظرون إلى قريش نظرة تهيب مشوبة بالكثير من التبجيل والإكبار ، باعتبارها من الناحية الدينية سادنة الكعبة (البيت المعظم عند كافة العرب) المختصة دون سائر العرب بحراسة الحرم وسقاية الحاج واستضافته .

فهى من الناحية الدينية الأب الروحى لجميع قبائل العرب الوثنية .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، ينظر العرب الوثنيون إلى قريش نفس النظرة ، باعتبارها النموذج الوحيد للوحدة والتماسك واتحاد الكلمة .

حيث كانت الجيل الوحيد بين العرب الذى يعيش (رغم تعدد عشائره) فى ظل وحدة سياسية ، وترابط اجتماعى مكين ، ووحدة عسكرية متماسكة كل التماسك . كل ذلك تحت قيادة جماعية منسقة وموزعة توزيعاً محكماً يدل على عراقة فى السياسة وبعد النظر وحظ وافر فى التحضر والوعى بالقياس إلى بقية قبائل

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٥ والأغانى ج ١٩ ص ٧٣ وما بعدها طبعة بولاق .

العرب الأخرى ، التى تعيش كلها فى أنظمة تحكمها الفوضى ولا شيء غير الفوضى .

دستور غير مكتوب

وقد كانت قريش تعيش هذه الحالة الفريدة المميزة لها على سائر العرب من حيث الوحدة والتماسك والتناسق ، بموجب قواعد قديمة موغلة فى القدم ، اتفقت عليها العشائر القرشية منذ عهد قصى بن كلاب موحد كلمتها ، وواضع أسس وحدتها .

وقد كانت القواعد التى تحكم المجتمع القرشى ، المتحد فى ظلها (عبر القرون) أشبه بالدستور الدائم المقدس (عندهم) غير المكتوب ، وبهذا تكون قريش قد سبقت بريطانيا إلى اتخاذ دستور غير مكتوب تحترمه ولا تخرج على حدوده بأكثر من عشرين قرناً .

فقد كانت جميع العرب فى الجاهلية ، لا توجد بينها أية مجموعة من عشائر أية قبيلة ، استطاعت الوصول إلى ما وصلت إليه قريش من وحدة وتماسك واتحاد فيما يشبه الدولة ذات الكيان الواحد المتماسك المترابط رغم الجو العشائرى الذى هو طابع حياتها .

أول برلمان عربى

فقد كانت قريش هى القبيلة الوحيدة من بين جميع القبائل الوثنية العربية التى لها (برلمان ومجلس شورى) له نوابه من مختلف العشائر ، يتشاور فيه هؤلاء النواب فى الأمور الهامة التى تحتاج إلى بحث ودرس وتشاور ، ويتخذون فيه القرارات الملزمة وهو (دار الندوة) التى أول من أسسها (فيما أذكر) قصى بن كلاب الجد الرابع للنبى ﷺ .

لذلك لم يكن طابع المجتمع القرشى الفوضى العشائرية ، كما هى الحال عند سائر العرب ، بل كانت قريش ، بواسطة برلمانها (دار الندوة) تضبط أمورها فى محيطها الوثنى ، وتسيطر على النظام فى المجتمع المكى سيطرة تامة ، ويحل زعماؤها الأزمات الداخلية كلما نشبت بين بعض الجهات القرشية ، أو بين بعض القرشيين وغيرهم .

فلا يسمحون بأن تتطور أية منازعات (مهما اشتدت) إلى حد الاقتتال كما هى الحال الشائعة فى محيط مختلف القبائل العربية الوثنية الأخرى التى قد تنشب بينهم حرب ضروس من أجل ناقة أو حصان كما حدث فى حربى داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، وحرب البسوس بين بكر وتغلب .

ولا أدل على هذه الحقيقة الحضارية (إن صحت هذه التسمية) التى تمتاز بها قريش من أنها لَمَّا اشتد الخلاف بين عشائرها حول أية عشيرة يحق لها أن ترفع الحجر الأسود إلى موضعه عند بناء الكعبة فى الجاهلية ، وبلغ شدة الخلاف إلى أن أصبحت على حافة حرب أهلية مدمرة ، تراجع العقلاء من زعمائها المتخاصمين على حل حكيم يدل على رجاحة عقل وتمدن بعيد المدى ، وهو أن يكون أول داخل من باب بنى شيبة من أبناء قريش حكماً فى النزاع الخطير حول الحجر الأسود . فكان أول داخل محمد بن عبد الله الهاشمى قبل أن يتلقى الوحى من السماء ، ففرح زعماء قريش واطمأنت نفوسهم لأن الحكم بينهم سيكون رجلاً تجمع قريش كلها على حبه واحترامه حتى أنها تسميه بالأمين ، فحل النبى محمد ﷺ الخلاف وقضى على النزاع الخطير بتصرف دل على رجاحة عقل وبعد نظر لا مثيل لهما ، حيث طلب إحضار ثوب وأمر بوضع الحجر الأسود فيه ، ثم طلب رجلاً من كل قبيلة ليمسك بجانب من الثوب فيرفع الجميع الحجر الأسود إلى موضعه فى الكعبة ، وبهذا تكون قريش كلها قد اشتركت فى رفع الحجر الأسود ، وبهذا التصرف الحكيم اختفى شبح الحرب الأهلية التى كانت تهدد قريشاً بالفناء .

وقد حمدت قريش لمحمد ﷺ الذى كانوا يسمونه ــ قبل أن يدعوهم إلى التوحيد ــ بالأمين . حمدت له تصرفه الحكيم الذى أبعدها عن حافة حرب أهلية مدمرة كادت أن تقع فيها ، وزادت منزلته سمواً حتى بعثه الله تعالى رسولاً فناصبوه العداء وحاربوه . وراموا قتله كما هو معلوم .

كما أنه لا أدل على تماسك المجتمع القرشى وتقدمهم على بقية الوثنيين العرب فى مضمار التمدن من حلف الفضول الذى أقاموه والذى بموجب بنوده تعهد سادات قريش بأن لا يوجد مظلوم فى مكة إلا أنصفوه من ظالمه كائناً من

كان . هذا الحلف الذى أعجب به الرسول ﷺ وقال ــ بعد أن بعثه الله رسولاً ــ لو دعيت إلى مثله اليوم لأجبت أو كما قال[1] .

من هنا ليس بغريب أن ينظر سائر العرب الوثنيين إلى قريش ، وكأنها أهم قوة قادرة على الصمود (باسم الوثنية) فى وجه دعوة التوحيد والتصدى للقوة العسكرية الإسلامية التى تدعمه ، وأنها بتماسكها (أى قريش) وحسن تنظيمها وشدة انضباطها العسكرى تستطيع ــ لا محالة ــ صد الغزو الذى تعرضت له عقب نقضها صلح الحديبية الذى كان قائماً بينها وبين المسلمين الذين كانوا حتى يوم ذلك الصلح تنظر إليهم قريش لا كما تنظر إلى أمة ذات كيان ، وإنما كعصابات من عصابات قطاع الطرق ، رغم أن واقعهم من حيث السلوك والمعتقد يدل على أنهم كما وصفهم الله تعالى ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

وحتى اليوم الذى أطبقت فيه من هؤلاء المسلمين عشرة آلاف مقاتل على العاصمة المقدسة (مكة) كانت النظرة الخاطئة تلك إلى المسلمين لا تزال هى السائدة بين سادات مكة . . عبَّر عن هذه النظرة الخاطئة سيد قريش وقائد جيشها أبو سفيان بن حرب ، حين قال للنبى ﷺ وهو يفاوضه فى معسكره على مشارف مكة قبل دخولها : « يا محمد جئت بأوباش الناس من يُعرف ومن لا يُعرف إلى عشيرتك وأصلك »[2] .

ولهذا كان فزع العرب الوثنيين شديداً عندما استسلمت قريش لقوات الجيش النبوى المسلحة ، ودخلت عقب ذلك مكة ضمن دائرة نفوذ الحكم الإسلامى .

فقد اعتبر من تبقى على الوثنية من العرب ــ وأكثرهم مِنْ أهل الحجاز وأطراف نجد الغربية ــ اعتبروا سيطرة المسلمين على مكة وانتهاء كيان قريش الوثنى والسياسى والعسكرى من أخطر الأحداث وأهمها على الإطلاق فى جزيرة العرب .

---

(١) انظر تفاصيل حلف الفضول فى موضعه من سيرة ابن هشام .

(٢) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٨١٦ .

هوازن تشعر بالخطر وتحشد للصدام

وأحس هؤلاء الوثنيون (بدون استثناء) أن استسلام قريش للمسلمين ، ووقوع مكة فى قبضة القوات النبوية المسلحة ، وإنشاء كيان إسلامى فى مكة على أنقاض الكيان الوثنى ، سيكون ذا أثر مصيرى فعال على مستقبلهم ،وإن كيانهم الوثنى ــ بعد انكسار قريش الأم ــ أصبح فى مهب العاصفة . لذلك صاروا يفكرون بمصيرهم بخوف شديد وهلع بالغ ، حيث لم يعد لهم مفر من أحد أمرين :

الدخول فى دين التوحيد ، دين الإسلام .

أو الدخول فى صدام مسلح مع المسلمين حفاظاً على كيانهم الوثنى .

وكانت أولى هذه القبائل الوثنية التى انتابها هذا الشعور ، وأشغلها ذلك التفكير ، هى قبائل (هوازن) وهى تمثل عدة قبائل عدنانية قوية كثيرة ذات قدرة قتالية ممتازة ، ومن هذه القبائل (بنو هلال وثقيف وجشم وبنو سعد وبنو مالك وبنو كلاب وبنو عامر وبنو نصر وبنو الرباب) وأجرامهم الثلاثة الرئيسية التى تنحدر منها جميع أفخاذ هوازن ثلاثة ــ وكلهم لبكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ــ وهؤلاء الأجرام الرئيسية الثلاثة هم : بنو سعد بن بكر ، وبنو معاوية ابن بكر ، وبنو منبه بن بكر .

وهم خلق كثير جداً ، ويحتلون مناطق شاسعة فى قلب الجزيرة العربية . حيث تمتد منازلهم من وادى حنين الواقع على بعد حوالى عشرين كيلو متراً من مكة حتى بلاد نجد التى تحتل عشائرهم قسماً كبيراً منها مما يلى الحجاز واليمن . فهوازن قبائل مِنْ حيث الأصل عدنانية مضرية ، ومن حيث الجغرافيا ، حجازية نجدية .

كانت هوازن (بعد كنانة) أقرب القبائل العربية الوثنية إلى مواطن الخطر الداهم الذى أصبح يهدد الوثنية بالزوال ، والمتمثل فى الجيش النبوى الذى أصبح قريباً جداً من ديار هوازن بعد سيطرته على مكة المكرمة .

عداوة هوازن للإسلام

كانت هوازن ــ كما قلنا ــ أحد عدوين قويين رئيسيين ظلا على عداء للإسلام وفى حالة حرب معه ، وهما هوازن وقريش .

أما قريش ، فقد انتهى وجودها السياسى والعسكرى والدينى الوثنى بوقوع عاصمتها مكة فى أيدى القوات النبوية فى العشرين من شهر رمضان عام ثمان للهجرة .

فبقيت (هوازن) وحدها فى الميدان ، القوة الرئيسية التى عليها أن تواجه الجيش النبوى ، وكانت هوازن (كما ذكرنا) ذات قوة عظيمة ، وكانت لعدائها للإسلام ورغبتها فى القضاء على قوته العسكرية لينهار من القواعد تعد العدة لمواجهة المسلمين من زمن بعيد يرجع إلى ما قبل فتح مكة .

فقد رأينا كيف أن طلائع الاستكشاف للجيش النبوى (وهو يزحف نحو مكة) ألقت القبض على جاسوس كان يرصد تحركات الجيش النبوى . اتضح على أثر استجواب الرسول ﷺ لهذا الجاسوس أنه كان يعمل لحساب (هوازن) بعثت به لينقل لها ما تحتاجه من معلومات عن المسلمين وعن قواتهم العسكرية والجهة التى يقصدونها بتحركاتهم[1] .

فهوازن (إذن) كانت تستعد للصدام مع المسلمين حتى قبل أن تتم لهم السيطرة على مكة ، بان ذلك واضحاً من بثها الأرصاد والجواسيس لرصد تحركات المسلمين .

استعداد هوازن للزحف على مكة

وزاد هوازن إصراراً على الصدام والدخول فى معركة فاصلة مع المسلمين ، أن وقعت العاصمة المقدسة مكة فى قبضة قوات الجيش الإسلامى .

وبات من المؤكد لدى سادة هوازن الوثنيين أن دورهم فى المواجهة الحربية مع المسلمين ، لابد أن يكون قريباً .

وكانت هوازن مستعدة للصدام المسلح والمواجهة الحربية مع المسلمين قبل

---

(١) انظر تفاصيل قصة هذا الجاسوس فى كتابنا الثامن من هذه السلسلة (فتح مكة) .

أن تتم السيطرة لهم على العاصمة المقدسة .

غير أن وقوع مكة فى أيدى المسلمين ألهب نفوس الهوازنيين حنقاً مشوباً بالخوف من قوة المسلمين التى باتت ترابط على مقربة من حدود ديارهم .

فزادوا من استعدادهم للحرب ، وكانوا كما قلنا قبائل وبطوناً كثيرة تسكن مناطق شاسعة من قلب الجزيرة تتخللها جبال شاهقة ووديان سحيقة كلها مواقع استراتيجية تصلح للدفاع .

ولو أن هوازن تحصنت فى بلادها وانتظرت وصول الجيش الإسلامى فتقاتله فى أراضيها وبين ديارها ، لكان ذلك أصلح لهوازن ، وأصعب على جيش الإسلام .

وكانت هذه الفكرة من الناحية العسكرية التعبوية فكرة صائبة بالنسبة لهوازن ، لأن تنفيذها يجعل مهمة الجيش الإسلامى المكلف بإنهاء كل وجود وثنى فى جزيرة العرب مهمة صعبة للغاية لأنه ليس من السهل (بل من الصعب جداً) على جيش الإسلام الصغير (نسبياً) أن يقاتل عشرات الألوف من هوازن القبائل الشرسة المحاربة فى قمم الجبال الشاهقة وبطون الوديان السحيقة وأمام الحصون المنيعة داخل أراضيهم .

هذه حقيقة من الناحية العسكرية لا غبار عليها ، فالجيش الإسلامى لا يزيد على اثنى عشر ألفاً ، بينما المحاربون من قبائل هوازن سوف لا يقلون على أربعين ألفاً إذا ما ظلوا مرابطين فى بلادهم المنيعة المحصنة ، وعلى المسلمين أن ينازلوا هذا العدد الضخم من هؤلاء المحاربين ذوى القدرة القتالية الممتازة التى اشتهروا بها بين العرب ، ومنازلتهم أمر صعب على المسلمين سيكلفهم غالياً إذا ما اضطروا لمهاجمة هوازن فى ديارها ، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار مناعة بلادهم وشدة تحصنهم فيها .

وسنرى فيما يأتى من هذا الكتاب ، (إن شاء الله) كيف قاومت ثقيف الجيش النبوى (بعد انتصاره فى معركة حنين الفاصلة) فلم يتمكن من التغلب على بطن واحد من هوازن ، وهم (ثقيف) حيث لم يستطع اقتحام مواقعهم الحصينة التى اعتصموا بها فى الطائف ففك الحصار عنهم الذى دام

حوالى عشرين يوماً ، وانصرف عنهم راجعاً إلى المدينة دون أن يخضعهم ، وظلوا غير خاضعين للإسلام حتى دخلوا فيه باختيارهم فى السنة التاسعة للهجرة ، بعد أن رأوا أنه لم يبق غيرهم فى المنطقة خارجاً عن نطاق الإسلام .

تنصيب مالك بن عوف قائداً لهوازن

غير أنه لسوء حظ هوازن وحسن حظ المسلمين ، أن ظهر بين هوازن شاب شجاع جرىء مقدام لا يهاب الموت ، بلغت شجاعته إلى حد التهور والطيش ، الذى جعله يجعل هوازن عرضة لهزيمة مدمرة لم ينزل مثلها فى الفداحة بحى من العرب كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

هذا الشاب هو مالك بن عوف النصرى (أحد بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن) فقد انتزع من بين جميع عشائر هوازن القيادة ، إذ بما امتاز به من شجاعة وفصاحة نصبته هوازن ملكاً عليها ، وارتضته قائداً أعلى لقواتها عقب تأزم الموقف بوقوع مكة فى قبضة المسلمين .

فأخذ مالك بن عوف — بما يمتاز به من جرأة وفصاحة وشجاعة وتهوّر وإقدام يعشقه العربى القبلى ، أخذ يهيىء قبائل هوازن — التى استجاب له معظمها — يهيؤها لا للدفاع عن بلادها إذا ما تعرضت لهجوم المسلمين ، بل أخذ يهيىء هذه القبائل ويعبىء شعورها ويحشد الآلاف من رجالها للزحف على مكة وإخراج المسلمين منها بقوة السلاح .

قال الطبرى ج ٣ ص ٧٠ — ٧١ : حدثنا ابن حميد ، قال حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال لما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف النصرى ، واجتمعت إليه مع هوازن ثقيف كلها فجمعت نصر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بنى هلال ، وهم قليل ، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء ، وغابت عنها ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب ، ولم يشهدها منهم أحد له اسم ، وفى بنى جشم دريد بن الصمّة شيخ كبير ، ليس فيه شىء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب . وكان شيخاً كبيراً مجرباً ، وفى ثقيف سيدان لهما فى الأحلاف :

قارب بن الأسود بن مسعود ، وفى بنى مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث وأخوه الأحمر بن الحارث فى بنى هلال وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصرى .

أسلوب الواقدى فى الرواية

وقال الواقدى فى كتابه المغازى ج ٣ ص ٨٨٥ ــ ٨٨٦ : حدثنا أبو عبد الله محمد بن شجاع الثلجى قال : حدثنى الواقدى قال : حدثنا محمد ابن عبد الله ، وعبد الله بن جعفر ، وابن أبى سبرة ، ومحمد بن صالح ، وأبو معشر ، وابن أبى حبيبة ، ومحمد بن يحيى بن سهل ، وعبد الصمد بن محمد السعدى ، ومعاذ بن محمد ، وبكير بن مسمار ، ويحيى بن عبد الله بن أبى قتادة ، فكلّ قد حدثنا بطائفة ، وغير هؤلاء ، حدثنا ممن لم أُسَمِّ ، أهل ثقة ، فكل حدثنا بطائفة من هذا الحديث ، وبعضهم أوعى له من بعض ، وقد جمعت كل ما حدثونى به .

قالوا : لما فتح رسول الله ﷺ مكة مشت أشراف هوازن بعضها إلى بعض وثقيف بعضها إلى بعض ، وحشدوا وبغوا وأظهروا أن قالوا : والله ما لاقى محمد قوماً يحسنون القتال ، فأجمعوا أمركم فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم . فأجمعت هوازن أمرها وجمعها مالك بن عوف ــ وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ــ وكان سيداً فيها مسبلاً ، يفعل فى ماله ويحمد ، فاجتمعت هوازن كلها ، وكان فى ثقيف سيدان لها يومئذ : قارب بن الأسود بن مسعود فى الأحلاف ، هو (الذى) قادها ، وفى بنى مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث ــ ويقال الأحمر بن الحارث ــ وهو الذى قادها موالياً ثقيفاً ، فأوعبت كلها مع هوازن ــ وقد أجمعوا المسير إلى محمد ، فوجد ثقيفاً إلى ذلك سراعاً ، فقالوا : قد كنا نهم بالمسير إليه ونكره أن يسير إلينا ، ومع ذلك لو سار إلينا لوجد حصناً حصيناً نقاتل دونه ، وطعاماً كثيراً ، حتى نصيبه أو ينصرف ، ولكنّا لا نريد ذلك ، ونسير معكم ونكون يداً واحدة . فخرجوا معهم .

قال غيلان بن سلمة الثقفى لبنيه ، وهم عشرة : إنى أريد أمراً كائنة له أمور ، لا يشهدها رجل منكم إلا على فرسه . فشهدها عشرة من ولده على

عشرة أفراس ، فلما انهزموا بأوطاس هربوا ، فدخلوا حصن الطائف فغلقوه .
وقال كنانة بن عبد يا ليل : يا معشر ثقيف ، إنكم تخرجون من حصونكم وتسيرون إلى رجل لا تدرون أيكون لكم أم عليكم ، فمروا بحصنكم أن يُرَم ما رث منه ، فإنكم لا تدرون لعلكم تحتاجون إليه . فأمروا به أن يصلح ، وخلفوا على مرمّته رجلاً وساروا ، وشهدها ناس من بني هلال ليسوا بكثير ، ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب .



الفصل الثالث

- الرسول يتحرك من مكة إلى حنين .
- الرسول يقترض المال ويستعير السلاح من أهل مكة .
- عيوب الغرور والإعجاب بالنفس .
- من رواسب الجاهلية ؛ المطالبة بذات أنواط .
- استخبارات هوازن فى المعسكر النبوى .
- أسلوب قائد هوازن فى تعبئة جيشه .
- كيف عبَّأ الرسول جيشه .
- محاولة اغتيال الرسول ﷺ أثناء التحرك .

الحالة بين هوازن وقريش بعد ظهور الإسلام

لم تكن العلاقات بين قريش وبين هوازن علاقات حسنة ، بل كانت علاقات أشبه ما تكون حالتها بحرب قبلية .. وذلك منذ حرب الفِجار ، فليس هناك ود بين قريش وبين هوازن بل قطيعة وتربص . ولهذا لم يكن هناك أى اتصال أو تنسيق بين قريش وبين هوازن ، عندما بدأت نذر الغزو النبوى لمكة تلمح فى الأفق .

ولكن عندماوقعت مكة فى قبضة جيش التوحيد شعر قادة هوازن بحرارة خطر الوجود الإسلامى تلفح وجوههم ، فاستعد قائدهم الشاب مالك بن عوف للمواجهة وحشد عشرين ألف مقاتل ، لا للدفاع عن بلاد هوازن ، وإنما للزحف على مكة لضرب المسلمين وإخراج الجيش النبوى منها لتعود من جديد تحت سلطان الوثنية .

أسلوب قائد هوازن المتهور فى التعبئة

وقد اتبع القائد الشاب مالك بن عوف فى تعبئة هوازن أسلوباً غريباً متهوراً ، لم يسلكه أحد قبله فى المعارك الفاصلة التى نشبت فى الجزيرة .

فبعد أن تم له حشد عشرين ألف مقاتل من مختلف قبائل هوازن ، قرر أن يزحف بهم على مكة ، والأسلوب الغريب المتهور الذى اتبعه قائد هوازن ، هو أنه قرر أن يصحب كل جندى أو قائد فى جيش هوازن نساءه وأطفاله وكل ما يملك من إبل وشاة وذهب وفضة .

وهدف القائد الشاب من وراء ذلك أن يعطى المقاتلين فى جيشه مزيداً من التصميم على القتال عندما يصطدم بالمسلمين ، وأن يقطع على كل مقاتل فى الجيش فكرة الفرار من أمام المسلمين عند اللقاء ، على أساس الاعتقاد أنه من المستحيل على محارب أن يهرب من الميدان ويترك زوجته ونساءه وكل ما يملك يقع فى قبضة أعدائه .

ذلك هو منطلق فهم القائد الشاب مالك بن عوف للوضع وهو يحشد جيشه ويرسم الخطط للمعركة الفاصلة مع المسلمين ، وقد نسى ، أو بالأحرى جهل (لعدم خبرته بالسياسة الحربية) أن المنهزم لا يرده شىء ، كما قال

المحارب الشهير دريد بن الصمّة الجشمى ذلك لمالك بن عوف ـــ وهو ينصحه بإرجاع النساء والأطفال والأموال إلى رؤوس الجبال ويلقى المسلمين متون الخيل ـــ كما سيأتى فيما يلى من هذا الكتاب إن شاء الله .

أول انشقاق فى جيش هوازن

ورغم الحشد الكبير الذى حشده مالك بن عوف النصرى (عشرين ألفاً لغزو المسلمين فى مكة) فإن شقاقاً خطيراً قد حدث بين صفوف التجمع الوثنى الهوازنى .

فقد عارضت قبيلتان لهما وزنهما العسكرى الكبير بين هوازن .. عارضت هاتان القبيلتان فكرة مالك بن عوف القائد العام ، والقائلة بنقل المعركة إلى مكة ومحاربة المسلمين لإخراجهم منها ، وكانت معارضة هاتين القبيلتين (على ما يبدو) منطلقة من أن ترك هوازن لديارها وزحفها بقضها وقضيضها ونسائها وأطفالها وأموالها لمواجهة المسلمين خارج ديار هوازن ، يحمل كل معانى التهور وعدم الحسبان للنتائج حيث يعرض هوازن لخطر مدمر لأن الحرب (أىّ حرب) غير مأمونة عواقبها ، إذ لو حدث (وهو ما حدث بالفعل) وأن نزلت الهزيمة بهوازن فإنها ستكون هزيمة ساحقة فاضحة لا يمكن أن تقوم لهوازن بعدها قائمة ، حيث سيقع نساؤها وأبناؤها وكل ما تملك غنيمة فى أيدى المسلمين .

غير أن مالك بن عوف غلبه طيش الشباب فاصر على تنفيذ فكرته ، وقرر الزحف (حسب الخطة المرسومة) على المسلمين فى مكة .

وهكذا ولما لم يسمع صوت المعارضة بين هوازن والمتمثل فى رجال قبيلتى (كعب[1] وكلاب[2] وهما من بنى عامر بن صعصعة) أعلنت هاتان

---

(١) كعب هؤلاء بطن عظيمة من هوازن ، وهم بنو كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية ابن بكر بن هوازن . وكان منهم من يقطن المنطقة الواقعة بين تهامة والمدينة وأرض الشام . قال فى معجم قبائل العرب دخلت الشام منهم قبائل عقيل وقسر وحريش وجعدة فانقرض الثلاثة فى دولة الإسلام ، ولم يبق إلا بنو عقيل ، وكانوا بنجد عند مجىء الإسلام ، ودارهم الفلج وما أحاط به من البادية ، كذا قال فى « معجم ما استعجم » .

(٢) كلاب هذه بطن عظيمة أيضاً من هوازن قال فى معجم قبائل العرب : وهم أبناء كلاب بن ربيعة =

القبيلتان رفض الانضمام إلى جيش هوازن الغازى ، فحدث بذلك أول انشقاق خطير فى جيش هوازن ، لأن قبيلتى (كعب وكلاب) تعتبر من أهم الأجنحة العسكرية ذات القدرة القتالية والكثرة العددية بين قبائل هوازن . هذا ما شهد به الخبير العسكرى المجرب (دريد بن الصمة) عندما تبلغ وهو فى وادى حنين يجادل القائد العام مالك بن عوف حول الخطأ القاتل الذى ارتكبه باصطحاب الجيش نساءه وأطفاله وأمواله .

فقد سأل دريد بن الصمة (وهو ينصح مالك بن عوف بإرجاع النساء والأطفال والأموال إلى رؤوس الجبال) :

ـــ ما فعلت كعب وكلاب ؟

قالوا : ليس فى الجيش منهم أحد

فقال : غاب الحد والجد ، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب ، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب[1] .

وكان الذى منع كلاباً من حضور حنين مع هوازن ، ابن أبى البراء . فقد روى الواقدى فى مغازيه ج٣ ص٨٨٦ فقال : ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب ، ولقد كانت كلاب قريبة ، فقيل لبعضهم : لم تركتها كلاب ؟ فقال : أما والله إن كانت لقريبة ، ولكن ابن أبى البراء مشى فنهاها عن الحضور فأطاعته ، وقال : والله لو ناوأ محمداً من بين المشرق والمغرب لظهر عليه .

ورغم انشقاق كعب وكلاب من صفوف التجمع الهوازنى وتمردها على القائد العام مالك بن عوف بعدم انصياعها لأوامره وإعلانها عدم الانخراط فى سلك جيشه ، فإن قوة هوازن بقيت (من الناحية الحربية) قوة جبارة مرهوبه حيث انصاع عشرون ألف مقاتل من هوازن لقائدهم الشاب مالك بن عوف ، يقابلهم اثنا عشر ألف مقاتل من المسلمين .

= أخو كعب بن ربيعة ، قال فى معجم قبائل العرب : « كانت ديارهم بحمى ضرية ، وهو حمى كليب ، وحمى الربذة فى جهات المدينة النبوية وفدك والعوالى ، ثم انتقلوا إلى الشام ، فكان لهم فى الجزيرة صيت ، وملكوا ، وقد اتخذوا فى الجاهلية بدومة الجندل صنماً يدعى وداً ، ودخلوا فى دين النصرانية ثم فى الإسلام) .

(١) البداية والنهاية

وتدل لهجة المؤرخين فى أمهات التاريخ على أن النية كانت مبيتة لدى هوازن لمواجهة المسلمين وغزوهم فى أى مكان ، وأنهم كانوا يعدون العدة لذلك حتى قبل أن تتم السيطرة للمسلمين على مكة ، كما أنهم كانوا فى استعدادهم قد ذهبوا إلى أن يدخلوا فى حسابهم أسوأ الظروف ، فحسبوا (وهم يضعون خطة الحرب ضد المسلمين أينما كانوا) حساب احتمال نزول الهزيمة بهم وهم يشنون الهجوم على المسلمين فى أى مكان .

فوضعوا (انطلاقاً من هذا الحسبان) خطة الدفاع — بعد وضعهم الهجوم —، وخطة الدفاع هذه تتلخص فى الاستعداد للتحصن فى المدن (كالطائف مثلاً) إذا ما كانت الهزيمة نصيبهم من هجومهم على المسلمين .

واستكمالاً لخطة الدفاع هذه (وهى خطة احتياطية) أرسلوا من ثقيف (بطن من هوازن) بعثة إلى مدينة جرش فى الأردن التى كانت جزءاً من الشام الخاضع يوم ذاك لسلطان الإمبراطورية الرومانية المعادية للإسلام والمسلمين .

وكانت مهمة هذه البعثة التى كان يرأسها (عروة بن مسعود[1] الحصول على آلات حرب ثقيلة تصلح للحروب التى يكون فيها حصار ، بحيث تُستخدم فى الدفاع عن القلاع والحصون ، وفى شن الهجمات المضادة على جيش العدو الذى يتولى الحصار .

وكانت جرش (الرومانية آن ذاك) بها مصانع للمنجنيقات والعرادات (راجمات) والدبابات (آلات واقية يتستر خلفها الجنود عند الزحف فى بعض الحالات لتقيهم السهام) ، ولذلك قررت هوازن ضمن خطتها الحربية أن ترسل هذه البعثة للحصول من المصانع الرومانية فى (جرش) على هذه الأسلحة الحربية الثقيلة .

وكانت هذه الخطة التى تدل على تبييت النية على غزو المسلمين من قبل هوازن قبل وصولهم مكة بل وحتى قبل تحركهم من المدينة .. كانت هذه الخطة قد كشفها جاسوس من هوازن ألقت عليه القبض جريدة من الخيل التابعة لسلاح الاستكشاف فى الجيش النبوى الذى كان يتحرك من المدينة نحو مكة .

(١) انظر ترجمة ابن مسعود فى كتابنا (صلح الحديبية) .

فقد ذكر المقريزى فى كتابه (إمتاع الأسماع) أن النبى ﷺ وهو يتحرك بجيشه من المدينة صوب مكة ، قدم جريدة من الخيل طليعة ، فألقت هذه الطليعة القبض على رجل من هوازن ، كان يعمل فى جهاز استخبارات مالك ابن عوف سيد هوازن وقائدها ، يمد هذا الجهاز بما يحتاج من أخبار عن المسلمين ، وتحركات جيشهم الذى كانت هوازن تتوقعه بعد نقض قريش صلح الحديبية .

فعندما مَثَلَ هذا الجاسوس الهوازنى بين يدى القائد الأعلى النبى ، سأله (أثناء استجوابه) عن حقيقة الوضع العسكرى الذى عليه قبائل هوازن فقال :

قد جمعوا الجموع وأجلبوا العرب ، وبعثوا إلى ثقيف فأجابتهم ، فتركت ثقيفاً قد جمعوا الجموع وأجلبوا العرب وبعثوا إلى جرش فى عمل الدبابات والمنجنيق ، وهم سائرون إلى هوازن ، فيكونون جميعاً .. فقال الرسول ﷺ : وكل هوازن قد أجاب ؟. قال الجاسوس : كلا ، أبطأ من بنى عامر ، كعب وكلاب .

فقال النبى ﷺ (معقباً على ما أدلى به جاسوس هوازن من معلومات) : ما أراه إلا صدقنى ، ثم أمر بحبسه حبساً تحفظياً[1] .

استخبارات الرسول فى ديار هوازن

وهكذا فالرسول القائد ﷺ قد كان علي علم بما يجرى فى ديار هوازن ، فلم يكن (بعد استيلائه على مكة) غافلاً عما يجرى هناك .

فقد كان (كما هو واضح) على علم بالعداوة الشديدة التى تضمرها له قبائل هوازن ، والنية المبيتة التى تحمل فى نفوس هذه القبائل العزم على غزو المسلمين أينما كانوا .

فقد أبلغت الرسول ﷺ عيونه (استخباراته) التى بثها بين يديه ـــ وهو يتحرك بالجيش نحو مكة قبل فتحها ـــ أبلغته أن هناك تحشدات واسعة تقوم بها الأحلاف من هوازن .. القصد منها مواجهة المسلمين فى معركة فاصلة .

---

(١) انظر إمتاع الأسماع .

إلا أن المعلومات عما يجرى فى ديار هوازن ضد المسلمين لم تكن متكاملة لدى الرسول القائد ﷺ لأن أحداً من رجال استخباراته (بالذات) لم يكن قد ذهب إلى ديار هوازن ، واختلط هناك بالقوم ورأى بعينه وسمع بأُذنه ما يجرى ضد المسلمين .

لذلك قرر الرسول ﷺ أن يبعث رجلاً من أصحابه إلى ديار هوازن ليجمع له كل المعلومات اللازمة عن كل ما يجرى هناك ضد المسلمين .

فكان رجل الاستخبارات الذى وقع عليه اختيار النبى ﷺ للقيام بهذه المهمة الخطيرة ، رجلاً من بني سليم المجاورة ديارهم لديار هوازن ، وهذا الرجل هو عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى[1] . الصحابى الشهير ، والبطل المشهور فى معارك خيبر .

فقد استدعاه الرسول ﷺ وكلفه بأن يذهب إلى ديار هوازن ، وأن يتنكر لئلا يعرف أحد من هوازن حقيقته ، ولكى يتمكن من الاختلاط بهم ، ويعرف كل ما يجب أن يلم به الرسول ﷺ ومدى قوتهم وأى الطرق يريدون سلوكه ، إلى غير ذلك مما يجب أن يعرفه قائد مسئول عن حقيقة عدوه من كل النواحى .

وقد صدع ابن أبى حدرد بأمر النبى ﷺ فذهب إلى مقر قيادة هوازن بأرضهم فاختلط بمختلف القيادات الرئيسية والفرعية هناك ، واندس داخل جموع القبائل ، واستمر هناك عدة أيام يدوِّن فى ذاكرته كل ما يهم رسوله محمداً ﷺ من معلومات عن تلك الحشود الهوازنية .

وبعد أن رأى عبد الله بن أبى حدرد ، أنه قد حصل على ما فيه الكفاية من معلومات يحتاجها الرسول القائد ﷺ انسل من بين جموع هوازن التى توافدت الآلاف من كل عشيرة وفخيذة منها إلى حيث يعسكر قائدها العام مالك بن عوف النصرى مجيبة دعوته إلى حرب رسول الله ﷺ . وكانت هوازن (كما قلنا) جيلاً عظيماً ذا أفخاذ وبطون عظيمة تحتل ديارها مساحة عظيمة من الجزيرة متداخلة من الحجاز ونجد . فهى قبيلة حجازية نجدية .

---

(١) انظر ترجمة عبد الله بن أبى حدرد فى كتابنا (غزوة خيبر) .

انسل رجل الاستخبارات النبوية (عبد الله بن أبى حدرد) من بين الجموع الزاخرة من هوازن واتجه صوب مكة حيث يقيم ﷺ بعسكره بعد الفتح .

التقرير عن حالة هوازن الحربية

وعندما وصل رجل الاستخبارات ابن أبى حدرد إلى مكة قدم للرسول والقائد الأعلى للجيش تقريراً شفوياً مفصلاً عن جيش هوازن ، وما يقوم به من استعداد لحرب الرسول ﷺ وتبلغ الرسول ﷺ ضمن التقرير الذى قدم إليه عن وضع هوازن العسكرى — أنها قد حشدت عشرين ألف مقاتل ، ولا شك أنه تلقى ضمن هذا التقرير أن هوازن قد قررت عدم الانتظار فى ديارها وقمم جبالها ، بل استجابت لغرور قائدها اليافع مالك بن عوف ، فقررت القيام بغزو المسلمين فى مكة نفسها . وأنها قد عسكرت بوادى حنين . ولذلك سارع النبى ﷺ وبأقصى سرعة إلى الخروج من مكة بالجيش ليكون صدامه مع هوازن الغازية خارج مكة . حتى إن الرسول ﷺ (لخطورة الوضع) كما يقول الواقدى تحرك من مكة بجيشه ثانى يوم عيد الفطر . كما سيأتى تفصيله فيما يلى من هذا الكتاب إن شاء الله .

قال ابن إسحاق ولما سمع رسول الله ﷺ بهم (أى بهوازن) بعث إليهم عبد الله بن أبى حدرد ، وأمره أن يدخل فى الناس ، فيقيم فيهم ، حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم ، فانطلق ابن أبى حدرد فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ﷺ ، وسمع من مالك (ابن عوف) وأمر هوازن وما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر(١) .

تحرك هوازن صوب مكة

هكذا بعد أن أكملت هوازن تجهيزها واكتمل حشد القسم الأكبر من جيشها فى أعاليها تحرك بها ملكها الشاب (مالك بن عوف) صوب مكة لمنازلة المسلمين فيها قبل أن يسيروا إليه هم منها .

---

(١) ج ٤ ص ٨٢ — ٨٣ .

وكان مالك قد أصدر أمره (كما هى خطته للحرب) إلى جميع الفصائل المشتركة من هوازن فى جيشه بأن يحملوا معهم أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

لقد كان منظراً مهيباً حقاً عشرين ألف مقاتل يصاحبهم على (أقل تقدير) ثلاثة أضعافهم من النساء والشيوخ والأطفال أى أن هوازن تحركت فى اتجاه مكة بحوالى ثمانين ألف إنسان معهم من الإبل أربعة وعشرين ألف بعير[1] وعدد لا يحصى من عشرات الألوف من الغنم .

وادى أوطاس مركز تجمع هوازن الرئيسى

وكان مكان التجمع النهائى لعشائر هوازن المشتركة فى الحشد هو وادى أوطاس ، وهو أحد أودية حنين الرئيسية الواقعة شرق مكة والتى تصب فى وادى حنين بين الشرائع والزيمة وجبال كرا وبنى مالك الواقعة جنوب شرق مكة والتى من ناحيتها جاءت قبائل ثقيف (أحد بطون هوازن الشهيرة) والتقت فى (أوطاس) بملك هوازن وقائدها العام مالك بن عوف النصرى . وبها اكتمل حشد جيش هوازن عشرين ألف مقاتل .

لقد كانت القوة الرئيسية من هوازن ، تحركت من الشرق حتى عسكرت بأوطاس بقيادة مالك ، وفى أوطاس توالت الإمدادات من مختلف القبائل البعيدة عن مكان الحشد الرئيسى بديار هوازن شرق الحجاز .

قال الواقدى : واجتمع الناس فى أوطاس فعسكروا ، وأقاموا به ، وجعلت الإمدادات تأتيهم من كل ناحية .

دريد بن الصمة فى جيش هوازن

كان دريد بن الصمة (أحد بنى جشم بن بكر بن معاوية بن هوازن محاربا شهيراً وسيداً من سادات هوازن ، ولكنه عند الحشد لمعركة حنين كان قد بلغ من العمر مائة وستين سنة . فلم تعد به قدرة على القتال ، حيث كان مقعداً يُحمل فى الهودج أو على أكتاف الرجال لعدم قدرته على المشى . فضلاً عن القتال .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٤٣ تحقيق الدكتور مارسدن جونس (طبعة أكسفورد) .

إلا أن دريداً مع تقدمه فى السن وعجزه (لكبره) عن القتال ظل متمتعاً بكامل قواه العقلية وكل حواسه (ما عدا السمع الذى كاد يفقده) . وكان مرجعاً لقومه هوازن فى السياسة العسكرية والفنون الحربية ، بسبب تجاربه الحربية المتواصلة التى عاشها طوال مائة وعشرين عاماً فى المجتمع القبلى الملتهب دائماً بنار الحرب ، فقد كان فارساً مجرباً لا يشقّ له غبار ، وشاعراً مفكراً فحلاً متوقد الذهن .

ومع عدم قدرته على القتال فقد أحب وأحب قومه أن يكون ضمن جيش هوازن الغازى ، لعلهم يستفيدون من خبرته وتجاربه الحربيتين ، فقد حمله الجيش على شجار (والشجار دون الهودج) وجعلوا له قائداً يقود البعير الذى يحمله حتى عسكر الجيش بأوطاس .

القائد العام المستبد لم يستفد من خبرة دريد بن الصمة

ولم يشأ ملك هوازن وقائدها الشاب ، مالك بن عوف النصرى أن يستفيد من خبرة دريد بن الصمة الحربية وتجاربه العسكرية التى اكتسبها طوال أكثر من قرن من الزمن قضاه وهو يخوض المعركة تلو المعركة حتى أقعده الكبر ..

فقد كان مالك بن عوف معتدا برأيه متكبراً مستبدا ، وكان شاباً يافعاً فى عنفوان الشباب ، ورغم ما امتاز به من شجاعة وجرأة وإقدام ، فقد سد الزهو والغرور والإعجاب بالنفس على مالك كل منافذ التفكير فى نتائج ما هو مقدم عليه ، وكأنه لغروره ولكونه يقود عشرين ألف محارب من خيرة محاربى العرب يصحبهم نساؤهم وأبناؤهم وأموالهم ، ليس أمامهم سوى اثنى عشر ألف مقاتل ليس لهم خبرة بالقتال (كما أشاع بين قومه وخدعهم) .. كأنه بهذا قد ضمن النصر لهوازن على المسلمين .

ولهذا فإنه بعد أن توجته هوازن عليها ملكاً وأصبح قائداً عاماً لجيشها استبد برأيه وسار يضع الخطة بمفرده ثم يسارع فى تنفيذها بطريقة استبدادية ، فلم يفكر فى استشارة وجوه عشائر هوازن وسادتها المسنين الذين عركتهم الحوادث سنين طويلة ، بل أهملهم جميعاً ، وصار يتخذ القرارات الانفرادية ثم يأمر بتنفيذها بصرامة فلا تعصى له هوازن أمراً لأنها قد ارتضته ملكاً عليها وقائداً

عاماً لجيشها .. اللهم إلا بنى كعب وبنى كلاب الذين عصوه ورفضوا إطاعة أوامره منذ البداية .. فكان من نتيجة اتخاذه القرارات الفردية والإسراع فى تنفيذها بصورة استبدادية أن قاد قومه إلى هزيمة مدمرة لم يمنَ بمثلها جيل من العرب .

وكان من بين الذين أهملهم (دريد بن الصمة) الذى رغم كبره الشديد الذى أقعده ، كان ذا خبرة كبيرة وتجربة واسعة بشئون الحروب ومكائدها ووسائل النصر وأسباب الهزيمة فيها لطول ما خاضها عبر أكثر من قرن من الزمن .

دريد بن الصمة الخبير الحربى الكبير هذا أهمله مالك بن عوف ، فحُمل على ظهر بعيره فى الجيش وهو (لثقل سمعه) لا يدرى ماذا يصنع القائد العام مالك ، وكيف يعبئ الجيش ويتصرف فى شئونه المصيرية الأخرى .

حتى إن (دريد بن الصمة) لم يعلم أن القائد مالكاً قد جعل الجند يحملون معهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم إلا فى وادى أوطاس الذى كان المكان الرئيسى والأخير للتجمع والذى فيه أكملت هوازن حشد قواتها من كل بطونها (ما عدا كعب وكلاب) .

ففى هذا الوادى الذى عسكر فيه مالك بن عوف بهوازن عدة أيام سمع دريد بن الصمة (رغم ثقل سمعه) الضجة الشديدة التى مبعثها رغاء الإبل وأصوات الحمير والشياه ، وأصوات النساء والأطفال ، وهو أمر لم يتوقع دريد (كخبير عسكرى مجرب) أن يكون ضمن جيش عرمرم يتحرك ليخوض معركة حياة أو موت .

لذلك عندما سمع تلك الضجة الهائلة فى وادى أوطاس ، قال ــ بلغة الاستغراب ــ: « ما لى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وثغاء الشاء ، وخوار البقر ، وبكاء الصغير ؟ » .

وكان الخبير المجرّب (دريد بن الصمة) عندما حط به الشجار على الأرض تحسسها بيده وقال : بأى واد أنتم ؟.

قالوا : بأوطاس .

قال : نعم مجال الخيل ، لا حَزن ضَرِس[1] ولا سهل دَهِس[2] ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وثغاء الشاء ، وخوار البقر ، وبكاء الصغير ؟.

قالوا : ساق مالك من الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

وهنا سأل عن موقف قبيلتين من أشد وأقوى قبائل هوازن وأصبرها على القتال ، فقال :

— يا معشر هوازن ، أمعكم من بنى كلاب بن ربيعة أحد ؟.

قالوا : لا .

قال : فمعكم من بنى كعب بن ربيعة أحد ؟.

قالوا : لا .

قال : لو كان خيراً ما سبقتموهم إليه ، ولو كان ذكراً أو شرفاً ما تخلفوا عنه[3] .

وقال دريد أيضاً لما بلغه تخلف كعب وكلاب عن المشاركة فى حرب المسلمين فى حنين : « غاب الجد والحد ، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب ولوَدِدت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب »[4] .

ثم سأل : فمن شهدها منكم ؟ .

قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر..

قال : ذانك الجذعان[5] من بنى عامر لا ينفعان ولا يضران[6] .

دريد بن الصمة يدعو للرجوع بالجيش وتفادى الصدام مع المسلمين

وعندما أطلع الخبير الحربى المجرّب المسنّ ابن الصمة على الحقيقة الرهيبة

---

(١) الحزن : المرتفع من الأرض ، والضرس : الذى فيه حجارة محددة .

(٢) دهس : لين كثير التراب

(٣) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٧

(٤) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٧١

(٥) الجذع : هو الشاب الحدث : ويعنى دريد بذلك أن من شهدها من بنى عامر ليست لهم أية قيمة قتالية .

(٦) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٧١

المتمثلة فى جلب النساء والأطفال والأموال مع الجند وتخلف أهم أجنحة هوازن المحاربة كعب وكلاب ، طلب من وجوه هوازن وشيوخ عشائرها أن يفعلوا فعل كلاب وكعب ، فيعصوا مالكاً ويرجعوا إلى بلادهم قبل أن يصطدموا بالمسلمين فقال : « أطيعونى يا معشر هوازن ، وارجعوا وافعلوا ما فعل هؤلاء » — يعنى كعباً وكلاباً — فأبت عليه هوازن[1] .

وعندما لم تستجب شيوخ العشائر ووجوه القبائل فى جيش هوازن لنداء دريد بن الصمة ، الداعى إلى عصيان القائد مالك بن عوف ، والرجوع بالجيش دون أن يلقى المسلمين ، وحيث بان له أن القائد المتغطرس المستبد المغرور مصمم على محاربة المسلمين ، بذل محاولة جديدة أراد بها تجنيب النساء والأطفال والأموال الهائلة الوقوع فى أيدى جيش الإسلام إذا ما كانت له الدائرة على هوازن .

فاستدعى القائد العام الشاب مالك بن عوف ، وبعد أن سأله عن سبب إكراهه الجيش على حمل نسائهم وأبنائهم وأموالهم معهم ، وبعد أن سفّه رأيه وشرح له خطورة ما أقدم عليه ، تقدم إليه باقتراح وطالبه بتنفيذه إنقاذاً لكرامة هوازن التى لم يعد لدى الخبير المحنك (دريد) أدنى شك فى أنها ستمسح فى الوحل ، إذا ما أصر القائد العام على الاستمرار فى اصطحاب النساء والأطفال والاموال مع الجيش . وهذا الاقتراح يتلخص فى أن يأمر القائد العام مالك بن عوف بإعادة النساء والأطفال والأموال إلى رؤوس الجبال لينجو من الوقوع فى الأسر إذا ما كان النصر للمسلمين فى المعركة ، وأن يلقى مالك المسلمين على ظهور الخيل ليتمكن جيش هوازن من الانسحاب بأقل خسارة ممكنة إذا ما دارت عليه الدائرة . ولكن القائد المغرور مالكاً استكبر أيضاً هذه المرة ورفض الاستجابة لنصيحة الخبير (دريد بن الصمة) .

فقد ذكر أصحاب المغازى والسير وأصحاب الحديث أن دريداً بن الصمة قد أفزعه تصرف القائد مالك بن عوف عندما ساق مع الجيش نساءهم وأبناءهم وأموالهم ، لأن ذلك (فى نظر دريد كما هو فى نظر كل قائد عسكرى

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٧

مسئول يقدّر المسئولية) ضرب من الانتحار والتهور ، لا يقدم عليه من يضع نتائج المعارك فى مقدمة حسابه قبل الإقدام عليها .

ولذلك استدعى دريد بن الصمة الملك والقائد مالكاً ، فلما حضر مالك دار بينهما هذا الحوار الحاد :

دريد : يا مالك إنك تقاتل رجلاً كريماً (يعنى النبى ﷺ) ، وقد أصبحت رئيس قومك وأن هذا اليوم كائن لما بعده من الأيام .. يا مالك ما لى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء أو ثغاء الشاء ؟[1] .

مالك : سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم .

دريد : ولم ؟

مالك : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وولده وماله ونساءه ، حتى يقاتل عنهم .

دريد : (بسخرية وحنق) راعى ضأن ماله وللحرب ـــ يعنى مالكاً ـــ ثم انقض[2] بيده ..

ثم قال دريد : وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك رجل إلا بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحتَ فى أهلك ومالك ، ثم أردف : يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة[3] هوازن إلى نحور الخيل شيئاً . فإذا صنعت ما صنعت فلا تعصنى فى هذه الخطة ، ارفعهم (أى النساء والأموال والأولاد) إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم وعزهم ، ثم الق الصباة[4] (يعنى المسلمين) على متون الخيل ، فإن كانت لك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

---

(١) اليعار (بضم الياء) والثغاء (بضم الثاء) معنى لكلمة واحدة ، وهو صوت الغنم .

(٢)قال فى النهاية فى غريب الحديث : أنقض أى صفق بإحدى يديه حتى يسمع لها نقيض ، أى صوت .

(٣) قال أبو ذر فى شرحه ص ٣٨٥ : بيضة هوازن جماعتهم .

(٤) الصباة جمع صابىء ، وهو من يخرج من دين إلى دين ، وكان يقال للرجل إذا أسلم فى زمن النبى ﷺ : قد صبأ . وكانت العرب تسمى النبى ﷺ الصابئ لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام . فالصباة فى كلمة دريد هم المسلمون .. انظر لسان العرب .

مالك : (**بغضب واستكبار**) : والله لا أفعل ، ولا أغيِّر أمراً صنعته ، إنك قد كبرت وكبر علمك ، وحدث بعدك من هو أبصر بالحرب منك .

دريد : يا معشر هوازن ، والله ما هذا لكم برأى ، هذا فاضحكم فى عورتكم وممكِّن منكم عدوّكم ، ولاحق بحصن ثقيف وتارككم ، فانصرفوا واتركوه .

قائد هوازن يهدد بالانتحار

ويظهر أن كلام المجرب الخبير (دريد) وحواره المركّز الذى أجراه مع ملك هوازن وقائدها قد أثر فى قادة الكتائب ووجوه القبائل فى جيش هوازن ، فبدا عليهم الميل للأخذ بنصيحة دريد بن الصمة لإرجاع النساء والأطفال والأموال إلى أعالى الجبال . لذلك (وقد أحس مالك أن زعماء قومه يرون أن المنطق والصواب يكمنان فى نصائح وتوجيهات دريد بن الصمة وأن التوفيق قد جانب مالكاً فى تصرفه) لم يجد القائد الشاب الطائش أمامه سوى التهديد بالانتحار إن لم تطعه هوازن وتصرف النظر عن نصائح وتوجيهات دريد بن الصمة .

فقد استل مالك سيفه (أمام وجوه وقادة هوازن) ثم نكسه[1] ثم قال :

ـــ يا معشر هوازن ،والله لتطيعننى أو لأتكئن على السيف حتى يخرج من ظهرى .

وكره مالك أن يكون لدريد فيها ذكر ورأى ، فتشاور القوم وتناقشوا ودرسوا الوضع ومشى بعضهم إلى بعض . فقالوا : والله لئن عصينا مالكاً ، وهو شاب ، ليقتلن نفسه ونبقى مع دريد ، شيخ كبير ، لا قتال فيه ، ابن ستين ومائة . وأجمعوا أمرهم مع مالك ، وخالفت هوازن دريداً .

فلما رأى ذلك دريد وأنهم قد خالفوه ، قال : هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه ، ثم قال :

يا ليتنـــــــى فيها جذع أخبُّ فيها وأضع[2]
أقــود وطفـــاءَ الزّمـــع كأنها شاة صدع[3]

(١) قال فى الصحاح : نكسه أى قلبه .

(٢) الخبب والوضع ضربان من السير .

(٣) الفرس الوطفاء الطويلة الشعر .

وكان دريد قد ذُكر بالفروسية والشجاعة ، ولم يكن له عشرون سنة ، وكان رئيس بنى جشم وسيدهم وأوسطهم نسباً ، ولكن السن أدركته حتى فنى فناء ـــ وهو دريد بن الصمة بن بكر بن علقمة بن جداعة بن غزيّة بن جشم ابن معاوية بن بكر بن هوازن (١) .

وهكذا نجح الشاب القائد ملك هوازن مالك بن عوف فى حمل وجوه هوازن وشيوخها وقادتها على القبول بخوض معركة كان دريد بن الصمة قد أخبره (مسبقاً) بأنها معركة خاسرة ونتائجها رهيبة مفزعة بالنسبة لهوازن .. لطريقة الحشد والتعبئة التى اتبعها القائد مالك بن عوف النصرى والتى أخطر ما فيها حشد النساء والأطفال والشاء والإبل والحمير وكل ما تملك هوازن واصطحابه كله مع الجيش إلى حنين .

تحرّك الجيش النبوى من مكة

استمر جيش هوازن فى التحرك فى اتجاه مكة إلا أن قائده العام مالك بن عوف لما بلغه أن النبى ﷺ قد تحرَّك (هو الآخر) بجيشه من مكة لمواجهة هوازن قرر أن يعسكر بجيشه فى وادى حنين لأنه أصلح مكان من حيث السعة والطول لجولان الخيل التى يعتمد مالك وقادة هوازن على عدة آلاف منها . وكانت الخيل من أهم الأسلحة المتحركة التى يعتمد عليها المحارب فى ذلك العصر فهى تقوم مقام سلاح المدرعات فى هذا العصر .

أما الرسول ﷺ فبعد أن بلغه تحرك هوازن من ديارها فى اتجاه مكة ، سارع إلى حشد جيشه فى مكة وأسرع بالتحرك به ليواجه هوازن قبل أن يصل جيشها إلى مكة ، وكان ذلك من الرسول ﷺ سياسة عسكرية حكيمة ألهمه الله اتباعها .

إذ أن ملاقاة الجيش النبوى للمشركين خارج مكة بعيداً عنها ، أصلح (من نواحى عدة) للجيش النبوى من مواجهتهم فيها أو قريباً منها .

---

(١) انظر تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٧١ـــ ٧٢ ، ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٧ ـــ ٨٨٨ ـــ ٨٨٩ ، وجوامع السيرة ص ٢٣٦ ـــ ٢٣٧ ، وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٥٠ ، والكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٧٧ ، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٨١١ ـــ ٨١٢ ، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٢٤ ، وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨١ ـــ ٨٢

ذلك أن الحالة تعتبر (باطنياً) داخل مكة غير مستقرة .. فالرسول ﷺ لم يمض على سيطرة قواته على مكة أكثر من سبعة عشر يوماً . ومكة كانت معقل الوثنية وبها أعظم رؤوس قريش الذين لم يتركوا وسيلة للقضاء على الإسلام إلا واتبعوها .

واستسلامهم للجيش النبوى وتقريرهم عدم مقاومته وهو يدخل مكة لم يكن عن اقتناع بأن الإسلام دين الحق يجب الإذعان والتسليم له .. وإنما كان عن ضعف وعدم قدرة على مواجهة الجيش النبوى عسكرياً .

ولو كانت قريش تعرف وتحس فى نفسها القدرة على مواجهة النبى ﷺ وأصحابه والتغلب عليهم ودحرهم ، لما ترددت فى اتباع خطة المقاومة ولواجهت النبى ﷺ وأصحابه مواجهة عسكرية لدحره .. يدل على ذلك أنها لما فوَّضت رئيسها أبا سفيان ليأخذ لها الأمان من النبى ﷺ وجيشها لمَّا يزل فى الطريق لم يدخل مكة بعد ، قالت لأبى سفيان ما معناه : (خذ لنا منه الأمان واقبل بأن يدخل مكة إلا أن ترى فى أصحابه ضعفاً فنابذه ، أى أعلن عليه الحرب) .

إذن فكثير من أهل مكة بعد أن سيطر الجيش النبوى على مكة أعلنوا إسلامهم ولمَّا يدخل الإيمان فى قلوبهم .. وهذه حقيقة عبَّر عنها أحد سادتهم الذى كان حاضراً معركة حنين .. حقيقة عبَّر عنها بقوله (حينما انهزم المسلمون فى المرحلة الأولى من المعركة) : بطل السحر إنها هزيمة لن تنتهى حتى البحر .

فالرسول ﷺ لو تحصن بمكة واعتمد خطة قتال الشوارع فى مواجهته هوازن لأصبح هو وجيشه فى وضع غير مأمون ، لأن الكثير من قريش قد تعود إليهم جاهليتهم فيغتنموا فرصة هجوم هوازن على مكة ، فيشكلوا قوة قريشية تضرب المسلمين داخل مكة .. إنه احتمال غير بعيد ، وكل قائد يكون على ما كان عليه النبى ﷺ لابد وأن يدخل فى حسابه (وهو يرسم خطة المعركة الفاصلة) هذا الاحتمال .

من هنا كانت خطة رسول الله المرسومة على أساس الخروج من مكة واصطحابه ألفين من أهلها معه فى الجيش خطة حكيمة جعلت ظهره مأموناً

من أن يضربه المرتابون الذين أعلنوا الإسلام ولمَّا يدخل الإيمان فى قلوبهم . مثل الزعيم الذى اغتبط بهزيمة المسلمين فى المرحلة الأولى فى حنين وقال كلمته تلك (بطل السحر إنها هزيمة لن تنتهى حتى البحر) .

بل إن هناك من أهل مكة مَن بقى على شركه فلم يجبره النبى ﷺ على الدخول فى الإسلام بل ترك له الحرية مثل صفوان بن أمية وغيره ، وهذا يؤكد الاحتمال القائل : إن أهل مكة ربما ينضمون إلى هوازن عندما تنشب المعركة فى مكة بين هوازن وبين الجيش النبوى .

ولهذا كان (من وجهة النظر العسكرية) عين الحكمة والحنكة السياسية أن يخرج النبى ﷺ بجيشه من مكة ، وقرار مصادمة جيوش هوازن فى العراء بعيداً عن مكة ، التى لم يترك فيها (عند خروجه منها لملاقاة هوازن) سوى حامية صغيرة لحفظ الأمن والنظام بقيادة عتّاب بن أسيد . وكانت الحامية التى تركها كافية لحفظ النظام والضرب على يد أى مريب تحدثه نفسه بالتمرد أو الإخلال بالأمن ، لاسيما وأن الله ملأ قلوب القرشيين عامة هيبة ورعباً بعد أن سيطر الجيش النبوى على العاصمة المقدسة .

استعارة الرسول السلاح من المشركين .

ولما قرر الرسول ﷺ الخروج من مكة لمواجهة هوازن خارجها ، قام بتقييم للعتاد الحربى الذى يحتاجه جيشه ، فوجد أن هناك نقصاً فى هذا العتاد لابد من تكملته ليكتمل تسليح جيشه لأنه مقدم على معركة فاصلة يتقرر فيها مصير الإسلام والمسلمين ، فقد كان عدوه أكثر عدداً وأجود تسليحاً ولهذا فكر فى مصدر يحصل منه على العتاد الحربى الذى يكمل تسليح جيشه .

كان صفوان بن أمية من كبار زعماء مكة وكان من أغنيائها وكان من أشهر تجار السلاح . وكان رغم سيطرة المسلمين على مكة وإعطائه الأمان من قِبَل الرسول ﷺ — بقى على شركه فلم يجبره الرسول ﷺ على الإسلام حتى دخل فيه مختاراً بعد عودة الرسول من حنين منتصراً .

بحث الرسول ﷺ عن مصدر للسلاح ليموّن به جيشه فوجد مصدرين فى مكة فقط استطاع أن يحصل منهما على ما يحتاجه من سلاح للمعركة القادمة

الفاصلة .. وهذان المصدران هما ابن عمه نوفل بن الحارث وصفوان بن أمية .

كان صفوان بن أمية (حتى معركة حنين مشركاً) وفى مكة فاتحه الرسول ﷺ بأنه بحاجة إلى السلاح نظراً لكونه مقدماً على خوض معركة كبيرة حاسمة مع هوازن ، وطلب منه أن يمده بالسلاح قائلا : يا أبا أمية أعرنا سلاحك نلقَ به عدوَّنا غداً . فقال صفوان : أغصباً يا محمد ؟ قال النبى ﷺ : بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك . قال : ليس بهذا بأس .فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح (رماحاً وسيوفاً) . وعند ذلك طلب رسول الله ﷺ من صفوان أن يتولى نقل السلاح إلى مكان المعركة قائلاً : إكفنا حملها ، فحملها صفوان على إبله إلى أوطاس فدفعها الى الرسول ﷺ .

أما نوفل بن الحارث بن عبد المطلب (وكان من كبار تجار السلاح أيضاً) فقد أعان النبى ﷺ فى معركة حنين بثلاثة آلاف رمح ، وقد استفاد الجيش الإسلامى فائدة عظمى من رماح نوفل بن الحارث هذه يوم حنين ، شهد بذلك النبى ﷺ حين قال لنوفل : كأنى أنظر إلى رماحك تقصف أصلاب المشركين .

استقراض الرسول ﷺ المال من أهل مكة

كان الرسول ﷺ قد فتح مكة عنوة ، وكان فى استطاعته ــ بعد أن استسلمت له مكة ــ أن يأخذ (كفاتح منتصر) من المغلوبين أهل مكة ما شاء من أموال وسلاح

أما السلاح فبالرغم من أن الأعراف الحربية تقضى بأن يصادر المنتصر كل قطعة سلاح فى حوزة العدو المهزوم ــ فإن الرسول المنتصر ﷺ لم يستول على شيء منها إلا التى ألقت بها فى الشوارع بعض الوحدات القرشية التى عصت أمر أبى سفيان وقاومت الجيش النبوى وهو يدخل مكة ثم انهزمت .

أما الأسلحة المخزونة فى البيوت بمكة ، سواء كانت للتجارة أو للاستعمال الخاص ، فلم يسمح الرسول ﷺ بمصادرة شيء منها ، فلم يحدث أى اقتحام لأى بيت من بيوت المهزومين القرشيين من قبل الجيش الإسلامى المنتصر بحثاً عن السلاح لمصادرته وقد رأينا كيف أن الرسول ﷺ استعار من

صفوان بن أمية الجمحى (وهو من كبار قادة المشركين فى مكة) السلاح ، وعندما سأله صفوان : أغصباً يا محمد ؟ قال : بل عارية ومضمونة حتى نؤديها .

كذلك الأموال ، فقد كان الجيش النبوى فى أمس الحاجة إليها عندما سيطر على مكة ، ورغم أنه كذلك ، ورغم أنه جيش فاتح منتصر سيطر على أعظم وأكبر مدينة فى بلاد العرب يوم ذاك ، فإن هذا الجيش (وبأمر من قائده الأعلى النبى) قد عفّ عَنْ أن يأخذ درهماً واحداً أو أى شىء من أموال أهل مكة قسراً أو بالقوة .

وكل ما فعله النبى القائد المنتصر ، هو أنه لما رأى ما عليه بعض جنده من فقر وعوز وفاقة ، طلب من أغنياء مكة التى فتحها أن يعطوه من أموالهم قرضاً ليخفف به من الضائقة التى يعانى منها بعض الجند من أصحابه ، على أن يسدد لهم هذا القرض عندما يكون قادراً على ذلك ، فأقرضه أغنياء مكة مائة وخمسين ألف درهماً أعادها إليهم (بعد معركة حنين) مشفوعة بالشكر والحمد لهم .

وهذا التصرف من الرسول القائد المنتصر ، خُلُق لم يصل إلى مستواه فى النبل والنزاهة والعفة والشرف العسكرى والعدل المدنى حتى هذا اليوم أحد من قادة العالم .

لقد كان بإمكانه (كفاتح منتصر على ألد عدو له) أن يأخذ بأسلوب المصادرة ما شاء من أموال أهل مكة الذين لم يتركوا وسيلة للقضاء عليه وعلى دعوته إلا واتبّعوها ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ولكن لا غرابة فهو إنما جاء لتحرير البشرية لا لقهرها وإذلالها .

قال الواقدى أرسل رسول الله ﷺ عام الفتح فاستلف من عبد الله بن أبى ربيعة أربعين ألف درهم فأعطاه ، فلما فتح الله عليهم هوازن وغنّمه اموالها ردّها وقال : إنما جزاء السلف الحمد ، وقال : بارك الله لك فى مالك وولدك ، كما ذكر الواقدى فى موضع آخر أن الرسول ﷺ استقرض من حويطب بن عبد العزّى أربعين ألف درهم ومن صفوان بن أمية خمسين ألف درهم ، فقسمها رسول الله ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف .

تاريخ تحرك الجيش النبوى من مكة إلى حنين

ويذكر المؤرخون أن النبى ﷺ أقام بمكة بعد الفتح خمسة عشر يوماً ثم تحرك بجيشه إلى حنين يوم السابع من شوال عام ٨ للهجرة ، وكان فتح مكة فى شهر رمضان من هذه السنة .

قال الواقدى فى مغازيه : وقالوا : وكان فتح مكة يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان فأقام رسول الله ﷺ لمكة خمس عشرة ليلة يصلى ركعتين ثم غدا يوم السبت لستّ خلونَ من شوال[١] .

وقال بعضهم : كان فتح مكة يوم الثالث عشر من رمضان ، وهذا يعنى أن الرسول ﷺ أقام بمكة يقصر الصلاة سبعة عشر يوماً[٢] .

نائب الرسول على مكة

وعندما استكمل الرسول ﷺ تسليح جيشه وحشده وقرر التحرك به من مكة أصدر مرسوماً عين بموجبه أحد شباب قريش الصادقين فى إسلامهم أميراً على مكة ليدير شؤونها فى حالة غيابه .

والشاب الأمير الذى عينه الرسول ﷺ حاكماً على أهل مكة هو عتّاب بن أسيد[٣] . وتلك عادة الرسول ﷺ الإدارية . إذا ما غادر مدينة أقام عليها أميراً نائباً عنه حتى عودته إليها . وقد بقى عتّاب بن أسيد أميراً على مكة

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٩ ، وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٣ ، وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٧٣ — ج ٣ ص ٩٨٨ .

(٢) أنظر مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٩ .

(٣) هو عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى يكنى أبو عبد الرحمن وقيل أبو محمد ، أسلم يوم فتح مكة وكان شابا حين أسلم لا يزيد عمره على خمس وعشرين سنة . وقد حسن إسلامه ووثق به النبى ﷺ وقدمه على غيره من سادات مكة لما رأى فيه من متانة الدين ومضاء العزيمة .. ولاه الرسول ﷺ إمارة مكة حينما توجه لمقاتلة المشركين فى حنين ، وقد ظل عتاب أميراً على مكة طيلة حياة الرسول ﷺ وأقره أبو بكر عليها إلى أن توفى . قال ابن الأثير فى أسد الغابة : وكان عتاب رجلاً خيراً صالحاً فاضلاً ، وعتاب هو الذى حج بالمسلمين سنة ثمان من الهجرة ، وحج المشركون على ما كانوا . توفى عتاب بن أسيد فى الوقت الذى توفى فيه الخليفة الأول أبو بكر الصديق .

حتى بعد عودة الرسول ﷺ من حنين ومغادرته مكة راجعاً إلى المدينة . بل ظل عتاب أميراً على مكة حتى توفى رسول الله ﷺ وهو الذى (بالاشتراك مع سهيل بن عمرو) هدد أهل مكة بالقتل إن هم حاولوا الارتداد عن الإسلام وذلك عندما ارتد أكثر العرب وشاعت شائعات فى مكة بأن عناصر من أهلها يفكرون فى الخروج من الإسلام . فرقى سهيل بن عمرو المنبر وقال : (ياأهل مكة لا تكونوا آخر الناس إسلاماً وأولهم ارتداداً) وقال عتاب بن أسيد : (من تأخر عن حضور الصلاة فى المسجد ضربنا عنقه أو كما قال) .

عدد القوات النبوية المتحركة إلى حنين

وعندما أكمل الرسول القائد ﷺ حشد قواته وتعبئتها داخل مكة تحرك بها ناحية حنين الذى قررت هوازن أن يكون مكان المعركة الفاصلة بين المسلمين والمشركين .

أما عدد القوات النبوية فى الجيش المتحرك إلى حنين فقد بلغ اثنى عشر ألف مقاتل . عشرة آلاف من أهل المدينة وعناصر مختلفة من القبائل العربية التي ساهمت فى فتح مكة ، وألفان من أهل مكة ممن أسلم بعد الفتح[1] ، وفيهم بعض الذين بقوا على شركهم حتى انتهاء المعركة مثل (صفوان بن أمية) وكان البعض من أهل مكة ممن انخرط فى سلك الجيش النبوى ، لم يكن له هدف سوى المشاركة فى الغنيمة إذا تم النصر للمسلمين والتشفىّ من النبى ﷺ إذا خسر المعركة بل إن بعضهم لما انهزم المسلمون فى المرحلة الأولى من المعركة جاء يبشر صفوان بن أمية وكان لا يزال مشركاً ، فانتهره صفوان بشدة وأخبره أنه يفضل أن يرأسه رجل من قريش بدلاً من أن حكمه رجلاً من هوازن .

قال الواقدى : وخرج رجال من مكة مع النبى ﷺ ، فلم يغادر منهم أحد على غير دين ركباناً ومشاة ينظرون لمن تكون الدائرة فيصيبون من الغنائم لا يكرهون أن تكون الصدمة لمحمد ﷺ وأصحابه وخرج أبو سفيان بن حرب فى أثر

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٩ ، وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٧٣ ، وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٣ وجوامع السيرة ٢٣٨ .

العسكر ، كلما مر بترس ساقط أو رمح أو متاع من متاع النبى ﷺ أخذه وحمله ، والأزلام فى كنانته ، حتى أوقر جمله وخرج صفوان بن أمية ولم يسلم ، وهو فى المدة التي جعل له رسول الله ﷺ فاضطرب خلف الناس ، ومعه حكيم بن حزام ، وحويطب بن عبد العزى ، وسهيل بن عمرو ، وأبو سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، ينظرون لمن تكون الدائرة اضطربوا خلف الناس والناس يقتتلون فمر به (أى صفوان بن أمية) رجل فقال : أبشر أبا وهب ، هزم محمد وأصحابه . فقال له صفوان : إن رباً (أى حاكما) من قريش أحبّ إلى من رب من هوازن إن كنت مربوباً(١) . ومعنى مربوباً أى محكوماً لملك أو غيره . فالعرب فى لغتهم يعبرون عن الملك أو الحاكم بالرب ، وهذا كثير فى أقوالهم من شعر ونثر .

وخامة عواقب الإعجاب بالنفس :

بعد فتح مكة قويت شوكة المسلمين سواء من الناحية المعنوية أو العسكرية .. فمن الناحية المعنوية بات سلطان الإسلام على شبه الجزيرة العربية شبه مطلق بعد وقوع مكة فى قبضة الجيش الإسلامى ، لأن مكة تعتبر عاصمة الجزيرة العربية كلها لما لها من مركز دينى بين العرب على اختلاف مشاربهم وميولهم .

ومن الناحية العسكرية ، فقد اجتمعت للإسلام (بعد فتح مكة) قوة حربية لم ينضو تحت لواء الإسلام مثلها منذ بزغت شمس هذا الدين .

اثنا عشر ألف مقاتل تحركت من مكة فى اتجاه حنين بقيادة الرسول الأعظم ﷺ وهو عدد كما قلنا لم يجتمع لمسلمين مثله من قبل .

لقد كانت هذه الكثرة ، كثرة الجيش التى لم يعرف المسلمون مثلها فى تاريخهم العسكرى من قبل .. كانت هذه الكثرة باعث عجب بين بعض فصائل المحاربين فى الجيش النبوى ، تحوّل هذا العجب (عند البعض) إلى ما يشبه الغرور .

والغرور من أول ثمراته الاستهانة بالعدو .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٩٥

والاستهانة بالعدو فى حالة الحرب من أخطر ثمراتها التساهل فى أخذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة هذا العدو .

والتساهل وعدم أخذ الحيطة تؤدى بالتالى إلى الهزيمة والانكسار من حيث لا يتوقع المتساهلون المعجبون بأنفسهم .

وهذا ما حدث بالفعل فى صفوف الجيش النبوى ، حيث أدى الإعجاب بكثرته إلى الجزم (سلفاً) بأن انتصاره على هوازن أمر مفروغ منه . وهو اعتقاد أدى إلى الاستخفاف بهوازن وقواتها الضاربة المدربة المنسقة ، فكانت النتيجة أن هُزم المسلمون فى حنين هزيمة كادت تكون ساحقة مدمرة ، لولا أن ثبت الله القائد الأعلى النبى ﷺ ساعة الهزيمة ونفر قليل من أصحابه الذين ثبتوا معه ساعة الهزيمة المنكرة ، الأمر الذى أعاد للمسلمين المنهزمين تنظيمهم الذى فقدوه عند الصدمة الأولى حين انقضت عليه فى غلس الفجر كمائن هوازن من الشعاب التى نظمهم ورتبهم فيها قائدهم الشاب وملكهم الشجاع مالك بن عوف .

فتحول (بعد ذلك) ميزان القتال لصالح الجيش النبوى ، بعد أن محصهم الله بالهزيمة عند الصدمة الأولى ، تحول ميزان القتال من هزيمة مزقت شمل الجيش الإسلامى (حتى وصل بعض المنهزمين منه قرب مكة) إلى انتصار ساحق كان أعظم ظفر من وجهة النظر الحربية يحرزه الرسول ﷺ وأصحابه فى معركة خاضوها فى العهد النبوى ، نظراً للقوى الكثيفة الشرسة المحاربة التى اصطدموا بها فى وادى حنين ، حيث كانت هذه القوى من هوازن لا تقل عن عشرين ألف مقاتل ، بينما جيش المسلمين لا يزيد على اثنى عشر ألف مقاتل .

حديث الجيش عن الإعجاب بالكثرة

لقد تفوهت عناصر مِنْ الجيش النبوى بما يشبه الزهو والغرور بكثرة هذا الجيش ، ويوحى بغفلة بعض القلوب عن الله نتيجة الإعجاب بالكثرة ، فعاقبهم الله بالهزيمة التى ردتهم إليه تعالى .

فقد جاء فى كتب التفسير والسير والتاريخ أن النبى ﷺ لما فصل من مكة

باثنى عشر ألف مقاتل ، قال رجل من أصحابه (بلهجة الإعجاب) : لو لقينا بنى شيبان ما بالينا . ولا يغلبنا اليوم أحد من قلة ، وذكر بعض المؤرخين أن أبا بكر الصديق قال : يا رسول الله لن تغلب من قلة[1] .

والخلاصة أن كثرة المسلمين قد أعجبتهم إلى حد وصل مرحلة الغرور فى نفوس بعض العناصر منهم ، مما أدى إلى هزيمتهم فى المرحلة الأولى من المعركة .

وهذه حقيقة أشار إليها القرآن الكريم بكل وضوح . فقال تعالى : ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين .. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين .. ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم .[2] ﴾

قال العلامة سيد قطب رحمه الله (فى كتابه : فى ظلال القرآن) : (ثم لمسة للمشاعر بالذكرى وباستعراض صفحة من الواقع الذى عاشه المسلمون إذ ذاك منذ قريب يوم حنين ، يوم غفلت قلوب المسلمين لحظات عن الله مأخوذة بالكثرة فى العدد والعتاد ليعلم المؤمنون أن التجرد لله وتوثيق الصلة به هى عدة النصر التى لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة فى العدد والعتاد وحين يخذلهم المال والإخوان والأولاد .)

ثم يقول (مشيراً إلى ما ذكره القرآن من نتائج إعجاب المسلمين بكثرتهم) : والنص يعيد عرض المعركة بمشاهدها المادية وبانفعالاتها الشعورية ﴿ إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ فمن انفعال الإعجاب بالكثرة إلى زلزلة الهزيمة الروحية ، إلى انفعال الضيق والحرج حتى لكأن الأرض كلها تضيق بهم وتشد عليهم . إلى حركة الهزيمة الحسية ، وتولية الأدبار والنكوص على الأعقاب ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ وكأنما السكينة رداء ينزل فيثبت القلوب الطائرة ، ويهدئ الانفعالات الثائرة ﴿ وأنزل جنوداً لم تروها ﴾ فلم تعلم

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٩ و ٨٩٠ وتفسير الطبرى ج ١٤ ص ١٧٩ — ١٨٠ .
(٢) التوبة ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ .

ماهيتها وطبيعتها ـــ وما يعلم جنود ربك إلا هو ـــ ﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالقتل والأسر والسلب والهزيمة﴿ وذلك جزاء الكافرين ﴾ .

من بقايا تأثيرات الجاهلية المطالبة بذات أنواط

تحرك الرسول ﷺ ـــ كما قلنا ـــ بجيشه من مكة فى السابع من شهر شوال عام ثمان للهجرة متجهاً إلى حنين لمواجهة هوازن .

وكان فى جيشه البالغ اثنى عشر ألف مقاتل ـــ ألفان من حديثى العهد بالإسلام من أهل مكة . فكثير من هؤلاء لم ينخلعوا (كلياً) من معتقدات الجاهلية ، بل ظلت ـــ من تصورات الوثنية رواسب راسبة فى نفوسهم لقرب عهدهم بما كانوا عليه من شرك ووثنية .

ومن هذه الرواسب أن بعضاً ممن كان فى الجيش النبوى من حديثى العهد بالإسلام الذين لم يكونوا قد استوعبوه كله ، طلبوا من الرسول ﷺ أن يحقق لهم طلباً .. تحقيقه هو عين الشرك والوثنية .

وخلاصة ذلك أن النبى ﷺ بينما كان يتحرك بجيشه بين مكة وحنين ، مر الجيش بشجرة عظيمة خضراء ، كانت قريش وسائر العرب يعظمونها ، يقال لها : (ذات أنواط) ، وهنا (وعندما رأوا الشجرة المذكورة) طلب بعضهم من النبى ﷺ أن يجعل لهم شجرة مثل تلك الشجرة يعظمونها كما يعظم المشركون ذات أنواط ، فقال الرسول ﷺ .. مستنكراً : الله أكبر قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾.. إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم .

قال ابن إسحق وحدثنى ابن شهاب الزهرى عن سنان بن أبى سنان الدُّؤلى ، عن أبى واقد الليثى أن الحارث بن مالك . قال :

خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية ، قال فسرنا معه إلى حنين ، قال : وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء ، يقال لها : ذات أنواط ، يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً . قال : فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة ، قال : فتنادينا من جنبات

الطريق : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، قال رسول الله ﷺ : الله أكبر قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى : ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال : إنكم قوم تجهلون﴾ إنه السنن لتركبن سنن من كان قبلكم[1] .

وفى رواية عن عكرمة عن ابن عباس . قال كانت ذات أنواط شجرة عظيمة . أهل الجاهلية يذبحون بها ويعكفون عليها يوماً ، وكان من حج منهم وضع رداءه عندها ، ويدخل بغير رداء تعظيماً لها ، فلما مر بها رسول الله ﷺ إلى حنين . قال رهط من أصحابه ، فيهم الحارث[2] بن مالك : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فكبّر رسول الله ﷺ ثلاثاً وقال : هكذا فعل قوم موسى بموسى[3] .

محاولة اغتيال الرسول ﷺ فى الطريق إلى حنين

فى كل حرب (وخاصة فى الحروب القديمة التى يكون قتل قائد الجيش السبب الرئيسى فى هزيمة جيشه) يفكر كل جانب فى التخلص من قائد الجيش الذى تقرر الاشتباك معه ، ليوهن بذلك من عزيمة جنده بقتله .

وليس من المستبعد أن يكون ملك هوازن وقائد جيشها العام قد فكر هذا التفكير ، فوضع خطة لاغتيال الرسول القائد ﷺ قبل نشوب المعركة وأوعز إلى من يثق به من رجاله لتنفيذ هذه الخطة .

فقد روى المؤرخون أن رجلاً من المشركين ـــ لم يذكروا اسمه ـــ تمكن من التسلل إلى حيث يرقد الرسول ﷺ وهو فى الطريق إلى حنين فتخطى الحرس النبوى (خلسة) ، فلم يشعر النبى (ﷺ) إلا وذلك الرجل المشرك فوق

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٤ و ٨٥ .

(٢) هو الحارث بن مالك بن قيس بن عوذ بن جابر بن عبد مناف بن شجع الكنانى البكرى الليثى المعروف بابن البرصاء . قال ابن الأثير : هو من أهل الحجاز أقام بمكة ، وقيل نزل الكوفة .. وقد روى عنه الحديث كثير من التابعين ، منهم عبيد بن جريج والشعبى . وعنه روى الشعبى عن رسول الله ﷺ أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة يقول : لا تعزى قريش بعد اليوم إلى يوم القيامة .

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٩١ .

رأسه قد جرد سيفه والنبى ﷺ نائم بعيداً عن سلاحه ، غير أن الله تعالى أفشل هذه المحاولة الخطيرة ، ونجَّا الرسول ﷺ من شرها ، فقد أشعر الرسول ﷺ حرسه فاعتقلوا المشرك المتآمر ، وحاولوا إعدامه ولكن الرسول ﷺ نهاهم عن ذلك .

قال أبو بردة بن نيار[1] وهو من المقربين إلى رسول الله ﷺ : لما كنا دون أوطاس ، نزلنا ونظرنا إلى شجرة عظيمة ، فنزل رسول الله ﷺ تحتها وعلَّق بها رسول الله ﷺ سيفه وقوسه وقال : وكنت من أقرب أصحابه إليه . قال : فما أفزعنى إلا صوته : يا أبا بردة ، فقلت : لبيك ، فأقبلت سريعاً ، فإذا رسول الله ﷺ جالس وعنده رجل جالس . فقال رسول الله ﷺ : إن هذا الرجل جاء وأنا نائم ، فسل سيفى ثم قام به على رأسى ففزعت به ، وهو يقول : يا محمد ، من يؤمِّنك منى اليوم ؟ قلت : الله ، قل أبو بردة : فوثبت إلى سيفى فسللته ، فقال رسول الله ﷺ شِم[2] سيفك . قال : قلت : يا رسول الله دعنى أضرب عنق عدو الله ، فإن هذا من عيون المشركين . قال : فقال لى : أسكت يا أبا بردة . قال : فما قال له رسول الله ﷺ شيئاً ولا عاقبه . قال : فجعلت أصيح به فى العسكر ليشهده الناس فيقتله قاتل بغير أمر من رسول الله ﷺ ، فأما أنا فإن رسول الله ﷺ قد كفَّنى عن قتله . فجعل رسول الله ﷺ يقول : إلهَ عن الرجل يا أبا بردة ، قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا أبا بردة إن الله مانعى وحافظى حتى يظهر دينه على الدين كله[3] .

تقارير استخبارات هوازن عن الجيش النبوى

وكما هى العادة المتبعة فى كل حرب فإن حصول العدو عن المعلومات الكاملة فى مختلف القطاعات والمجالات أمر يضعه كل قائد مسؤول فى مقدمة خططه وحساباته واستعداداته للمواجهة . وانطلاقاً من هذه القاعدة (وكما فعل الرسول ﷺ حين بعث باستخباراته للحصول على المعلومات اللازمة عن

(١) أنظر ترجمة أبو بردة فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٢)شم ــ بكسر الشين أى اغمده .

(٣) مغازى الواقدى ج ٣ .

قوة هوازن ، فقد فعل مالك بن عوف النصرى ملك هوازن وقائدها نفس الشيء ، فبعد أن سبق المسلمين إلى وادى حنين وعسكر به وبعد أن علم بتحركهم من مكة ، قرر أن يبعث برجال من استخباراته العسكرية تستطلع أمر الجيش النبوى وتحمل إليه المعلومات الهامة عن الجيش النبوى التى يحتاج إليها قائد عام جيش هوازن الذى أصبح على أبواب معركة مصيرية حاسمة على نتائجها يتقرر مصير الوثنية بأكملها .

فقد انتخب مالك بن عوف ثلاثة من رجاله وأمرهم بأن يقوموا بمهمة التجسس على جيش المسلمين لمعرفة مدى قوته ، فكوّن منهم جهاز استخبارات خاصاً للقيام بهذه المهمة .

فقد أمر مالك بن عوف هؤلاء الثلاثة بأن يندسوا فى معسكر المسلمين ، وينقلوا إليه كل ما يحتاج إلى معرفته عن جيش الإسلام .

فقام هؤلاء الثلاثة بتنفيذ أمر ملكهم وقائدهم فتسللوا (متنكرين) حتى وصلوا إلى المعسكر الإسلامى وجاسوا خلاله دون أن يشعر أحد من المسلمين ، فعرفوا عن جيش الإسلام ما حل قواهم المعنوية وجعلهم يستيقنون فى أنفسهم أن أحداً (مهما كان) لن يقدر على أن يتغلب على جيش الإسلام الذى رأوا .

لذلك عادوا إلى ملكهم وقائدهم مالك بن عوف فقدموا له عن جيش المسلمين تقريراً أغضبه ، ولم يكتف جهاز استخبارات مالك ، بل أسدوا لقائدهم النصح بأن يتجنب الصدام مع المسلمين ، وأن يعود بجيشه إلى ديار هوازن دون أن يلتحم بالجيش النبوى ، لأن تلك هى الوسيلة الوحيدة التى بها ينجو مالك وينجّى جيشه من هزيمة ستكون ماحقة لا محالة .

قدم جهاز استخبارات ملك هوازن تقريره ثم نصحه بعدم الصدام عن قناعة بنوها نتيجة لواقع شهدوه ولمسوه ، حينما خالطوا المسلمين فى معسكرهم بين مكة وحنين حيث رأوا ما أفزعهم وبث الرعب فى نفوسهم .

ولكن مالكاً اتهم استخباراته بالجبن فسخر منهم ومن نصائحهم ، وكلف رجلاً آخر من رجاله بأن يقدم له تقريراً عن واقع الجيش الإسلامى ، وقد ذهب الرجل إلى معسكر المسلمين للاستكشاف ولكنه عاد إلى القائد مالك

يحمل نفس الشعور والانطباع اللذين حملهما الجواسيس الثلاثة ، فنصح القائد مالكاً ، بأن يعود إلى ديارهم دون أن يلقى المسلمين ، وإلا فإن الهزيمة ستكون من نصيبه ومن نصيب جيشه إن هو أصر على ملاقاة المسلمين .

ولكن الغرور حال بين مالك وبين أن يأخذ ويعمل بما فى التقارير والنصائح التى قدمها رجال استخباراته عن جيش المسلمين ، فأصر على مقاتلة المسلمين مهما كانت النتائج ، وقد فعل ، فنزلت به وبجيش هوازن تلك الهزيمة المنكرة التى كانت خاتمة الصراع الدامى بين الإسلام والوثنية فى جزيرة العرب .

قال الواقدى : وبعث مالك بن عوف رجالاً من هوازن ينظرون إلى محمد وأصحابه ، ثلاثة نَفر ، وأمرهم أن يتفرقوا فى العسكر ، فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم . فقال : ما شأنكم ويلكم ؟ فقالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى . وقالوا له : ما نقاتل أهل الأرض إن نقاتل إلا أهل السموات — وإن أفئدة عيونه (أى جواسيسه) تخفق — وإن أطعتنا رجعت بقومك . فإن الناس إن رأوا ما رأينا أصابهم مثل الذى أصابنا .

قال : أفّ لكم بل أنتم قوم أجبن أهل العسكر . فحبسهم عنده فرقاً (أى خوفاً) أن يشيع الرعب فى العسكر . وقال : دلونى على رجل شجاع ، فخرج ، ثم رجع إليه وقد أصابه نحو ما أصاب من قبله منهم ، فقال : ما رأيت ؟ قال رأيت رجالاً بيضاً على خيل بلق ، ما يطاق النظر إليهم ، فوالله ما تماسكت أن أصابنى ما ترى . فلم يثنه ذلك عن وجهه[1] .

الاستخبارات النبوية فى معسكر هوازن

وعندما اقترب الرسول ﷺ من وادى حنين الذى اتخذه مالك بن عوف معسكراً لجيوش هوازن بعث بأحد أصحابه إلى معسكر هوازن ليقوم بمهمة جمع المعلومات اللازمة عن هذا الجيش ، ويعرف كل ما يمكنه معرفته من أخباره .

وقد صدع رجل الاستخبارات الحربية النبوية فدخل (متنكراً) إلى معسكر هوازن حيث تعسكر فى حنين وجال فى جميع نواحيه حتى إنه وصل إلى مقر

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٩٢ ٨٩٣

قيادة هوازن فى المعسكر وسمع ما كان يدور بين ملك هوازن وقائدها وبين بقية رؤسائها من أحاديث حول الحرب بينهم وبين المسلمين .

بل وحصل رجل الاستخبارات النبوية على كامل تفاصيل الخطة التى وضعها قائد هوازن وملكها للمعركة ، وعرف بالتحديد عدد الجند الذى يقوده مالك بن عوف لمحاربة الجيش النبوى .

ورجل الاستخبارات النبوية هذا هو عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى الذى سمع مالك بن عوف (وهو فى خيمة القيادة) يضع لهوازن خطة الهجوم ويصغِّر لهم من شأن المسلمين ويرفع من معنويات قادة الكتائب فى جيشه بأن لديه عشرين ألف مقاتل من هوازن ستكون الغلبة لهم ولا شك على المسلمين ، لأن المسلمين — بزعمه — لم يقاتلوا فى كل حروبهم إلا أُناساً لا علم لهم بالحرب . أمّا هوازن فهى (بزعم مالك) ستبرهن لمحمد وأصحابه كيف تكون الحرب .

فقد سمع ابن أبى حدرد .. سمع مالك بن عوف يقول لقادة وزعماء هوازن فى مقر قيادته : إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى أغماراً لا علم لهم بالحرب ، فيُنصَر عليهم[1] .

ثم شرع فى وضع خطة المعركة الفاصلة فقال :

فإذا كان السّحر فصفُّوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم صفوا صفوفكم ثم تكون الحملة منكم .

ثم دعاهم إلى اتباع طريقة تمكنهم من خفة الحركة فى القتال وتحملهم على الاستبسال وعدم التراجع ، وهى كسر جفون السيوف وإلقاؤها جانباً ، ودعاهم أن يكونوا هم البادئين بالهجوم لأن النصر — حسبما يقول — إنما يكون للبادئ بالهجوم فقال :

ثم تكون الحملة منكم واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسور الجفن ، واحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً .

وبعد أن حصل عبد الله بن أبى حدرد على هذه المعلومات الخطيرة الهامة

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٩٣

عن هوازن وخططها للحرب انسل من معسكرهم دون أن يشعر به أحد من رجال العدو .

وحتى إذا ما وصل مقر قيادة الرسول القائد ﷺ قدم له تقريراً مفصلاً عن كل ما رآه وسمعه فى معسكر العدو[1] .

قال سهل بن حنيف : سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة هوازن فأسرع السير حتى أتاه رجل فقال : يا رسول الله قد تقطعوا من ورائك (يعنى المسلمين) ، كأنه يقصد أن جيش الرسول ﷺ فقد شيئاً من تنظيمه الذى كان عليه ــ قال سهل : فنزل (أى رسول الله ﷺ) فصلى بهم العصر وآوى إليه الناس فأمرهم فنزلوا[2] .

وجاء فارس آخر ممن كلفوا القيام بمهمة الاستطلاع جاء إلى رسول الله ﷺ فى مقر قيادته وقدم له تقريراً آخر عن وضع قوات العدو كما رآه ، فقال : يا رسول الله إنى انطلقت من بين أيديكم على جبل كذا وكذا ، فإذا بهوازن عن بكرة أبيها بظعنها ونسائها ونعمها فى وادى حنين . فتبسم رسول الله ﷺ وقال : تلك غنيمة للمسلمين غداً إن شاء الله[3] .

أعمال الحراسة ليلة المعركة

وعندما اقترب الرسول ﷺ بجيشه من وادى حنين حيث دارت المعركة الفاصلة أمر بإنشاء جهاز الحراسة ــ يرصد العدو ــ ويرقب تحركاته لئلا يتعرض المسلمون لهجوم مفاجئ . والهجوم المفاجئ من أخطر ما تتعرض له الجيوش المحاربة .

وكان الذى أوكل إليه النبى ﷺ مهمة الحراسة ورصد العدو ومراقبة أى تحرك يقوم به هو أنيس بن مرثد بن أبى مرثد الغنوى[4] وكان فارساً شجاعاً مقداماً .

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٩٣

(٢) نفس المصدر .

(٣) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٤.

(٤) هو أنيس بن مرثد بن أبى مرثد ، كان حليف حمزة بن عبد المطلب ، ونسبه فى بنى غنى بن أعصر ، شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة ، وحنين ، وهو الذى أمره الرسول ﷺ برجم المرأة التى اعترفت . قتل أبوه شهيداً يوم الرجيع فى حياة الرسول ﷺ . توفى أنيس سنة عشرين هجرية ، وروى المحدثون عنه =

وقد أمر الرسول ﷺ أن يكون مركز الحراسة بعيداً عن المعسكر الإسلامى وقريباً من معسكر العدو ليكشف أى تحرك يقوم به المشركون فيحذر المسلمين منه .

قال الواقدى (وهو يصف تحركات الرسول ﷺ بجيشه نحو حنين) ثم قال رسول الله ﷺ : ألا فارس يحرسنا الليلة ؟ إذ أقبل أنيس بن أبى مرثد الغنوى على فرسه ، فقال أنا ذا يا رسول الله .

فقال ﷺ : انطلق حتى تقف على جبل كذا وكذا ، فلا تنزلن إلا مصليا أو قاضى حاجة ، ولا تغرّن من خلفك . قال : فبتنا حتى أضاء الفجر وحضرنا الصلاة ، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال : أأحسستم فارسكم الليلة ؟ قلنا : لا والله فأقيمت الصلاة ، فصلى بنا ، فلما سلّم رأيت رسول الله ﷺ ينظر خلال الشجر ، فقال : ابشروا ، فقد جاء فارسكم .. وجاء (أى الفارس) وقال : يا رسول الله إنى وقفت على الجبل كما أمرتنى فلم أنزل عن فرسى إلا مصلياً أو قاضى حاجة حتى أصبحت ، فلم أحس أحداً . قال رسول الله ﷺ : انطلق فانزل عن فرسك ، وأقبل علينا . فقال : ما عليه ألا يعمل بعا هذا عملاً ؟ .

كيف عبأ الرسول ﷺ جيشه ؟ .

وبعد أن حصل الرسول ﷺ على المعلومات التى يريدها عن هوازن وقواتها المعسكرة فى وادى حنين عمد إلى قواته فعبأها للقتال استعداداً للمعركة الوشيكة الفاصلة التى نشبت عند فجر اليوم الثالث عشر من شهر شوال عام ثمان للهجرة ، فهُزِمَ المسلمون ــ عند الصدمة الأولى ــ هزيمة منكرة وكادت تكون ساحقة لولا أن ثبت الله رسوله ﷺ وقلة من خلصاء أصحابه هم هيئة أركان حربه فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والعباس وسادة الأنصار ، فعاد المنهزمون إلى الميدان عندما علموا أن نبيهم ﷺ باق فى قلب المعركة وحملوا على جموع المشركين حملة رجل واحد فمزّقوا صفوفهم شر ممزق ثم أنزلوا بهم الهزيمة المدمرة الساحقة . وكانت تعبئة الرسول ﷺ لجيشه قبيل الفجر .

= حديث الفتنة ، وأنها ستكون فتنة عمياء صماء بكماء . الحديث ــ (أسد الغابة ج ١ ص ١٣٥ ــ ١٣٦) .

كان الرسول القائد ﷺ قد عبأ جيشه لخوض معركة حنين على أساس قَبلى ، وهو ما فعله عندما استعد لدخول مكة وتحريرها .

فقد عمد إلى جيشه الزاحف نحو حنين والبالغ اثنى عشر ألفاً فقسمه إلى أقسام ثلاثة :

القسم الأول : المهاجرون من أهل مكة وحلفائهم .

القسم الثانى : الأنصار .

القسم الثالث : مختلف القبائل بمن فيهم المهاجرون السابقون الأولون منهم .

أما القسم الأول وهم المهاجرون القرشيون وحلفاؤهم ، فقد قسمهم الرسول ﷺ إلى كتائب ثلاث أعطى قيادتها لثلاثة من كبار المهاجرين وكلهم من قريش .

وأما القسم الثانى وهم الأنصار (الذين يمثلون العمود الفقرى للجيش) فقد نظمهم فرقتين رئيسيتين وهما الأوس والخزرج اللتان إليهما ينتسب جميع الأنصار . وأعطى قيادة هاتين الفرقتين إلى سيدين من سادات الأوس والخزرج كل منهما يحمل لواء قبيلته الأعظم .

ثم قسم الرسول ﷺ رجال هاتين القبيلتين الرئيسيتين إلى فصائل على أساس قبَلى أيضاً بحيث صارت كل فخيذة من الأوس والخزرج تشمل رجالها المنتسبين فى الجيش فصيلة منفردة لها قائدها الخاص وعلمها الخاص .

على أن يكون ارتباط قائد كل فصيلة من القبيلة بحامل اللواء الأعظم من الأنصار وهو سعد بن عبادة أو أسيد بن حضير اللذان كل واحد منهما قائد عام لقبيلته الأم .. سعد بن عبادة قائد عام لقبيلة الخزرج .. وأسيد بن حضير قائد عام لقبيلة الأوس .. على أن يكون مرجع الجميع الرسول الأعظم ﷺ كقائد أعلى للجيش .

أما بقية القبائل العربية فى الجيش من غير المهاجرين والأنصار ، فقد عبأها النبى ﷺ على أساس قبَلى أيضاً ، فجعلهم فصائل .

وكانت هذه الفصائل (قلة وكثرة) حسب عدد رجال القبيلة . فبعض القبائل (لكثرتها) قُسمت إلى أربع فصائل وعيّن لكل فصيلة حامل راية قائد .

وبعضهم قسم إلى ثلاث فصائل ، وبعضهم قسم إلى فصيلتين . وبعضهم كانت القبيلة كلها (لقلة عدد رجالها) فصيلة واحدة .

الجدول بأسماء القادة فى حنين :

وفيما يلي جدول يوضح أسماء القادة الكبار من حملة الألوية ، ثم جدول بأسماء حملة الرايات من قادة الفصائل من المهاجرين والأنصار وبقية القبائل العربية من أهل البادية :

أسماء حملة الألوية

الاسم	النسب
١ ــ على بن أبى طالب	قرشي مهاجرى
٢ ــ سعد بن عبادة	خزرجى أنصارى
٣ ــ أسيد بنُ حضير	أوسى أنصارى

أسماء حملة الرايات

الإسم	النسب
١ ــ سعد بن أبى وقاص	قرشي مهاجرى
٢ ــ عمر بن الخطاب	قرشي مهاجرى
٣ ــ أبو نائلة	أوسى أنصارى
٤ ــ أبو بردة بن نيار	أوسى أنصارى
٥ ــ أبو لبابة بن عبد المنذر	أوسى أنصارى
٦ ــ قتادة بن النعمان	أوسى أنصارى
٧ ــ جبر بن عتيك	أوسى أنصارى
٨ ــ أبو أسيد الساعدى	خزرجى أنصارى
٩ ــ عمارة بن حزم	خزرجى أنصارى
١٠ ــ أبو سليط	خزرجى أنصارى
١١ ــ سليط بن قيس[١]	خزرجى أنصارى

(١) مما تجدر الإشارة إليه أن الجيش الذى دخل مكة هو الجيش الذى اشترك فى معركة حنين . وكان الرسول ﷺ قد عبأ جيشه فى قديد على أساس قبلى ، فجعل قادة الكتائب من الأوس ستة وقادة =

هذه أسماء حملة الألوية والرايات من المهاجرين والأنصار .. أما بقية القبائل العربية من أهل البادية والذين يأتون فى الدرجة الثانية من حيث كثرة عددهم فى الجيش . فقد كان بينهم من حملة الرايات يوم حنين ثمانية عشر قائداً وهم كما يلى :

أسماء حملة الرايات من أهل البادية

الاسم	القبيلة
١ ــ بريدة بن الحصيب	أسلم
٢ ــ جندب بن الأعجم	أسلم
٣ ــ أبو ذر الغفارى	غفار
٤ ــ أبو واقد الليثى	بنو ضمرة
٥ ــ بشر بن سفيان	بنو كعب بن عمرو
٦ ــ أبو شريح	بنو كعب بن عمرو
٧ ــ بلال بن الحارث	مزينة
٨ ــ النعمان بن مقرّن	مزينة
٩ ــ عبد الله بن عمرو بن عوف	مزينة
١٠ ــ رافع بن مكيث	جهينة
١١ ــ عبد الله بن يزيد	جهينة
١٢ ــ معبد بن خالد أبو زرعة	جهينة
١٣ ــ سويد بن صخر	جهينة
١٤ ــ نعيم بن مسعود	أشجع
١٥ ــ معقل بن سنان	أشجع
١٦ ــ العباس بن مرداس	بنو سليم
١٧ ــ خفاف بن ندبة	بنو سليم

= الكتائب من الخزرج ستة . ويلاحظ هنا أن قادة الفصائل فى معركة حنين هم أنفسهم قادة الكتائب فى فتح مكة . إلا أن قادة الفصائل من الأوس فى معركة حنين خمسة ، وقادة الخزرج أربعة فقط . (أنظر كتابنا فتح مكة ص ١٠٨ و١٠٩ و١١٠ و١١١ و١١٢ .

١٨ ــ الحجاج بن علاط[١]   بنو سليم[٢]

قال الواقدى : ولما كان من الليل عمد مالك بن عوف إلى أصحابه فعبأهم فى وادى حنين ــ وهو واد أجوف ، ذو شعاب ومضائق ــ وفرَّق الناس وأوعز إلى الناس أن يحملوا على محمد وأصحابه حملة واحدة .

وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه وصفَّهم صفوفاً فى السّحر ، ووضع الألوية والرايات فى أهلها . ثم ذكر الواقدى أسماء حملة الألوية والرايات من المهاجرين والأنصار وأهل البادية على النحو الذى فصلناه فيما مضى .

وقال الواقدى : وكانت رايات الأوس والخزرج فى الجاهلية خضر وحمر ، فلما كان الإسلام أقروها على ما كانت عليه . وكانت رايات المهاجرين سود والألوية بيض .

الخيل فى مقدمة الجيش النبوى

ومع أن النبى ﷺ قد قسم جيشه ونظمه عند التعبئة على أساس قبلى فصار الجيش النبوى يتألف من تسع وعشرين فصيلة .. فصيلتان من المهاجرين . وتسع من الأنصار . وثمانى عشر من مختلف القبائل من أهل البادية . فقد أبقى تعبئة الخيل على ما كانت عليه عند دخوله مكة لتحريرها . فقد جعل الخيل (عند تحركه من مكة إلى حنين) فى مقدمة الجيش ، ورغم أن الرسول ﷺ قد نظم جيشه ورتَّبه على أساس قبلى إلا أنه ﷺ جعل (وبصورة استثنائية) القائد الشهير خالد بن الوليد قائداً على ألف فارس ، كلهم من بنى سليم يقودهم ثلاثة من ساداتهم .. هم العباس بن مرداس .. والحجاج بن علاط .. وخفاف بن ندبة .. فظل خالد قائداً عاماً للخيل حتى انتهت معركة حنين وحصار الطائف . ولم يزل خالد على مقدمة الجيش حتى عاد النبى ﷺ من حنين والطائف إلى الجعرانة[٣] .

---

(١) انظر تراجم القادة الذين جاء ذكرهم فى هذه الجداول وكذلك تراجم القبائل فى كتابنا الثامن (فتح مكة) ص ١٥٥ وما بعدها .

(٢) أنظر مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٩٥ وما بعدها .

(٣) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٩٧ .

وجعل الخيل فى مقدمة الجيش ، أسلوب يتبعه النبى ﷺ دائماً فى حروبه عندما تكون لديه فى الجيش خيل متوفرة ، لأن الخيل فى ذلك العصر أقوى سلاح فى أى جيش على الإطلاق ، وهو بمثابة سلاح المدرعات فى هذا العصر .

كيف عبأ قائد هوازن قواته فى حنين

أما قائد هوازن وملكها فقد كان شاباً فى عنفوان شبابه ، وهو مالك بن عوف النصرى الذى كان يقود عشرين ألفاً من هوازن يقابلهم (فقط) فى الجانب الإسلامى إثنا عشر ألف مقاتل .

كان مالك رغم صغر سنه (وكما دل أسلوبه فى تعبئة جيشه) محارباً ممتازاً من الدرجة الأولى ، وكان خبيراً عسكرياً ومحنكاً فى رسم الخطط للمعارك ووضع الكمائن ، بالإضافة إلى الشجاعة المتناهية التى بلغت حد التهور .. وكان مع كل هذا يتمتع بسلطات مطلقة على جميع عشائر هوازن ، لأنه كان بمنزلة الملك بينهم توّجوه واعترفوا بسلطانه المطلق .

لقد كانت خطة مالك بن عوف التى رسمها للمعركة خطة محكمة دقيقة أكسبته الجولة الأولى فى أول الصدام ، حيث أنزل بالمسلمين هزيمة منكرة ، مزقت كتائبهم ، وجعلت بعضهم يدوس بعضاً وهم يفرّون من الشعاب عند طلوع الفجر فى اتجاه مكة لا يلوون على شىء ، وكادت تكون النهاية المفجعة للجيش الإسلامى ، لولا أن ثبت الله الرسول القائد ﷺ ونفراً قليلاً من خلصاء أصحابه ، استبسلوا وثبتوا حول نبيهم وأهابوا بالمنهزمين أن يعودوا إلى ساحة الوغى ، فعادوا وجالدوا المشركين أعنف مجالدة وقاتلوهم أشرس قتال بقيادة نبيهم ﷺ حتى دارت الدائرة على الكفار ونزلت بهم الهزيمة الساحقة . وكتب الله النصر المؤزر للمسلمين .

أما أسلوب القائد مالك بن عوف فى تنظيم جيشه وتعبئته وإعداده للمعركة فقد كان كما يلى :

١ ــ رفع الروح المعنوية بين جنده

فقد وقف مالك خطيباً فى هوازن مشيداً بهم ولافتاً نظرهم إلى أن يثقوا

بأنفسهم لأنهم أكثر عدداً من المسلمين ، وأقدر (بزعمه) على الصبر والثبات منهم .

فمما قاله فى خطابه لهوازن : إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيُنصر عليهم .

٢ ـ حشد نساء هوازن وأطفالها وأموالها خلف الجيش

فقد أصدر مالك أوامره إلى جند هوازن بأن يجعلوا نساءهم وأطفالهم ومواشيهم وراء الصفوف قريبا من ميدان المعركة .

وهدف القائد مالك من هذا التصرف ، أن يستبسل المحارب الهوازنى فى القتال ، لأنه من الصعب على المحارب أن يفكر فى الفرار ، فينجو بنفسه ويترك نساءه وولده وماله ليقعوا أسرى فى أيدى أعدائه .

فكان مالك بذلك يقصد أن يدخل فى نفوس المحاربين من جنده عنصراً جديداً من عناصر الثبات والصمود .

وكان دريد بن الصمة الجُشمى المحارب الشهير والشاعر المشهور ، قد انتقد خطة القائد مالك هذه أثناء التحرك إلى حنين أشد الانتقاد ، واعتبرها نوعاً من المغامرة ، بل ضرباً من الانتحار ، ونصح مالكاً بأن يعيد النظر فى خطته هذه بأن يعيد النساء والأطفال والمواشى إلى رؤوس الجبال ويلقى المسلمين على متون الخيل . ولكن مالكاً أصرَّ فنفَّذَ خطته وصحب معه النساء والأطفال والمواشى حتي انتهت المعركة حيث وقعوا جميعاً فى قبضة الجيش الإسلامى .

٣ ـ جرد السيوف وكسر الجفون

وكانت العرب ترى أن كسر جفون السيوف أبلغ فى توطين النفس على الموت ، وهو يعنى عندهم عدم التراجع بل القتال حتى النصر أو الموت ، وذلك هو الذى قصد إليه القائد مالك بن عوف حين خاطب جنود هوازن وهو ينظمهم : (واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسور الجفن) .

٤ ـــ وضع الكمائن

كان وادى حنين (كما وصفه المؤرخون) وادياً أجوف ذا منافذ مختلفة وشعاب عدة ، وكان مالك لديه كل المعلومات الجغرافية عن هذا الوادى ، ولهذا قرر أن يتبع خطة الكمائن لتكون ضربات هذه الكمائن أول ما يلاقيه المسلمون فى الحرب .

وفى الحروب القديمة ، بل وفى كل الحروب ، ليس أضر على الجيوش من تعرضها لضربات الكمائن المفاجئة .

كان مالك بن عوف هو السابق إلى وادى حنين فاختار المكان المناسب لضخامة جيشه فعسكر فيه . وفى الليلة التى كانت صبيحتها معركة حنين ، انتخب مالك بن عوف عدة مفارز من رجال هوازن الأشداء وذهب بهم فى ظلام الليل إلى الشعاب والمضائق التى سيمر أمامها جيش النبى ﷺ ، وهناك وزَّع مالك رجاله إلى عدة فصائل ، نظمها على شكل كمائن ، وبعد أن رتب هذه الكمائن ونظمها فى ظلام الليل (زيادة فى الكتمان) أصدر إلى قادتها الأوامر المشددة بأن يهاجموا المسلمين فى عماية الصبح وقبل أن ينشر الفجر ضوءَه ليدخلوا بذلك الفوضى على صفوفهم ويبثوا الذعر فى نفوسهم ويشتتوا شملهم ولايتركوا لهم فرصة يعيدون فيها تنظيمهم .

وهذا ما حدث بالفعل ، فكانت خطة الكمائن أنجع الخطط التى اتبعها مالك بن عوف فى حربه ضد المسلمين ، حيث نزلت بهم على أيدى الكمائن هزيمة منكرة كادت تكون ساحقة مدمرة لولا أن ثبَّت الله رسوله فثبت مكانه مع قلة من خلصاء أصحابه كان ثباتهم جميعاً سبباً فى إعادة تنظيم المنهزمين وعودتهم إلى قلب المعركة بعد أن فروا منها كما سنرى فيما يلى من هذا البحث إن شاء الله .

٥ ـــ البدء بالهجوم واتباع خطة المباغتة

كذلك كان ضمن خطة مالك بن عوف التى رسمها لمعركة حنين : البدء بالهجوم أى أن تكون هوازن آخذة بزمام المبادرة فتهاجم المسلمين قبل أن يهاجموها ، لأن النصر يكون (غالباً) كما صرح مالك بن عوف لمن يكون بادئاً بالهجوم .

ولذلك قال القائد مالك لهوازن (وهو يضع لهم الخطة) : ثم تكون الحملة منكم ، واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً .

وقد نفذت هوازن جميع الخطط التى وضعها للمعركة القائد العام مالك بن عوف وقد أتت هذه الخطط المحكمة ثمارها اليانعة فى المرحلة الأولى من المعركة فانكسر المسلمون حتى وصلت طلائع المنهزمين منهم ضواحى مكة . وقال الذين أسلموا ولمَّا يدخل الإيمان فى قلوبهم من عناصر الجيش الإسلامى : إنها هزيمة لن تنتهى حتى البحر .. غير أن ثبات الرسول ﷺ وقلة من خلصاء أصحابه من المهاجرين والأنصار ساعة الهزيمة أضاع على هوازن ثمرة انتصارها حيث تحوَّل هذا الانتصار إلى هزيمة ساحقة بفضل الله تعالى ثم بفضل ثبات الرسول ﷺ والقلة من صفوة أصحابه ، هذا الثبات الذى لمَّا علمه المنهزمون المسلمون خجلوا من أنفسهم وكرّوا راجعين وقاتلوا هوازن أشد ما يكون القتال حتى هزموهم شر هزيمة .

التخويف والإرهاب بالتضليل

كذلك كان من خطط مالك بن عوف وأسلوبه فى الاستعداد للصدام التخويف باتباع الحرب النفسية بإدخال الرهبة فى نفوس المسلمين من قواته . وذلك بجعل جيشه يظهر أكبر من حجمه الطبيعى بكثير . بحيث خُيِّل لمن يراه من المسلمين على بعد وكأنه مائة ألف مقاتل . وهذا المظهر ولا شك يكون ذا أثر فى النفوس . فقد عمد الداهية مالك بن عوف (بالإضافة إلى جيشه الحقيقى) عمد إلى عشرات الألوف من الجمال التى جلبها معه وجعلها وراء جيشه الحقيقى كالجيش الاحتياطى صفوفاً ، ثم أركب عليها النساء ، فبدا سواد جيشه وكأنه مائة ألف مقاتل .

وفعلاً ظن المسلمون أن الجمال التى تحمل النساء ، تحمل رجالاً محاربين . لاسيما وأن الجمال تأتى فى ذلك العصر (بعد الخيل) من أهم الأسلحة فى الحرب حيث كان العرب يحاربون وهم عليها كما يحاربون وهم على الخيل .

صحابى يصف ضخامة جيش هوازن

ولنترك أحد كبار الصحابة الكرام ممن اشتركوا فى معركة حنين .. يصف

لنا هذه الخدعة الحربية التى لجأ إليها القائد الملك مالك بن عوف النصرى .

وهذا الصحابى الجليل هو أنس بن مالك ، فقد قال : لما انتهينا إلى وادى حنين وهو واد من أودية تهامة ، له مضائق وشعاب ، فاستقبلنا من هوازن شىء لا و الله ما رأيت مثله فى ذلك الزمان قط من السواد والكثرة ، قد ساقوا نساءهم وأموالهم وأبناءهم وذراريهم ، ثم صُفوا صفوفاً فجعلوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال ، ثم جاءوا بالإبل والبقر والغنم فجعلوها وراء ذلك لئلا يفرّوا (بزعمهم) . فلما رأينا ذلك السواد حسبناه رجالاً كلهم ، فلما تحدرنا فى الوادى ، فبينا نحن فى غلس الصبح ، إن شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادى وشعبه فحملوا حملة واحدة ، فانكشف أول الخيل — خيل سليم — موليّة فولوا ، وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين .

من هذا الوصف الذى رواه الصحابى أنس بن مالك عن خطة التضليل والإيهام التى اتبعها ورسمها أثناء تعبئته قائد هوازن الذى لم يتجاوز الثلاثين من عمره .. من هذا الوصف يتضح أى خصم عنيد شجاع محنك ومدرب ، واجهه المسلمون فى موقعة حنين الحاسمة ، التى بمهارته وحسن تعبئته لجيشه ، كسبها مالك بن عوف فى الجولة الأولى وكاد يركب أكتاف المسلمين ويحتل مكة لولا أن أمدَّ الله رسوله وقلة من صفوة أصحابه فَقَلَبُوا (بثباتهم بعد عون الله) ميزان القوى لصالح الإسلام فرفعوا رصيد الجيش الإسلامى (الذى عاد إلى الميدان) من الصفر إلى أعلى درجات النصر .

الفصل الرابع

- نشوب المعركة عند الفجر .
- البداية السيئة للمسلمين فى القتال .
- هجوم كمائن هوازن المفاجئ الصاعق على المسلمين .
- هزيمة المسلمين المروِّعة فى بداية المعركة .
- ثبات الرسول ومائة فقط من أصحابه عند الهزيمة .
- المحاولة الثانية لاغتيال الرسول أثناء الهزيمة .
- الرسول يناشد المسلمين الثبات والعودة إلى الميدان .
- استجابة المنهزمين للرسول بعودتهم إلى الميدان .
- احتدام المعركة وعنفها الشديد .
- دور المرأة المسلمة فى معركة حنين .
- هزيمة هوازن الساحقة .
- فرار القائد العام لهوازن بعد استبساله .

نشوب المعركة وهزيمة المسلمين

وهكذا وبعد أن أكمل الفريقان المسلمون والمشركون فى حنين تعبئتهما دنت ساعة الصفر واستعد الفريقان للمعركة الحاسمة .

كانت تعبئة المسلمين للجيش عند السحر قريباً من الفجر ، وكان انحدارهم إلى وادى حنين عند غلس الفجر ، حيث يغلب الظلام على الضياء .

وتلك كانت فرصة ذهبية للكمائن الكثيرة التى وضعها قائد هوازن فى الشعاب والمضائق ، فقد كان جل اعتماد القائد ابن عوف لكسب المعركة على نجاح الكمائن الكثيرة الخطيرة التى وضعها بدقة وإحكام أثناء الليل ودون علم استخبارات الجيش النبوى فى مضايق الشعاب التى سيمر من أمامها الجيش النبوى قاصداً السهل الفسيح الذى تعسكر فيه هوازن بنسائها وأطفالها وأموالها من وراء جيشها .

وكان المسلمون يظنون (لعدم علمهم بكمائن هوازن) أن الصدمة الأولى فى المعركة ستكون فى سهل حنين حيث يعسكر سواد الجيش الهوازنى بأثقاله وأمواله ونسائه وأطفاله . ولم يُدخِلوا فى حسابهم أمر الكمائن التى وضعها لهم عند مداخل وادى حنين قائد هوازن ، وإلا لاستعدوا لها ولم يمكنوها من تحقيق شىء من أهدافها . ولكن أمر الله كان مقضياً ، فقد كتب أن تنجح كمائن المشركين وتنزل الهزيمة بالمسلمين (الذين أعجبتهم كثرتهم) عند الصدمة الأولى وقبل أن يُكملوا انحدارهم إلى الوادى ويصلوا إلى السهل الذى دارت فيه (فيما بعد) المعركة الحاسمة بعد تراجع المسلمين من هزيمتهم .

كمائن المشركين تهزم المسلمين

لاشك أن الكمائن هى من أخطر الأخطار التى تتعرض لها الجيوش النظامية فى القديم والحديث ، وكم كانت الكمائن سبباً فى إلحاق الهزائم المدمرة بالجيوش التى تفوق الكمائن عدداً وعدة .

وهذا ما فطن له القائد المحنك مالك بن عوف النصرى فأحكم تركيب الكمائن للمسلمين فى الشعاب ومضائق التلال ووراء الهضاب فى حنين ، فأنزل الهزيمة بالجيش النبوى عند الصدمة الأولى فولىَّ الجيش هارباً دون أن يشرع أحد منه رمحاً أو يجرد سيفاً .

لا شك أن رجال الكمائن الذين وضعهم مالك بن عوف فى أماكنهم بطريق الجيش النبوى هم أقل بكثير من عدد جيش الإسلام ، ولكن المباغتة لها (دائما فى الحروب) تأثيرها الصاعق الذى يشل فعالية الجيوش ويربكها مما يجعل الهزيمة تحيق بها مهما كانت كثرتها ومهما كان تنظيمها وحسن تسليحها . وهذا هو الذى فعلته كمائن هوازن (وهم مفارز صغيرة) بالجيش الإسلامى الكبير الذى يبلغ اثنى عشر ألف مقاتل يتقدمهم ألف فارس يقودهم فارس من أمهر فرسان العرب وهو خالد بن الوليد .

وما كان خالد قائد المقدمة من الرجال الذين ينخذلون لكمائن أو غيرها ، ولكن يظهر أنه فقد السيطرة على فرسانه الذين أكثرهم من أهل البادية الذين هم حديثو عهد بالحرب النظامية التى اتبعها كل من الرسول ﷺ وخصمه مالك بن عوف ، فأفقدهم الثبات هجمات الكمائن المباغتة التى شُنَّت عليهم بأسلوب صاعق فانكفأوا هاربين نحو مكة وهم ألف فارس فجرفوا من ورائهم بقية الجيش بعد أن أدخلوا بفرارهم الرعب فى النفوس ، فانفرط عقد الجيش النبوى وصار كل جندى فيه همه النجاة بنفسه فى تلك اللحظات العصيبة التى نجحت فيها كمائن هوازن كل النجاح .

أسباب نجاح كمائن هوازن

ويمكن تلخيص أسباب نجاح كمائن مالك بن عوف عند الصدمة الأولى فى

أمور ثلاثة :

أولاً : عدم علم قيادة الجيش الإسلامى بهذه الكمائن وأماكنها ولو علمت بها لأبطلت فعاليتها .

ثانياً : قيام الكمائن بهجومها على المسلمين والظلام لا يزال سائداً مع بزوغ الفجر حيث تعرض المسلمون لقصف شديد بالسهام ، وللهجوم الصاعق بمختلف الأسلحة من كل ناحية فلم يتبينوا من أين يأتيهم الهجوم ، فنفرت خيلهم من السهام ، ولا شىء يؤذى الخيل ويفزعها مثل السهام ، فانسحب أصحابها إلى الخلف وكانوا فى المقدمة وهم ألف فارس ، فتحول انسحابهم إلى هزيمة كبرى .

ثالثاً : كانت مواقع الكمائن تشرف على منحدرات وعرة وضيقة وكثيرة التعاريج ، غير صالحة لجولان الخيل التى كانت فى مقدمة الجيش والتى كان تراجعها سبباً فى إنزال الهزيمة بالجيش النبوى عند فجر يوم الثالث عشر من شوال عام ٨ للهجرة .

كيف انهزم المسلمون بفعل الكمائن

يدل سياق المؤرخين على أن قائد هوازن مالك بن عوف قد كان دقيقاً فى توقعاته وتوقيته للهجوم الذى قرر أن تكون كمائنه هى البادئة به ، وبحيث يكون هذا الهجوم أول هجوم تشنه قواته على الجيش النبوى .

فقد افترض هذا القائد وأدخل فى حسابه (وهو يضع الخطة للمعركة) افترض ـــ وضمن حسابات ومعادلات دقيقة ـــ.. افترض وقدَّر (وكان افتراضه وتقديره فى محلهما) أن الجيش النبوى سيمر بالأماكن التى وضع فيها الكمائن ، عند عماية الصبح وقبل أن يغمر ضوء الصباح الأرض بنوره ، فيستفيد مالك من الظلام وهو يشن بكمائنه الهجوم المباغت الصاعق على الجيش الإسلامى ، وقد يكون توقعه وافتراضه هذان بناهما على معلومات نقلها إليه جواسيسه عن سير تحركات الجيش النبوى .

المهم أن الأمور جاءت كما توقع القائد مالك . فعند بزوغ الفجر وقبل أن ينسخ ضياء الصبح ظلام الليل ، وجدت مقدمة الجيش الإسلامى نفسها (وكلها الخيل) بين كمائن هوازن ، فانقضت هذه الكمائن على مقدمة

المسلمين انقضاضة رجل واحد وقصفتها بسيل من السهام وهاجمتها بمختلف الأسلحة من مختلف الجهات ، ولم تكن كمائن هوازن من المشاة فقط ، بل إن هناك كمائن من الخيل أيضاً اشتركت وقت عماية الصبح فى مهاجمة المسلمين حيث كانت هذه الكمائن الهوازنية ترابط فى فجاج الشعاب والوديان الصغيرة الرافدة إلى حنين .

وعندما تعرضت مقدمة الجيش النبوى لذلك الهجوم المفاجئ الصاعق من الكمائن انهزمت كلها واتجهت هاربة نحو مكة دون أن تشهر سيفاً أو تشرع رمحاً أو تطلق سهماً .

وأحدث تراجع مقدمة جيش الإسلام وفرارها الفوضى الشاملة والارتباك الكامل داخل صفوف الجيش النبوى الذى فقد تنظيمه تماماً وصارت خيل المسلمين المنهزمة تحطم مَن أمامها وتدوسه من جند المسلمين ، وظن الكثير أنها الهزيمة التى لن تقوم للمسلمين بعدها قائمة ، وأخذت كتائب الجيش النبوى تتدفق وكأنها السيل الجارف — لا إلى المعركة للقتال — وإنما فراراً نحو مكة . وشرعت قوات هوازن فى مطاردة المسلمين الذين لم يباشروا أى قتال بعد لأنهم فروا فور تعرضهم لهجوم الكمائن الصاعق .

كان موقفاً عصيباً وامتحاناً شديداً لم تتعرض القيادة الإسلامية العليا لمثله فى تاريخ حروبها ضد الوثنية وحتى فى يوم أُحد . لأن المسلمين انهزموا ذلك اليوم بعد أن سجلوا نصراً رائعاً على المشركين فى المرحلة الأولى من المعركة .

أما فى يوم حنين فإن جيوش الإسلام تمزقت وولت الآلاف المؤلفة من المشاة والفرسان هاربة لا تلوى على شيء ، ولو استمر الوضع على ما كان عليه عند الصدمة الأولى لأبيد أكثر الجيش الإسلامى ولسقطت مكة نفسها فى أيدى المشركين من هوازن الذين يبلغ تعداد قواتهم عشرين ألفاً كانوا قادرين على اجتياح مكة فى أقل من ساعتين ، ولكن الله غالب على أمره فقد كان ثبات النبى ﷺ ومائة (فقط) من خلصاء أصحابه عاملاً حاسماً فى تغيير مجرى تلك الأحداث الخطيرة لصالح الإسلام .

المرجفون فى جيش الإسلام

كان فى الجيش النبوى ألفان من أهل مكة ، الكثير منهم أسلموا ولمَّا يدخل الإيمان فى قلوبهم ، وكان خروجهم مع الجيش النبوى لا للقتال فى جانب الإسلام ضد الوثنية ، وإنما للحصول على حصتهم فى الغنيمة عندما يتم النصر للمسلمين .

هذه العناصر من أهل مكة لما رأت انهزام المسلمين ورأت فرسان هوازن الوثنية تطاردهم ، ظهر ما كانت تبطن هذه وتفوهت بكلام يدل على فرحتها بهزيمة الجيش النبوى وتشفيها منه ..

فقد قال ابن إسحاق : ولما انهزم الناس تكلم رجال من جفاة الأعراب بما فى أنفسهم من الضِّغن ، فقال أبو سفيان بن حرب (وهو حديث عهد بالإسلام لم يمر على إسلامه أكثر من عشرين يوماً) : لا تنتهى هزيمتهم حتى البحر[1] .

وصرخ كلدة بن الحنبل (وهو مع أخيه لأمه صفوان بن أمية وصفوان مشرك فى المدة التى جعل له رسول الله ﷺ وكان ضمن الجيش النبوى) ألا بطل السحر اليوم . فقال له صفوان بن أمية : اسكت فض الله فاك ، فو الله لئن يَربُّنى[2] رجل من قريش أحب إلى من أن يربُّنى رجل من هوازن[3] .

وفى مغازى الواقدى أن كلدة بن حنبل قال لصفوان بن أمية — ساعة انحدار المسلمين —: أبشر أبا وهب ، هُزم محمد وأصحابه . فقال له صفوان (زاجراً) : إن رباً من قريش أحب إلىَّ من ربّ من هوازن إن كنت مربوباً .. قال هذا الكلام صفوان وهو لا يزال مشركاً . وقد أسلم وحسن إسلامه وكان عاقلاً شديد الإنصاف ، وقد استشهد فى حروب الجهاد فى الشام .

محاولة اغتيال الرسول ﷺ ساعة الهزيمة

وفى تلك اللحظات من ساعات المصير التى شرع المسلمون فيها فى

(١) مما لا جدال ولا خلاف فيه بين أهل الحديث والسير أن أبا سفيان ممن حسن إسلامه وهو عدل صحابى ثقة عند جميع أئمة الحديث .

(٢) يربنى : معناه يحكمنى ، حيث أن العرب تُطلق على الحاكم أحياناً اسم الرب .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٢٧ .

الانكسار والتراجع ، تعرَّض الرسول ﷺ ـ وهو يواجه ذلك الموقف الصعب ـ لمحاولة اغتيال شريرة ، فقد اغتنم أحد الموتورين من قريش فرصة انكشاف المسلمين فقرر اغتيال الرسول ﷺ انتقاماً لمقتل أبيه يوم أحد على أيدى المسلمين ، وكان أبوه حامل لواء المشركين يوم أحد .

وهذا الرجل الذى أضمر اغتيال الرسول ﷺ هو شيبة بن عثمان بن أبى طلحة العبدرى حامل مفتاح الكعبة وكان ضمن من أسلم يوم الفتح ولمَّا يدخل الإيمان فى قلبه . ولكن الله تعالى منع رسوله ﷺ من تلك المؤامرة الشريرة وحماه منها .

فقد تحدث المخطِّط لهذه المؤامرة نفسه بعد أن حسن إسلامه فقال : قلت : اليوم أدرك ثأر أبى . اليوم أقتل محمداً . قال : فأردت رسول الله ﷺ لأقتله ، فأقبل شيء حتى تغشَّى فؤادى فلم أطق ذلك وعلمت أنه قد مُنع منى[1] .

حديث المؤرخين عن الهزيمة

أما هزيمة المسلمين عند الصدمة الأولى وقت الفجر فقد أجمع المؤرخون وأصحاب الحديث على أنها كانت هزيمة مخيفة لم يثبت عندها أحد من المسلمين إلا الرسول ﷺ ومائة فقط من هيئة أركان حربه وهم خلصاء أصحابه وكلهم من سادات المهاجرين والأنصار . وكان وصف المؤرخين والحديث للهزيمة مقتضباً ليس فيه كثير تفصيل . ونحن نذكر هنا ما جاء فيما بين أيدينا من أمهات التاريخ من وصف لهذه الهزيمة :

قال ابن إسحاق : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال :

لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد من أودية تهامة أجوف خَطوط[2] ، إنما ننحدر فيه انحداراً . قال : وفى عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى ، فكمنوا لنا فى شعابه وأحنائه ومضائقه ، وقد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٧٥ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٧ .

(٢) خطوط : بفتح الخاء : منحدر

فو الله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدّوا علينا شدة رجل واحد .. وانشمر[١] الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال : أين الناس ؟ هلموا إليّ ، أنا رسول الله . قال : فلا شيء ، حملت الإبل بعضها على بعض ، فانطلق الناس إلا أنه بقى مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

وعن يونس بن بكر ، قال : فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسولَ الله ﷺ إليها فأعدوا وتهيأوا فى مضايق الوادى وأحنائه . وأقبل رسول الله ﷺ حتى انحط بهم الوادى فى عماية الصبح ، فلما انحط الناس ثارت فى وجوههم الخيل فشدّت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول : (أين الناس ؟ هلموا إليّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله) . قال : فلا شيء . وركبت الإبل بعضها بعضاً[٢] .

وقال ابن حزم يصف الهزيمة : ثم نهض (أى رسول الله ﷺ ، فلما أتى وادى حنين وهو واد حَدور[٣] من أودية تهامة ، وهوازن قد كمنت جنبتى الوادي ، وذلك فى عماية الصبح[٤] فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولى المنهزمون لا يلوى أحد على أحد ، فناداهم رسول الله ﷺ فلم يرجعوا[٥] .

وقال الطبرى فى تاريخه ـــ بعد سرد أسانيده عن جابر بن عبد الله عن أبيه ـــ: لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد من أودية تهامة أجوف حطوط ، إنما ننحدر فيه انحداراً ، قال : وفى عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقوا إلى الوادى ، فكمنوا لنا فى شعابه وأحنائه ومضائقه ، قد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا ـــ، فو الله ما راعنا ـــ ونحن منحطون ـــ إلا الكتائب قد شدَّت علينا

---

(١) انشمروا : انهزموا

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٢٦

(٣) الحدور : المكان الذى ينحدر منه .

(٤) عماية الصبح : ظلامه قبل أن يتبين .

(٥) جوامع السيرة ص ٢٣٩

شدة رجل واحد ، وانهزم الناس فانشمروا لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ذات اليمين ، ثم قال : أين الناس ؟ هلمّ إليَّ أنا محمد بن عُبد الله ، فلا شيء احتملت الإبل بعضها بعضاً ، فانطلق الناس[1] .

وقال محمد بن سعد فى طبقاته : وانحدر رسول الله ﷺ فى وادى الحنين على بغلته البيضاء دلدل ، ولبس درعين والمغفر والبيضة ، فاستقبلهم من هوازن شيء لم يروا مثله قط من السواد والكثرة ، وذلك فى غبش الصبح ، وخرجت الكتائب من مضيق الوادى وشعبه فحملوا حملة واحدة ، وانكشفت الخيل خيل بنى سليم مولية وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : يا أنصار الله وأنصار رسوله أنا عبد الله ورسوله[2] .

وقال محمود شيت خطاب (وهو من المؤرخين العسكريين الإسلاميين المعاصرين) : دخلت قوات المسلمين وادى حنين فجراً ، وكان وادياً أجوف منحدراً ينحط فيه الركبان كلما أوغلوا ، كأنهم يسيرون إلى هاوية ، فلما استقرت أكثر قوات المسلمين فى الوادى ، رماهم المشركون بوابل من سهامهم ، فلم يعرف المسلمون مصدر ذلك الرمى ، لأن الظلام كان سائداً وقتذاك ، ولأن مواضع المشركين كانت مخفية تماماً ، فانسحبت مقدمة المسلمين وجرفت أمامها المسلمين[3] الأخر ، فانقلب انسحاب المسلمين إلى هزيمة . ورأى أبو سفيان هزيمة المسلمين فقال : (لا تنتهى هزيمتهم دون البحر) . وقال آخرون ممن أسلموا حديثاً مثل قوله ، بل إن عثمان بن طلحة الذى قتل أبوه فى غزوة أحد حاول اغتيال الرسول ﷺ فى هذا الموقف العصيب ليدرك ثأر أبيه من محمد ، وترك المشركون مواضعهم للقيام بالمطاردة بعد انسحاب المسلمين ، وكان يتقدم هوازن رجل على جمل أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل ، وهو كلما أدرك المسلمين طعن برمحه ، وهوازن وثقيف منحدرون وراءه يطعنون . وانتشر الفزع بين المسلمين وازدحمت المسالك بالسابلة ، وارتبكت الصفوف واختلطت القبائل ببعضها ، وركبت الإبل بعضها بعضاً وهى مولية

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٧٤

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٠

(٣) كانت مقدمة المسلمين ألف فارس ، وللخبير العسكرى أن يتصور كيف تصنع ألف حصان وهى فارة بمن أمامها من المشاة وراكبى الجمال .

بأصحابها وتعقدت الأمور[1] .

وقال ابن الأثير : واستعمل رسول الله ﷺ على مَن بمكة عتّاب بن أسيد[2] . قال جابر : فلما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد أجوف حَطوط إنما ننحدر فيه انحداراً فى عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى فكمنوا لنا فى شعابه ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا ، فو الله ما راعنا ونحن منحطُّون إلا الكتائب قد شدَّت علينا شدة رجل واحد ، فانهزم الناس أجمعون لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ، ثم قال : أيها الناس هلموا إلىَّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله ، قالها ثلاثاً ، ثم احتملت الإبل بعضها بعضاً[3] .

الكمائن بمشورة دريد بن الصمة

ويذكر ابن برهان الدين أن الكمائن التى نصبها الشاب القائد مالك بن عوف كانت بإشارة من المجرّب المعمّر دريد بن الصمة فقد قال : فلما كان النبى ﷺ بحنين وانحدروا فى الوادى عند غبش الصبح خرج عليهم القوم وكانوا قد كمنوا لهم فى شعاب الوادى ومضايقه ، وذلك بإشارة دريد بن الصمة ، فإنه قال لمالك : اجعل لك كميناً يكون لك عوناً ، إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم وكررت أنت بمن معك ، وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد ، فحملوا عليهم حملة رجل واحد ، فاستقبلوهم بالنبل كأنهم جراد منتشر ، لا يكاد يسقط لهم سهم[4] .

ثبات الرسول القائد ساعة الهزيمة

هكذا كانت هزيمة المسلمين عند الصدمة الأولى فى حنين ، هزيمة منكرة ، ركب المسلمون فيها بعضهم بعضاً وهم يفرّون من ساحة القتال لا يلوون على شىء ، وقد كانت هزيمة عامة شاملة شملت جميع قطاعات الجيش البالغ اثنى

---

(١) الرسول القائد ص ٢٤٩

(٢) انظر ترجمة عتاب بن أسيد فيما مضى من هذا الكتاب .

(٣) الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٧٨

(٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٣

عشر ألفاً .. والمنهزم — (كما قال دريد بن الصمة لمالك بن عوف) لا يرده شيء .

وللخبير الحربى أن يتصور اثنى عشر ألف مقاتل بينهم أكثر من ألفين وأربعمائة فارس وعدة آلاف من الجمال ينطلقون من الميدان راجعين فارين على غير تعبئة ولا نظام ، إنها الفوضى المخيفة المريعة ، الناس يدوس بعضهم بعضاً وهم قوة هائلة انفرط عقدها وضاع نظامها ، قوة هائلة منهزمة ، خيلها وجمالها ومشاتها انهزمت جميعها ما عدا الرسول القائد ﷺ وقلة من أصحابه لا يزيدون على المائة فى أكبر تقدير . وهذه القوات المنهزمة من ورائها عشرون ألفاً من هوازن يطاردونها بأقصى قوة .

الرسول يحاول إيقاف المنهزمين

وقد حاول الرسول القائد ﷺ إيقاف المنهزمين ، وهو ثابت فى الميدان ، فناداهم بأن يثبتوا ويلتفوا حوله فلم يلتفت إليه أحد ولم يجبه أحد ، بل يمكن أنه لم يسمع صوته أحد فى تلك الساعات الرهيبة التى اختلط فيها الحابل بالنابل ، حيث أصبح همّ كل واحد من الجند النجاة بنفسه ، ولا يستبعد أن أكثر المنهزمين قد ظنوا أن الرسول ﷺ قد قُتل أو انهزم ، بدليل أنهم لما أفاقوا من صدمة الهزيمة وسمعوا صوت العباس بن عبد المطلب يُشعرهم بأن الرسول ﷺ حى ثابت مكانه يناشدهم الرجوع إلى ميدان الشرف تنادوا وأخبر بعضهم بعضاً ورجعوا إلى الميدان من جديد .

أما الرسول القائد ﷺ فقد ثبت عند الهزيمة ، وجرد سيفه ورمى غمده وأخذ حربته ليواجه الأعداء ثابتاً وحوله تلك القلة القليلة من صفوة أصحابه . وقد قاتل الرسول ﷺ المشركين فى تلك الساعات الحرجة ببسالة وشجاعة وثبات تليق بمقامه كنبى مرسل وقائد أعلى مسئول ، وواجه جموع هوازن الهائلة تسانده تلك القلة الصابرة من أصحابه وهم مائة فقط . بينما تبلغ جيوش هوازن المتدفقة فى الميدان عشرين ألفاً .

وليس يوم حنين هو اليوم العصيب الوحيد الذى يثبت فيه الرسول ﷺ عندما يفزع الناس أو يتعرضون لهزيمة . فقد كان الثبات عند الرّوع وتحرُّج

الأمور سجية أساسية وخلقاً مكيناً من أخلاق سيد القادات والشجعان محمد ﷺ .

ففى يوم أحد عندما انكشف المسلمون نتيجة غلطة الرماة واقتحام خيل خالد بن الوليد مؤخرة المسلمين ، ثبت الرسول ﷺ مكانه بمنتهى الشجاعة والثبات ، حتى أن ثباته فى تلك الساعة الحرجة ، كان العامل الرئيسى فى تراجع المسلمين عن الهزيمة وتكتلهم وإعادة تنظيم قواتهم من جديد وعلى نحو أعاد لهم هيبتهم وسيطرتهم على مكان المعركة رغم الخسائر الفادحة التى نزلت بهم والتى بلغت عشرة فى المائة من قواتهم يومئذ[١] .

وفى أيام الخندق عندما تحرجت الأمور ونقضت يهود قريظة العهد وتعرَّض المسلمون لأشد الأخطار حتى بلغت القلوب الحناجر ، كما جاء فى القرآن الكريم ، كان الرسول ﷺ يمثِّل أعلى مستويات الصبر والشجاعة والثبات ، فقد كان بشجاعته وإيمانه يشيع الطمأنينة فى النفوس القلقة التى بلغ بها الخوف من جيوش الأحزاب الهائلة حد الاختناق ، بل كان الرسول ﷺ يقوم بنفسه بأعمال الحراسة . وأين ؟ أمام أخطر النقاط التى يمكن أن تكون دون غيرها عرضة لاقتحام خيالة الأحزاب ، وذلك على مشارف الخندق فى ليال شاتية شديدة البرودة مع العواصف المزعجة ، وذلك فى وقت تحرَّجت فيه حالة المسلمين وتناقص عدد قواتهم من ألف مقاتل إلى ما لا يزيد على ثلثمائة بعد تسلل المنافقين وضعاف النفوس من صفوف الجيش النبوى خوفاً من قوة الأحزاب التى بلغت عشرة آلاف مقاتل[٢] .

وهكذا كان الرسول ﷺ (دائماً) ملاذ أصحابه ، وتصرفه فى ميادين الثبات والصبر عندما تشتد خطوب الحرب ــ عاملاً رئيسياً فى استبسالهم وتقوية روحهم المعنوية وسد المنافذ التى يمكن أن يتسرب منها إلى نفوسهم الخور والتخاذل ساعة الروع وساعة تقاطر البلايا والمحن الحربية عليهم .

الامتحان العظيم

حقاً لقد كانت الهزيمة للمسلمين (عند الصدمة الأولى) امتحاناً عظيماً

---

(١) انظر تفاصيل ثبات الرسول ﷺ يوم أحد فى كتابنا الثالث (غزوة أحد) .

(٢) أنظر تفاصيل محنة المسلمين الكبرى أيام الخندق فى كتابنا الثالث (غزوة الأحزاب) .

ما فى ذلك شك ، وقد صمد الرسول الأعظم ﷺ والقائد الأكبر لهذا الامتحان ، فثبت مكانه كقطب يمكن أصحابه المنهزمين من العودة ليكونوا حوله إذا ما علموا أنه حى باق فى موقعه ، وما كان لمن هو فى منزلة محمد بن عبد الله الهاشمى أن يفرَّ مهما كانت الظروف ومهما كانت النتائج والاحتمالات فى تلك الساعات الرهيبة التى لم تمر بجيش للإسلام يقوده النبى ﷺ تجربة مريرة مثل تلك التجربة .. إنه نبى مرسل واثق من نصر الله له ومن يثق بالله لا يمكِّن عدوه منه ، ثم إن محمد بن عبد الله سيد السادات وقائد القادات ، قائد أعلى لجيش هو مسئول عنه ، ولابد من أن يعالج الوضع الذى صار إليه الجيش الإسلامى (رغم هزيمته) لا يزال سليماً ولم تنزل به أية خسارة فى الأرواح تذكر .

إذن لابد من إعادته إلى الميدان ، إن الذين فوجئوا بهجوم هوازن المباغت الصاعق ليسوا من الجبناء ، إن من بينهم من رفعوا الرأس وجعلوا الإسلام يدخل التاريخ من أوسع أبوابه يوم بدر فصمدوا فى ذلك اليوم لقوات الشرك وانتصروا عليها وهى تفوقهم فى العدد ثلاثة أضعاف ، وتتفوق عليها فى العتاد والتموين وكل شىء مادى تفوقاً ساحقاً . أما فى حنين فقوات هوازن عشرون ألفاً والمسلمون اثنا عشر ألف ، إنه ليس هناك تفوق ساحق لهوازن على المسلمين فى العدد ، إذن فهزيمة المسلمين المفاجئة يوم حنين عند الصدمة الأولى لها أسباب ليس من بينها الجبن أو الخور ، إنه (على ما يفسر الخبراء العسكريون) عامل المفاجأة المذهل ، ووجود عناصر قبلية بدائية حديثة العهد بالإسلام لا تزال تتحكم فيها الفوضى ، كما أنه كانت هناك عناصر داخل الجيش الإسلامى أظهرت إسلامها ﴿ ولمَّا يدخل الإيمان فى قلوبها ﴾ ، هذه العناصر كان لها دور فى صنع الهزيمة بما تختزنه نفوسها من بقايا جاهلية جعلتها تتصرف تصرف من يقصد أن تكون الهزيمة للجيش النبوى ، ويكون النصر لجيش هوازن ، بدليل أن أول المنهزمين فى الجيش النبوى عند الصدمة الأولى هم من هذه العناصر كما أكد ذلك وكرّره كبار المؤرخين الذين كتبوا وقائع معركة حنين .

والخلاصة أن الهزيمة عند الصدمة الأولى كانت هزة وامتحاناً اضطربت فيه وحدات الجيش النبوى ثم انهزمت ، فثبت القائد الأعلى النبى ﷺ فكان ثباته

والمائة من أصحابه عاملاً أساسياً فى معالجة الوضع وتحسينه ثم تعديله وترجيح كفة الجيش الإسلامى المنهزم ، وجعله يتخذ موقف الهجوم الصاعق بعد أن كان فى موقف المنهزم الهارب ، وذلك بعد أن ثبت الله المؤمنين فعادوا إلى الميدان بعد أن علموا أن نبيهم وقائدهم الأعلى لايزال ثابتاً فى موقفه فى الميدان يضرب وجوه هوازن بالسيف ويطعن فى صدورهم بالرمح .

صيحة العباس تعيد المنهزمين

كان العباس بن عبد المطلب من القلة (المائة) الصابرة التى ثبتت مع الرسول ﷺ عندما انهزم المسلمون يوم حنين ، وحين رأى الرسول ﷺ الجيش الإسلامى منهزماً لا يلوى على شيء عمد إلى معالجة الوضع المتدهور (وكان على ثقة بأن أصحابه وخاصة الأنصار والمهاجرين) إذا علموا بمكانه وأنه ثابت يقاتل المشركين لم ينهزم سيعودون حتماً إلى ساحة الميدان وبعودتهم سيتغير ميزان القوى لصالح الإسلام والمسلمين وإن النصر سيكون حليف جيش التوحيد ، فالنبى ليس لديه أدنى ريب فى أن الله ناصره .

لذلك طلب من عمه العباس (وكان صيِّتاً يسمع صوته لعدة أميال) طلب منه أن يناشد الجيش العودة إلى ميدان الشرف والجهاد ، وكلفه بأن يصرخ باسم الأنصار وأصحاب شجرة الرضوان خاصة لأنهم العمود الفقرى للجيش فى كل معركة يخوضها المسلمون فى العهد النبوى (وعلى الخصوص الأنصار) الذين يكوّنون الأكثرية دائماً فى أى قتال يدور بين الإسلام وأعدائه .

فعل العباس ما أمره النبى ﷺ ونادى باسم الأنصار خاصة وباسم أصحاب السَّمُرة (الشجرة التى بايع المسلمون النبى ﷺ تحتها يوم الحديبية قبل فتح مكة) .

ولم يكد المسلمون المنهزمون يسمعون المناشدة النبوية ، عبر صوت العباس ابن عبد المطلب حتى أفاقوا من صدمة المفاجأة ، وخاصة بعد أن أيقنوا أن نبيهم ﷺ ثابت مكانه يقاتل المشركين ، فعادوا جميعاً إلى ميدان المعركة ، فتجمعوا حول النبى ﷺ وبسرعة هائلة ، فأخذ الوضع فى التحسن لصالح الجيش النبوى ، وصارت هوازن تتلقى ضربات المسلمين ، بعد أن كانت قد

ركبت أكتافهم وظن قادتها أن هزيمة المسلمين ساحقة وأن مكة أصبحت فى حكم المنتهى أمرها سقوطاً فى قبضة هوازن .

احتدا م القتال من جديد

وبعد استجابة الصحابة المنهزمين لنداء الرسول الحبيب ﷺ عبر صوت عمه العباس ، احتدم القتال بين المسلمين وهوازن كأعنف ما يكون ، فدارت المعركة رهيبة ، وتحوّل موقف هوازن فى لحظات من الهجوم إلى الدفاع ، وقاتل المسلمون المشركين بحنق وغيظ فصبروا صبراً عظيماً حتى كتب الله لهم النصر المؤزر ، وانهزمت هوازن هزيمة مدمرة لم يهزم مثلها أحد من العرب عبر التاريخ . تحطم كبرياء هوازن الذى هزها بسبب نصرها المفاجئ، المؤقت عند الصدمة الأولى، ونزل بها الذل والهوان ، والهزيمة التى ما كان أحد من قادتها يتصور أنها ستحدث . أو حتى سيتمكن المسلمون من عدم مواصلة الانهزام حتى مكة . أو حتى البحر ، كما قال أحد الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم .

كل ذلك حدث بفضل الله تعالى ثم بفضل ثبات النبى القائد بأبى وأمى هو صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، والذى كان ثباته مكانه ومهاجمته المشركين ساعة انهزام المسلمين (رغم أنه لم يثبت معه سوى مائة من أصحابه) سبباً فى رفع رصيد المسلمين بالمعركة فى حساب النصر من الصفر حتى أعلى رقم فى حسابات الفوز والغلبة .

فقد خجل المنهزمون المسلمون حين علموا أن نبيهم ثابت مكانه يصارع أمواج الجيش الهوازنى وهم يفرّون منهزمين ، خجلوا حين سمعوا المناشدة النبوية بدعوتهم إلى العودة إلى ساحة القتال حول نبيهم ، فرجعوا وانقضوا على العدو بحنق وغيظ) وكأنهم الرياح العاتية تكتسح كل شيء يعترضها ، حتى أن أحدهم (كى يكون أسبق العائدين إلى ميدان القتال) يرمى خطام جمله ثم يقفز من على ظهره حاملاً سيفه ورمحه وهو يجرى بأقصى سرعة إلى حيث يقف الرسول الأعظم ﷺ لمجالدة المشركين .

وكما كان المسلمون فى هزيمتهم عند الصدمة الأولى يدوس بعضهم بعضاً صاروا أشد من ذلك فى الازدحام حينما عادوا إلى ميدان الشرف ونفضوا غبار

الهزيمة عن وجوههم ، حتى كادت رماحهم تصيب رسول الله ﷺ من شدة الازدحام حوله لمقاتلة المشركين .

وصف الواقدى للمعركة

ولعله من المستحسن أن نستمع إلى إمام المغازى محمد بن عمر الواقدى ، وهو يصف لنا تلك الساعات الدقيقة الحرجة المحرجة المخجلة التى انهزم فيها المسلمون ، واللحظات الرائعة المشرفة التى عادوا فيها وغسلوا عار الهزيمة المفاجئة بدمائهم الشريفة الطاهرة ، فسجلوا أعظم نصر سجله الإسلام على الوثنية فى العهد النبوى .

قال الواقدى : قال أنس بن مالك : فلما تحدرنا فى الوادى وادى حنين ، فبينا نحن فى غلس الصبح ، إن شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادى وشعبه ، فحملوا حملة واحدة فانكشف أول الخيل — خيل سليم — مولية ، فولوا ، وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين ، ما يلوون على شىء ، قال أنس فسمعت رسول الله ﷺ — والتفت عن يمينه ويساره — والناس منهزمون وهو يقول : يا أنصار الله وأنصار رسوله ، أنا عبد الله ورسوله صابر . قال ثم تقدم ﷺ بحربته أمام الناس . وعن العباس ابن عبد المطلب : لما كان يوم حنين التقى المسلمون والمشركون ، فولّى المسلمون يومئذ ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، آخذ بثغر بغلة رسول الله ﷺ والنبى ﷺ لا يألو مسرعاً نحو المشركين .

قال العباس : كنت رجلاً صيِّتاً . فقال رسول الله ﷺ حين رأى من الناس ما رأى لا يلوون على شىء قال : يا عباس اصرخ : يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة ، فناديت : يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة ، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت إلى أولادها يقولون : يا لبيك يا لبيك ، فيذهب الرجل منهم فيُثنى بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقدمها فى عنقه ، ويأخذ ترسه وسيفه ، ثم يقتحم عن بعيره فيخلى سبيله فى الناس ، ويؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ حتى إذا ثاب إلينا الناس اجتمعوا ، فكانت الدعوة أولاً ، يا للأنصار ، ثم قصرت الدعوة فنادوا

يا للخزرج ، قال : وكانوا صُبُراً عند اللقاء صُدُقاً عند الحرب قال : فأشرف رسول الله ﷺ ــ كالمتطاول فى ركابه ــ فنظر إلى قتالهم فقال : الآنَ حمى الوطيس[1] ، ثم أخذ ﷺ بيده من الحصى فرماهم ، ثم قال : انهزموا ورب الكعبة ، قال أنس : فوالله ما زلت أرى أمرهم مدبر وحدّهم كليلاً حتى هزمهم الله ، وكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم بغلته . اهـ .

ووصف شاهد عيان (يوم حنين) عودة الأنصار المنهزمين إلى رسول الله ﷺ فقال : لقد عطف الأنصار نحو رسول الله ﷺ ، (وهم يقولون الكرّة بعد الفرّة) فعطفوا عطفة البقر على أولادها قد شرعوا الرماح حتى إنى لأخاف على رسول الله ﷺ من رماحهم أشد من خوفى رماح المشركين يؤمّون الصفوف ويقولون : يا لبيك يا لبيك فلما اختلطوا ، واجتلدوا[2] ورسول الله ﷺ قائم على بغلته فى ركابه يقول : اللهم إنى أسألك وعدك ، لا ينبغى لهم أن يظهروا . ثم قال للعباس ناولنى حصيّات من الأرض ، ثم قال : شاهت الوجوه ، ورمى بها المشركين وقال : انهزموا ورب الكعبة[3] . وقد أجاب الله تعالى دعاء رسوله ﷺ فانقلب ميزان القوى فى المعركة لصالح المسلمين حتى هزموا المشركين شر هزيمة .

الذين ثبتوا مع الرسول ساعة الهزيمة

وقال أنس يصف ثبات الرسول ﷺ وأصحابه النخبة : فسمعت رسول الله ﷺ والتفت عن يمينه ويساره والناس منهزمون ، وهو يقول يا أنصار الله وأنصار رسوله ، أنا عبد الله ورسوله صابر . قال ثم تقدم بحربته أمام الناس ، فو الذى بعثه بالحق ، ما ضربنا بسيف ولا طعنًا برمح حتى هزمهم الله ، ثم رجع النبى ﷺ إلى العسكر وأمر بقتل من قدر عليه منهم ، وجعلت هوازن تولى وثاب من انهزم من المسلمين .

---

(١) قال : الرسول ﷺ : الآن حمى الوطيس تعبيراً عن ضراوة القتال وحدته وهى من الكلم الذى لم يعبر به أحد من العرب قبل الرسول ﷺ ثم صار هذا التعبير الموجز يعبر به دائماً عن المعارك الدائرة العنيفة المحتدمة .

(٢) اجتلد أى ضرب بالسيف

(٣) الواقدى ج ٣ ص ٨٩٨ و ٨٩٩

وقد جاء فى كتب التاريخ ذكر أسماء رجال ثبتوا مع رسول الله ﷺ من بينهم أبو بكر وعمر ، والعباس بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب والفضل ابن العباس[1] وأبو سفيان بن الحارث ، وربيعة بن الحارث ، وأيمن بن عبيد الخزرجى[2] ، وأسامة بن زيد وحارثة بن النعمان[3] . فعن عاصم بن عمرو ابن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه . قال : لما انكشف الناس والله ما رجعت راجعة هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى عند النبى ﷺ مكتَّفين . قال . والتفت رسول الله ﷺ يومئذ إلى أبى سفيان بن الحارث وهو مقنع فى الحديد ، وكان ممن صبر يومئذ ، وهو آخذ بثغر بغلة النبى ﷺ قال : من هذا ؟ قال : ابن أمك يا رسول الله . ويقال إنه قال : من أنت قال : أخوك فداك أبى وأمى — أبو سفيان بن الحارث . فقال رسول الله ﷺ نعم أخى — ناولنى حصى من الأرض ، فناولته فرمى بها فى أعينهم كلهم وانهزموا"[4] .

وقال الواقدى : قالوا : فلما انكشف الناس انحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين وهو واقف على دابته لم ينزل إلا أنه قد جرد سيفه وطرح غمده . وبقى

---

(١) هو الفضل بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وهو ابن عم رسول الله ﷺ يكنى أبو عبد الله ، شهد مع النبى ﷺ فتح مكة ، وثبت معه يوم حنين ، كما شهد معه ﷺ حجة الوداع ، وكان رديفه ، وكان من أجمل الناس : كان من رواة الحديث عن رسول الله ﷺ ، شهد الفضل غسل رسول الله ﷺ ، وكان يصب الماء على على بن أبى طالب ، استشهد فى الشام يوم مرج الصفر ، وقيل بأجنادين ، وبعضهم يقول : أنه مات فى طاعون عمواس عام ١٨ هجرية .

(٢) أو أيمن بن عبيد بن عمر بن بلال من بنى غنم بن عوف بن الخزرج ، وهو ابن أم أيمن حاضنة الرسول ﷺ ، وهو أخو أسامة بن زيد لأمه ، روى عنه مجاهد وعطاء . قاله فى أسد الغابة ، استشهد أيمن يوم حنين . قاله ابن إسحاق .

(٣) هو حارثة بن النعمان بن نقع بن زيد ، خزرجى من بنى النجار . شهد بدراً وأحداً والخندق وكل المشاهد ، كان من فضلاء الصحابةوالموثوقين لدى رسول الله ﷺ ، ثبت يوم حنين مع الرسول ﷺ ، وهو الذى سلم عليه جبريل ، فقد روى أن النبى ﷺ ، لما جاءه جبريل يوماً ، مر عليه حارثة هذا ، فقال : حارثة : فسلمت على رسول الله ﷺ وجزت ، فلما رجعت وانصرف رسول الله ﷺ قال : هل رأيت الذى كان معى ؟ قلت : نعم ، قال جبريل وقد رد عليك السلام . قال ابن حجر فى الإصابة (نقلاً عن البخارى) إن حارثة قال لعثمان بن عفان : إن شئت قاتلنا دونك ، أدرك حارثة خلافة معاوية ومات فيها بعد أن ذهب بصره .

(٤) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٠٠

رسول الله ﷺ فى نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته (العباس وعلى والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث وأيمن بن عبيد الخزرجى وأسامة بن زيد ، وأبو بكر وعمر عليهم السلام[1] .)

شأن المائة الصابرة مع الرسول

وذكر بعض المؤرخين (بشأن المائة الصابرة مع الرسول ﷺ أنه ﷺ لما انكشف الناس وانهزموا ، عند الصدمة الأولى . قال لحارثة بن النعمان : كم ترى الذين ثبتوا ؟ فقال حارثة : فلما التفت ورائى تحرّجاً[2] فنظرت عن يمينى وشمالى فحزرتهم مائة ، فقلت : يا رسول الله هم مائة .. حتى كان يوم مررت على النبى ﷺ وهو يناجى جبريل عليه السلام عند باب المسجد ، فقال جبريل : من هذا يا محمد ؟ فقال ﷺ : حارثة بن النعمان . فقال جبريل : هذا أحد المائة الصابرة يوم حنين ، لو سلم لرددت عليه . فأخبره النبى ﷺ فقال حارثة : ما أظنه (يعنى جبريل) إلا دِحية الكَلْبى[3] واقف معك .

وعن معمر بن راشد عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن جبريل قال : إن الله تكفل لهم (أى الذين صبروا مع الرسول) بأرزاقهم وأرزاق عيالهم فى الجنة ، وكان العباس يقول : وكان أبو سفيان بن الحارث من الذين تكفل الله بأرزاقهم وأرزاق عيالهم فى الجنة[4] .

وفى ثبات النبى ﷺ ساعة الهزيمة روى عن البراء بن عازب (وكان من الذين ثبتوا)[5] أنه كان يقول : والله الذى لا إله إلا هو ، ما ولى رسول الله ﷺ ولكنه وقف واستنصر ، ثم نزل وهو يقول :

أنا النبى لا كَذِب   أنا ابن عبد المطلب

فأنزل الله عليه نصره وكبت عدوه وأفلح حجته[6] .

---

(١) مغازى الزافدى ج ٣ ص ٩٠٠

(٢) قال ابن الاثير فى النهاية فى غريب الحديث : (تحرج فلان إذا فعل فعلاً يخرج به من الحرج : الإثم والضيق) .

(٣)انظر ترجمة دحية الكلبى فى كتابنا الرابع (غزوة بنى قريظة)

(٤) الواقدى ج ٣ ص ٩٠٢ .

(٥)انظر ترجمة البراء بن عازب فى كتابنا (غزوة أحد) .

(٦) المغازى ج ٣ ص ٩٠٢

دعاء النبى يوم حنين

وكان دعاء النبى ﷺ حين انهزم جيشه وثبت هو : (والمائة الصابرة من الصفوة من المهاجرين والأنصار) : (اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان) . قال جبريل لقد لقنت (بفتح اللام وكسر القاف) الكلمات التى لقن الله موسى يوم فلق البحر أمامه وفرعون خلفه .

وكما ذكرنا دائماً كان الأنصار دائماً العمود الفقرى للقوات النبوية المسلحة طيلة حياة الرسول ﷺ ولهذا فقد كان من المائة الصابرة الثابتة مع النبى ﷺ ساعة الهزيمة يوم حنين سبعة وستون من الأنصار وثلاثة وثلاثون من المهاجرين[1] .

اشتداد القتال بين الفريقين

وبعد أن تراجع المنهزمون المسلمون إلى ساحة الوغى احتدم القتال وقاتلت هوازن بشراسة وضراوة منقطعة النظير ، ولكنها بعد عودة العسكر الإسلامى المنهزم كله ، تحولت من مركز الهجوم إلى مركز الدفاع ، فقد شن المسلمون (بقيادة نبيهم) على هوازن هجوماً مضاداً كاسحاً ، حاولت هوازن وأحلافها الثبات أمامه ولكن دون جدوى .

فقد اكتسحهم المسلمون بحنق وغيظ ، وفتكوا بهم وجرفوهم أمامهم كما تجرف العاصفة الورق اليابس ، فأثخنوا فيهم ، حتى بلغ الحنق ببعض المسلمين إلى أن امتدت أيديهم إلى ذرية المشركين لقتلهم ، فأوقفهم النبى ﷺ عن ذلك بنفسه ، لأن شريعة الإسلام لا تبيح قتل الذرية مهما كانت المبررات والأسباب .

فقد حدث محمد بن أبى صعصعة قال : لما نادى العباس مهيباً بالمسلمين أن يعودوا عن الهزيمة ، صاح سعد بن عبادة سيد الخزرج يا للخزرج يا للخزرج ، وصاح سيد الأوس أسيد بن حضير : يا للأوس يا للأوس ، فثابوا والله من كل ناحية كأنهم النحل تأوى إلى يعسوبها ، قال فحنق المسلمون على المشركين فقتلوهم حتى أسرع المسلمون فى قتل الذرية ، فبلغ

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٠١

ذلك رسول الله ﷺ فقال : ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية ، ألا لا تقتل الذرية ، نادى بها ثلاثاً ، فقال أسيد بن حضير : يا رسول الله إنما هم أولاد المشركين .

فقال الرسول ﷺ مجيباً أسيداً : أو ليس خياركم أولاد المشركين ؟ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها ، فأبواها يهوّدانها أو ينصرانها[1] .

ومما لا خلاف فيه أن هوازن بعد تراجع المسلمين إلى الميدان قد قاتلت قتالاً ضارياً وكان فيهم رجال قد أكثروا القتل فى المسلمين بشراسة ولا أدل على ذلك من هذه القصة التى رواها المؤرخون عن أن رجلاً من هوازن على جمل له يهبر المسلمين بسيفه حتى أكثر القتل فيهم إلى أن تعاون عليه على بن أبى طالب وأبو دجانة فقتلاه . ورجل يتعاون على قتله ألمع فارسين فى المهاجرين والأنصار لهو رجل فاتك شجاع ما فى ذلك شك فعلى فارس المهاجرين وأبى دجانة فارس الأنصار وصاحب سيف رسول الله ﷺ يوم أحد وصاحب المواقف البطولية المشهودة فى ذلك اليوم .

قالوا : (فى وصف فعل الهوازنى الأفاعيل بالمسلمين) : وكان رجل من هوازن على جمل أحمر ، بيده راية سوداء فى رأس رمح له طويل أمام الناس ، إذا أدرك طعن ، قد أكثر القتل فى المسلمين ، فيصمد له أبو دجانة فعرقب جمله فسمع خرخرة جمله[2] .

واكتسح الجمل وسدَّ علىٰ وأبو دجانة عليه فيقطع علىّ يده اليمنى ويقطع أبو دجانة يده الأخرى ، وأقبلا يضربانه بسيفيهما جميعاً حتى تثلم سيفاهما فكفَّ أحدهما . وأجهز الآخر عليه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إمض لا تعرج على سلبه ، فمضيا يضربان أمام النبى ﷺ ، ويعترض لهما فارس من هوازن بيده راية حمراء ، فضرب أحدهما يد الفرس ووقع لوجهه ثم ضرباه بأسيافهما فمضيا على سلبه . ويمر أبو طلحة فسلب الأول ومر بالآخر فسلبه .

---

(١) الواقدى ج ٣ ص ٩٠٥

(٢) قال فى لسان العرب : الخرخرة : سرعة الخرير فى القصب .

وكان عثمان بن عفان وعلى وأبو دجانة وأيمن بن عبيد يقاتلون بين يدى رسول الله ﷺ[1] .

استبسال قائد قبيلة هوازن

كذلك شهد المؤرخون (نقلاً عن شهود عيان) أن القائد العام لقوات هوازن مالك بن عوف النصرى وقبيلته بنى نصر ، قد قاتلوا بشراسة وشجاعة وثبات ، حتى كادوا أن يفنوا عن آخرهم ، ولم ينسحب القائد العام مالك بن عوف من الميدان إلا بعد أن رأى أنه قد فقد السيطرة كلياً على جيوشه التى شَتَّتَتْهَا الهزيمة كما تشتِّت العاصفة الورق اليابس ، ولم يعد لأحد من جنود هوازن ما يهمه سوى النجاة بنفسه ، قال الواقدى : واستحر القتل فى بنى نصر (قوم مالك بن عوف) وفى بنى رباب من بنى نصر ، حتى صار عبد الله بن قيس النصرى ــ وكان مسلماً ــ يقول : يا رسول الله هلكت بنو رباب ، فقال اللهم اجبر مصيبتهم .

وقال أبو قتادة رأيت يوم حنين رجلين يقتتلان : مسلماً ومشركاً ، قال : وإذا رجل من المشركين يريد أن يعين صاحبه المشرك على المسلم . قال : فأتيته فضربت يده ، فقطعتها ، واعتنقنى بيده الأخرى ، فو الله ما أرسلنى حتى وجدت ريح الموت ، وكاد يقتلنى فلولا أن الدم نزفه[2] لقتلنى ، فسقط فضربته فقتلته وأجهضنى عنه القتال (أى شغلنى) ، ومر به رجل من أهل مكة فسلبه ، فلما وضعت الحرب أوزارها وفرغنا من القوم . قال رسول الله ﷺ من قتل قتيلاً فله سلبه . فقلت : يا رسول الله ، والله لقد قتلت قتيلاً ذا سلب ، فأجهضنى[3] عنه القتال ؛ فما أدرى من استلبه ؟ فقال رجل من أهل مكة : صدق يا رسول الله ، وسلب ذلك الرجل القتيل عندى ، فأرضه عنى من سلبه ، فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لا والله لا يرضيه منه تعمد إلى أسد من أسد الله ، يقاتل عن دين الله ، تقاسمه سلبه ، أردد عليه سلب قتيله . فقال رسول الله ﷺ : صدق أردد عليه

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٠٣ تحقيق الدكتور مارسدن جونس طبعة أكسفورد .

(٢) نزفه الدم اذا سال حتى أضعفه فأشرف على الموت .

(٣) أجهضنى عنه القتال : شغلنى وضيق على وغلبنى .

سلبه . فقال أبو قتادة : فأخذته منه ، فبعته ، فاشتريت بثمنه مخرفاً[1] فإنه لأول مال اعتقدته[2] .

المعجزة السماوية يوم حنين

وتحدث مختلف المؤرخين عن المعجزات التى أيد الله بها نبيه يوم حنين حيث بث الرعب بها فى نفوس المشركين : فقد قالوا عن بعض الصحابة ممن شهدوا حنيناً : أنهم رأوا قبل هزيمة هوازن (والناس يقتتلون) مثل البجاد[3] الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم . قال أحدهم : فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث[4] قد ملأ الوادى ، لم أشك أنها الملائكة ثم لم يكن إلا هزيمة القوم .

وقال آخر : إن رجال مالك بن عوف (وكانوا عيوناً له) عادوا إليه وقد تفرقت أوصالهم ، فقال : ويلكم ، ما شأنكم ؟ فقالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، فو الله ما تماسكنا حتى أصابنا ما ترى .

وعن شيوخ من الأنصار . قالوا : رأينا يومئذ كالبجد السود هوت من السماء ركاماً[5] فنظرنا فإذا نمل مبثوث فإن كنا لننفضه عن ثيابنا فكان نصراً أيدنا الله به .

وكان سيماء الملائكة يوم حنين عمائم حمراء قد أرخوها بين أكتافهم ، وكان الرعب الذى قذف الله فى قلوب المشركين يوم حنين كوقع الحصى فى الطست[6] . فكان سويد بن عامر السوائى يحدث ، وكان حاضراً يومئذ (مع المشركين) فسئل عن الرعب فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها فى الطست فيطن فقال : إن كان فى أجوافنا مثل هذا .

---

(١) جاء فى الروض الأنف : المخرف : نخلة واحدة أو نخلات يسيرة إلى عشر فأما ما فوق ذلك فهو بستان أو حديقة .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩١ .

(٣) البجاد (بكسر الباء) : الكساء .

(٤) مبثوث : متفرق ، يعنى رآه من السماء .

(٥) الركام : السحاب المتراكم بعضه فوق بعض : كذا قال فى نهاية غريب الحديث ج ٢ ص ١٠١ .

(٦) الطست وعاء واسع للغسيل يكون من النحاس غالباً .

وكان مالك بن أوس بن الحدثان يتحدث عن مدى أثر الحصى الذى قذف به رسول الله ﷺ فى وجوه المشركين فيقول : حدثنى عدة من قومى شهدوا ذلك اليوم (مع المشركين) يقولون : لقد رمى رسول الله ﷺ بتلك الكف من الحصيات فما منا أحد إلا يشكو القذى فى عينيه ، ولقد كنا نجد فى صدورنا خفقاناً كوقع الحصى فى الطساس ، ما يهدأ ذلك الخفقان عنا ، ولقد رأينا يومئذ رجالاً بيضاً على خيل بلق عليهم عمائم حمر ، قد أرخوها بين أكتافهم ، بين السماء والأرض كتائب كتائب ما يليقون شيئاً[1] ولا نستطيع أن نقاتلهم من الرعب منهم[2] .

تعليق السهيلى على المعجزة

وقال السهيلى فى كتابه (الروض الأنف ج ٧ ص ٢١٣ تحقيق وتعليق عبد الرحمن الوكيل رحمه الله) تعليقاً على هذه المعجزات : ويقول جبير بن مطعم (هو صحابى حضر المعركة) : لقد رأيت مثل البجاد يعنى الكساء من النمل مبثوثاً ، يعنى رآه ينزل من السماء . قال : لم أشك أنها الملائكة ، وقد قدم ابن إسحاق قول الآخر : رأيت رجالاً بيضاً على خيل بلق ، وكانت الملائكة فأراهم الله لذلك الهوازنى على صور الخيل والرجال ترهيباً للعدو ، ورآهم جبير على صورة النمل المبثوث إشعاراً بكثرة عددها ، إذ أن النمل لا يستطاع عدّها ، من أن النملة يضرب بها المثل فى القوة ، فيقال : أقوى من النملة لأنها تحمل ما هو أكبر من جرمها بأضعاف ، وقد قال رجل لبعض الملوك : جعل الله قوتك قوة النملة ، فأنكر عليه ، فقال : ليس فى الحيوان ما يحمل ما هو أكبر منه إلا النملة ، وهذا المثل قد ذكره الأصبهانى فى كتاب الأمثال مقروناً بهذا الخبر ، وقد أهلك بالنمل أمة من الأمم وهم جرهم اهـ .

ومعجزة أخرى يحدثنا حاجب البيت شيبة الحجبى (بأسلوب أوسع) فيقول — عن سبب إسلامه —: ما رأيت أعجب مما كنا فيه من لزوم ما مضى عليه آباؤنا من الضلالات ، ولما كان عام الفتح ودخل رسول الله

---

(١) قال فى لسان العرب ج ١٢ ص ٢١٠ : يقال فلان ما يليق شيئاً من سخائه ، أى ما يمسك .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٢ و ٩١ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٠٥ و ٩٠٦ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٨ والطبرى ج ٣ والبداية والنهاية ج ٤ والكامل فى التاريخ ج ٢ .

ﷺ مكة وسار إلى حرب هوازن ، قلت أسير من قريش إلى هوازن بحنين ، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غِرَّة فأقتله فأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها وفى لفظ : اليوم أدرك ثأرى من محمد ـ لأن أباه وعمه قتلا يوم أحد قتلهما حمزة رضى الله عنه ـ وأقول لو لم يبق من العرب والعجم أحد لا أتبع محمداً ، لا يزداد ذلك الأمر عندى إلا شدة ، فلما اختلط الناس ، ونزل ﷺ عن بغلته أصلتُّ السيف[1] ودنوت منه ، ورفعت السيف حتى كدت أوقع به الفعل ، رفع إلىَّ شواظ من نار كالبرق كاد يهلكنى ، فوضعت يدى على بصرى خوفاً عليه ، فنادانى ﷺ يا شيبة ، أدن منى فدنوت منه ، فالتفت إلى وتبسَّم وعرف الذى أريد منه فمسح صدرى ، ثم قال : اللهم أعذه من الشيطان ، قال شيبة : فو الله لهو كان الساعة إذن أحب إلىَّ من سمعى وبصرى ونفسى ، وأذهب الله ما كان فىّ ، ثم قال ﷺ : أدنُ فقاتل فتقدمت أمامه أضرب بسيفى ، الله أعلم أنى أحب أن أقيه بنفسى كل شىء ولو كان أبى حياً ولقيته فى تلك الساعة لأوقعت به السيف ، فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون وكروا كرة واحدة ، وقربت إليه ﷺ بغلته فاستوى عليها قائماً وخرج فى أثرهم حتى تفرقوا فى كل وجه أى المشركون ، وأمر رسول الله ﷺ أن يقتل من يقدر عليه واتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى قتلوا الذرية فنهاهم النبى ﷺ عن قتل الذرية[2] .

دور المرأة المسلمة فى معركة حنين

وفى معركة حنين ، كان للمرأة المسلمة دوراً مشرفاً ، فقد كان ضمن الجيش النبوى نسوة أربع من نساء الأنصار ثبتن مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، على رأسهن أم عمارة[3] صاحبة المواقف المشهورة فى معركة أحد ، فقد روى سليمان بن هلال عن أمّ عمارة رضى الله عنها قالت : لما كان يومئذ والناس منهزمون فى كل وجه وأنا وأربع نسوة فى يدى سيف لى صارم وأم سليم[4] معها خنجر قد حزمته على وسطها ، وهى يومئذ حامل بعبد الله بن

---

(١) صلت السيف : جَرَّدَهُ من غمده متهيئاً للضرب .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦ .

(٣) أنظر ترجمة أم عمارة فى كتابنا الثانى (غزوة أحد) .

(٤) انظر ترجمة أم سليم فيما مضى من سلسلتنا هذه .

أبى طلحة[1] وأم سليط[2] وأم الحارث[3] قالوا : فجعلت (أم عمارة) تسلّه وتصيح بالأنصار (لما انهزم المسلمون) : أية عادة هذه ؟ مالكم وللفرار . قالت : وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق معه لواء يوضع جمله فى أثر المسلمين ، فأعترض له فأضرب عرقوب الجمل فيقع على عجزه . وأشد الرجل ، فلم أزل أضربه حتى أثبته ، وأخذت سيفاً له وتركت الجمل يخرخر ، ورسول الله ﷺ قائم مصلت السيف بيده قد طرح غمده ينادى يا أصحاب سورة البقرة ، قال : وكر المسلمون فجعلوا يقولون : يا بنى عبد الرحمن ، يا بنى عبيد الله ، يا خيل الله ، وكان رسول الله ﷺ قد سمى خيله خيل الله ، وجعل شعار المهاجرين بنى عبد الرحمن ، وجعل شعار الأوس بنى عبيد الله ، فكرَّت الأنصار ، ووقفت هوازن حلب ناقة فتوح[4] ، ثم كانت إياها ، فوالله ما رأيت هزيمة كانت مثلها ، ذهبوا فى وجه ، فرجع ابناى إلى ــ حبيب وعبد الله ابنا زيد ــ بأسارى مكتفين ، فأقوم لهم من الغيظ ، فأضرب عنق واحد منهم ، وجعل الناس يأتون بالأسارى ، فرأيت فى بنى مازن ابن النجار ثلاثين أسيراً . وكان المسلمون قد بلغ أقصى هزيمتهم مكة ، ثم كرّوا بعد وتراجعوا ، فأسهم لهم النبى ﷺ جميعاً[5] .

---

(١) هو شيبة بن عثمان بن أبى طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار القرشى العبدرى الحجبى من أهل مكة يكنى أبا عثمان وقيل أبا صفية ، وأبو عثمان يعرف بالأوقص ، كان أبوه يحمل لواء المشركين يوم أحد قتله (مشركاً) على بن أبى طالب ، أسلم شيبة يوم الفتح فى الظاهر ، ولكنه صحح إسلامه يوم حنين ، قال ابن الأثير فى أسد الغابة : كان شيبة من خيار المسلمين ، ودفع له رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة وإلى ابن عمه عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، وقال : خذوها خالدة مخلدة تالدة إلى يوم القيامة يا بنى طلحة لا يأخذها منكم إلا ظالم ، وشيبة هو جد بنى شيبة الذين يلون حجابة البيت الذين بأيديهم مفتاح الكعبة إلى يومنا هذا ، كان شيبة من رواة الحديث . حج بالناس سنة تسع وثلاثين ، وذلك كحل وسط حينما اختلف أنصار معاوية وعلى حيث كل منهم يريد أن يكون أميراً على الحجيج (أنظر الإصابة) توفى شيبة سنة تسع وخمسين .

(٢) أم سليط قال فى أسد الغابة : امرأة من المبايعات حضرت مع النبى ﷺ يوم أحد قال عمر ابن الخطاب : كانت تزفر لنا القرب يوم أحد .

(٣) أم الحارث هذه هى جدة عمارة بن عزية ، وهى من الأنصار من الخزرج قاله ابن عبد البر .

(٤) قال فى الإصحاح : الفتوح من النوق الواسعة الإحليل .

(٥) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٠٢ و ٩٠٣ .

امرأة تطلب إعدام المنهزمين المسلمين

والعجيب أن حماس الثبات مع الرسول ﷺ وعامل الغضب على المسلمين المنهزمين قد بلغ بإحدى نساء الأنصار اللواتى ثبتن مع الرسول ﷺ ساعة الهزيمة وهى (أم سليم بنت ملحان) طلبت من الرسول ﷺ أن ينفذ حكم الإعدام فى الذين فرّوا من أصحابه عند الصدمة الأولى يوم حنين

فقد ذكر المؤرخون أن أم سليم هذه ــ وكانت مع زوجها أبى طلحة[1] ، وهى حامل بابنها عبد الله ، وهى حازمة وسطها ، ومعها جمل أبى طلحة ، وقد خشيت أن يعزّها[2] الجمل ، فأدنت رأسه منها ، فأدخلت يدها فى خزامته[3] مع الخطام ، فقال لها رسول الله ﷺ أم سليم ؟. قالت : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله . أرأيت هؤلاء الذين أسلموك وفرّوا عنك وخذلوك ، لا تعف عنهم إذا أمكنك الله منهم ، فاقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين . وفى رواية : اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، كما تقتل الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل ، فقال رسول الله ﷺ : يا أم سليم قد كفى الله .. عافية الله أوسع . قالوا : ومعها خنجر ، فقال لها أبو طلحة : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟. قالت : خنجر أخذته ، إن دنا منى أحد المشركين بعجته[4] به ، قال يقول : أبو طلحة : ألا تسمع يا رسول الله ما تقول الرميصاء[5] .

كما طالبت امرأة أخرى بإعدام المنهزمين من المسلمين وهى أم الحارث الأنصارية . فقد روى الواقدى قال : وكانت أم الحارث الأنصارية أخذت بخطام جمل أبى الحارث زوجها ، وكان جمله يسمَّى المجسار فقالت : يا حار ، تترك رسول الله ﷺ فأخذت بخطام الجمل ، والجمل يريد أن يلحق بألافه ، والناس يولّون منهزمين ، وهى لا تفارقه . فقالت : أم الحارث : فمر بى عمر ابن الخطاب (وكان ممن ثبت) فقالت أم الحارث : يا عمر ، ما هذا ، فقال

(١) أنظر ترجمة أبى طلحة فى كتابنا (غزوة أحد) .

(٢) يعزها : يغلبها ، ومنه قوله تعالى فى قصة داود عليه السلام : ﴿ فعزنى فى الخطاب ﴾ .

(٣) الخزامة حلقة من شعر تجعل فى أنف البعير لينقاد بها ولا يعصى .

(٤) بعجته . يقال : بعج بطنه إذا شقه .

(٥) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٨ و ٨٩ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٠٣ و ٩٠٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٦ .

عمر : أمر الله . وجعلت أم الحارث تقول : يا رسول الله ، من جاوز بعيرى فاقتله ، والله إن رأيت كاليوم ما صنع هؤلاء القوم بنا تعنى بنى سليم وأهل مكة الذين انهزموا بالناس[1] .

حكم الفارين من الزحف

وقد تكلم علماء التشريع الإسلامى عن مسألة فرار المسلمين وانهزامهم يوم حنين وموقفهم من قوله تعالى فى تحريم الفرار يوم الزحف : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرِّفاً لقتال أو متحيِّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾[2] . فقد قالوا : إن الإجماع لم ينعقد بين المسلمين على أن الفرار من الزحف من الكبائر إلا يوم بدر. ثم إن الله تعالى غفر للفارين يوم حنين كما تاب على الذين فرُّوا يوم أحد كما جاء ذلك صريحاً فى القرآن . قال السهيلى : (إن قيل كيف فرَّ أصحاب رسول الله ﷺ والفرار من الزحف من الكبائر ، وقد أنزل الله فيه من الوعيد ما أنزل .؟ قلنا : لم يجمع العلماء على أنه من الكبائر إلا فى يوم بدر ، وكذلك قال الحسن ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وظاهر القرآن يدل على هذا ، فإنه قال تعالى : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ فيومئذ ، إشارة إلى يوم بدر ، ثم نزل التحقيق من بعد ذلك فى الفارِّين يوم أحد ، وهو قوله تعالى : ﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ وكذلك فى يوم حنين : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾ إلى قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ وفى تفسير ابن سلام : كان الفرار من الزحف يوم بدر من الكبائر ، وكذلك يكون فى ملحمة الروم الكبرى ، وعند الدجال ، وأيضاً فإن المنهزمين عنه عليه السلام رجعوا لحينهم وقاتلوا معه حتى فتح الله عليهم[3] .

كلام الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان قلوبهم

وفى يوم حنين وعندما انهزم المسلمون تكلم رجال من زعماء قريش أسلموا ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم فانفرجت أساريرهم للهزيمة وفاهوا من الحديث بما يدل على

---

(١) الواقدى ج ٣ ص ٩٠٤ تحقيق الدكتور مارسدن جونس طبعة أكسفورد .

(٢) الأنفال ١٥ و ١٦ .

(٣) الروض الأنف بتحقيق وتعليق عبد الرحمن الوكيل رحمه الله ج ٧ ص ٢٠٨ .

عدم ولائهم للنبى ﷺ وللإسلام ولكنهم جميعهم (فيما بعد) حسن إسلامهم وكانوا من الصحابة الأخيار وإنما كان الذى فاهوا به ساعة الهزيمة يوم حنين لأنهم حديثو العهد بالإسلام . لم يمض على دخولهم فيه (بعد هزيمتهم فى مكة) سوى عشرة أيام . فيها لم يتمكن الإسلام من قلوبهم .. من هؤلاء أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو . فقد قال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وقال رجل مِمَّنْ أسلم ، حسن الإسلام صادق الإيمان اسمه أبو مقيت . سمعها من أبى سفيان . فقال له : (أما والله لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتلك لقتلتك وصرخ كلدة بن الحنبل أخو صفوان ابن أمية لأمه .. أسود من سودان مكة : ألا بطل السحر ، فقال له صفوان (وكان عاقلاً بعيد النظر) : أسكت فضَّ الله فاك ، لأن يربّنى ربٌّ من قريش أحبّ إلى من أن يربّنى رب (أى ملك) من هوازن ، وقال هذا الاستنكار صفوان بن أمية وهو لايزال على شركه وكان مع المسلمين يوم حنين لأن رسول الله ﷺ عقب فتح مكة أعطى صفوان مهلة أربع أشهر فبقى على شركه ثم أسلم فى الجعرّانة ، والنبى ﷺ عائداً من حنين .

وقال سهيل بن عمرو[1] (كان فيما بعد من خيار الصحابة): لا يجترُّها (أى مصيبة الهزيمة) محمد وأصحابه . وكان عكرمة بن أبى جهل ممن رسخ الإيمان فى قلوبهم ، وكان حاضراً يسمع كلمات الشماتة هذه فقال لهؤلاء الشامتين : هذا ليس بقول ، وإنما الأمر بيد الله وليس إلى محمد من الأمر شىء ، إن أديل عليه فإن له العاقبة غداً ، فقال له سهيل بن عمرو : إن عهدك به لحديث . فقال عكرمة : يا أبا يزيد إن كنا لنوُضِعُ فى غير شىء ، وعقولنا عقولنا ، نعبد الحجر لا ينفع ولا يضر[2] .

كيف كانت هزيمة هوازن ؟

وهكذا وبعد أن تراجع المسلمون عن الهزيمة التى أصابتهم استبسلوا فى القتال وأنزلوا أفدح الخسائر بالمشركين ، وتحول بعض الصحابة عند العودة من الهزيمة إلى ما يشبه الإعصار يكتسح كل من يقف أمامه من الأعداء . ومن هؤلاء أبو

(١) انظر ترجمة سهيل بن عمرو فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .
(٢) انظر مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩١٠ .

طلحة الأنصارى (وكان ممن ثبت مع الرسول) فقد قتل وحده من مشركى هوازن خمسة وعشرين رجلاً وغنم أسلابهم[1] .

جرح قائد الفرسان خالد بن الوليد

وعند عودة المسلمين عن الهزيمة كذلك تعرض كثير من المسلمين للقتل والإصابة بجروح خطيرة (وتلك سنة الحرب) .

ومن الذين جرحوا جراحة خطيرة فى معركة حنين قائد الفرسان خالد بن الوليد الذى نزف كثيراً حتى أسند إلى رحله من الضعف لشدة النزيف .

فقد ذكر بعض شهود العيان من الصحابة ، أن رسول الله ﷺ بعدما هزم الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم ، كان يمشى فى المسلمين ويقول : من يدلنى على رحل خالد بن الوليد ، حتى دلّ عليه ، فوجده قد أسند إلى مؤخرة رحله لأنه قد أثقل بالجراحة ، فتفل النبى ﷺ فى جرحه فبرئ[2] .

وهكذا وبعد جلاد عنيف وقتال شرس وصبر على القتال من الفريقين ، نزلت الهزيمة بهوازن بعد أن كان النصر فى جانبهم ، وكادت طلائع جيشهم تصل مكة فاتحة .

وحقق الجيش النبوى (بعد تلك الهزيمة المروّعة) نصراً (من الناحية العسكرية) لم يحقق المسلمون مثله طيلة العهد النبوى . فقد انهزم أمام المسلمين عشرون ألف مقاتل من هوازن ، بينما لا يزيد عدد المسلمين على اثنى عشر ألفاً . ألفان منهم من أهل مكة الذين لم يمض على دخولهم فى الإسلام أكثر من عشرة أيام .

وفقد مشركو هوازن فى معركة حنين التى خسروها مئات القتلى كما وقع منهم فى أسر المسلمين حوالى ستة آلاف إنسان . كذلك غنم المسلمون من هوازن غنيمة لم يغنموا مثلها فى الكثرة فى أية معركة خاضوها فى العهد النبوى .

فقد غنم الجيش النبوى يوم حنين أربعة وعشرين ألف بعير (والإبل بعد الخيل) من أعز ما يمتلك العربى فى ذلك العصر ، كما غنم المسلمون أيضاً أكثر

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٨ .

من أربعين ألف شاة ، وغنموا أيضاً عشرات الآلاف من أوقيات الفضة .

أما الذين كتبت لهم النجاة من قوات هوازن فقد عمهم الرعب ولاذوا بالفرار وعلى رأسهم ملكهم وقائدهم مالك بن عوف النصرى .

فقد ابتلعتهم الشعاب والوديان مشتتين فارين يطلب كل منهم النجاة لنفسه ، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم غنيمة للمسلمين .

إنها كارثة مروّعة نزلت بهوازن لم ينزل مثلها بحى من العرب فى الجزيرة . كارثة حذر (مسبقاً) من حدوثها المحارب المجرّب الشهير دريد بن الصمة الهوازنى ، وناشد الشاب الملك والقائد لهوازن مالك بن عوف أن لا يوقعها بأهله وعشيرته ، حين نصحه بوادى أوطاس قبل المعركة ، أن يأمر بإعادة النساء والأطفال والمواشى إلى عُلياء بلاد هوازن ، ويلقى المسلمين على متون الخيل ، ولكن مالكاً عصى دريداً ، فوقعت الهزيمة والكارثة المدمِّرة التى حذر دريد مالكاً من وقوعها ، ومن تصاريف القدر أن دريد بن الصِّمة لقى حتفه فقتل يوم حنين مشركاً ، وهو ابن مائة وستين سنة ، وبقى مالك وأسلم وحسن إسلامه وصار من سيوف الله على المشركين من ثقيف وغيرهم من المجاورين لبلاده .

وقد تحدث شهود العيان عن انتصار المشركين أول الأمر ثم عن هزيمتهم ثانياً وعن الرعب الذى نزل بهم عقب تراجع المسلمين عن الهزيمة وعودتهم إلى ساحة القتال .

فعن عمرو بن زهير ، عن عمر بن عبد الله العبسى عمّن أخبره ، عن ربيعة ، قال : حدثنى نفر من قومنا حضروا يومئذ قالوا : كمنّا لهم (أى المسلمين) فى المضايق والشعاب ، ثم حملنا عليهم حملة ركبنا أكتافهم حتى أتينا إلى صاحب بغلة شهباء (هو رسول الله ﷺ) ، وحوله رجال بيض حسان الوجوه فقال شاهت الوجوه ، ارجعوا ، فانهزمنا ، وركب المسلمون أكتافنا وكانت إياها (أى الهزيمة) وجعلنا نلتفت وراءنا ننظر إليهم يكدّوننا ، فتفرقت جماعتنا فى كل وجه ، وجعلت الرعدة تسحقنا حتى لحقنا بعُلياء بلادنا ، فإن كان ليحكى عنا الكلام ما كنا ندرى به ، مما كان بنا من

الرعب ، فقذف الله الإسلام فى قلوبنا[1] .

مقتلة ثقيف وقتل قائدها

تعد ثقيف بطن من بطون هوازن ، وقد حضرت ثقيف يوم حنين ورايتها مع قارب بن الأسود ، واستحرّ القتل فى هوازن وصبرت بنو مالك من ثقيف ، وصاحب رايتهم قارب بن الأسود بن مسعود ، فإنه (كما قال الواقدى) : لما انهزم الناس أسند رايته إلى شجرة وهرب هو وبنو عمه من الأحلاف ، فلم يقتل منهم إلا رجلان ، من بنى غيرة (وهب ، واللجلاج) ، وقال النبى ﷺ حين بلغه قتل اللجلاج : قتل اليوم سيد شبان ثقيف ، إلا ما كان من ابن هنيدة ، قالوا : وكانت راية بنى مالك مع ذى الخمار ، فلما انهزمت هوازن تبعهم المسلمون ، وأحصى القتلى من ثقيف فوجد أنه قتل من بنى مالك وحدهم قريب من مائة رجل تحت راياتهم ، بينهم عثمان بن عبد الله ، فقاتل بها ملياً ، وجعل يحث ثقيفاً وهوازن على القتال حتى قتل ، وكان اللجلاج رجلاً من بنى كُنة ، وقال رسول الله ﷺ لأخى بنى كنة : هذا سيد شبان كنة ، فلما قتل عثمان بن عبد الله ، قال رسول الله ﷺ — لما بلغه مقتله — أبعده الله فإنه كان يبغض قريشاً . وكانت راية ثقيف ساعتئذ مع ذى الخمار واسمه (عوف بن الربيع) فلما قتل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل حتى قتل .

قالوا : وكنّة التى منها اللجلاج القتيل والذى قال الرسول ﷺ : إنه سيد شباب كنة .. كنة هذه امرأة من غامد يمانية ، قد ولدت فى قبائل العرب ، وكانت أمة فأعتق الحارث كل مملوك من بنى كنة ، فقال له عمر بن الخطاب فى خلافته : أيسرّك أن أهل بيت عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة مكان كنة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لوددت أن ذلك كذلك ، فقال عمر : ليت أمى كنّة وأن الله رزقنى من برّها ما رزقك ، وكان أبر الناس بأمه ، ما كانت تأكل طعاماً إلا من يده ، ولا يغسل رأسها إلا هو ، ولا يسرّح رأسها إلا هو[2] .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٠٦ و ٩٠٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩٢ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٧٧ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٠٧

وتحدث أشياخ من ثقيف أسلموا — وكانوا حضروا معركة حنين ، وانهزموا فيمن انهزم حتى وصلوا الطائف ودخلوا حصنهم ، وهم يرجفون من الرعب . فقالوا : ما زال رسول الله ﷺ فى طلبنا — فيما نرى — ونحن مولون ، حتى إن الرجل منا ليدخل حصن الطائف وإنه ليظن أنه على أثره من رعب الهزيمة[1] .

وكان مقتل سيد ثقيف عثمان بن عبد الله على يد عبد الله بن أبى أمية[2] فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : يرحم الله عبد الله بن أبى أمية ، وأبعد الله عثمان بن عبد الله بن ربيعة فإنه كان يبغض قريشاً . ولما بلغ عبد الله بن أبى أمية دعاء رسول الله ﷺ له بالرحمة قال : إنى لأرجو أن يرزقنى الله الشهادة فى وجهى هذا ، فقتل فى حصار الطائف وقال النبى ﷺ : لولا ابن جثامة الأصغر لفضحت الخيل اليوم[3] .

وروى الإمام أحمد عن العلاء بن زياد العدوى أنَّهُ قال : يا أبا حمزة هل غزوت مع رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم غزوت معه يوم حنين ، فخرج المشركون بكرة فحملوا علينا حتى رأينا خيلنا وراء ظهورنا ،وفى المشركين رجل يحمل علينا فيدقنا ويحطمنا ، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ نزل فهزمهم الله ، فقام رسول الله ﷺ حين رأى الفتح ، فجعل يجاءبهم أسارى رجل رجل ، فبايعوا على الإسلام ، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ إن على نذر لئن جىء بالرجل الذى كان منذ اليوم يحطمنا لأضربن عنقه ، قال : فسكت رسول الله ﷺ ، وجىءبالرجل ، فلما رأى نبى الله ﷺ قال : يا نبى الله تبت إلى الله ، قال : وأمسك نبى الله ﷺ أن يبايعه ليوفى الآخر نذره ، قال : وجعل ينظر إلى النبى ﷺ ليأمره بقتله ويهاب رسول الله ﷺ ، فلما رأى النبى ﷺ أنه لا يصنع شيئاً بايعه ، فقال : يا نبى الله نذرى ، قال : لم أمسك عنه منذ اليوم إلا لتوفى نذرك ، فقال : يا رسول الله ، ألا أومأت إلى ؟ فقال : إنه ليس لنبى أن يومىء[4] .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٠٨ تعليق الدكتور مارسدن جونس طبعة أكسفورد .

(٢) انظر ترجمة عبد الله بن أبى أمية فى كتابنا (صلح الحديبية) .

(٣) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩١١ .

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٢٨ .

وروى البيهقى عن الشعبى عن الحارث بن بدل النصرى عن رجل من قومه شهد يوم حنين وعمرو بن سفيان الثقفى قالا : انهزم المسلمون يوم حنين فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلا عباس وأبو سفيان بن الحرث ، قال : فقبض رسول الله ﷺ قبضة من الحصباء فرمى بها فى وجوههم ، قال : فانهزمنا ، فما خيّل إلينا إلا أن كل حجر أو شجر فارس يطلبنا ، قال الثقفى فأعجزت على فرسى حتى دخلت الطائف[1] .

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٣٢ .

الفصل الخامس

- المطاردة بعد الانتصار .
- إفلات ملك هوازن وقائدها من أيدى المسلمين .
- مصرع شاعر هوازن وفارسها المعمر ، دريد بن الصمّة .
- حصار الطائف .
- فشل الحصار .
- الرسول يفك الحصار عن الطائف ويعود إلى الجِعِرَّانة .
- تقسيم الغنائم الضخمة بين المسلمين .
- الرسول يعطى مئات الإبل للمؤلفة قلوبهم .
- عتاب الأنصار للرسول ﷺ بشأن هذه العطايا .
- الرسول يعتق ستة آلاف من سَبى هوازن .
- عودة الرسول وجيشه إلى المدينة .
- إسلام ثقيف باختيارها .
- انتهاء آخر مظهر من مظاهر الوثنية فى الحجاز .

مطاردة المنهزمين من هوازن .

وبعد أن تمَّ ذلك النصر الساحق للمسلمين على المشركين من هوازن فى حنين أمر الرسول القائد ﷺ قادة جيشه بمطاردة المشركين وتعقبهم فى كل اتجاه يتجهونه ، لئلا يتمكنوا (مجدداً) من جمع قواتهم المهزومة وتنظيمها .

فتحركت كل وحدات الجيش الإسلامى (بقيادة الرسول الأعظم ﷺ) تطارد هوازن ، واستمرت وحدات الجيش النبوى فى المطاردة حتى وصلت بقيادة النبى ﷺ فى مطاردتها الطائف حيث تحصنت ثقيف ، أحد الأجنحة الهامة فى هوازن . فضرب الرسول القائد الحصار على هذا الجناح من هوازن كما سيأتى تفصيله فى هذا البحث إن شاء الله .

مصرع الفارس المعمرّ دريد بن الصمة

وأثناء مطاردة الجيش الإسلامى لمشركى هوازن ، قتل أحد جنود الإسلام شيخ هوازن المعمِّر وفارسها وشاعرها (دريد بن الصمة)[1] وكان له من العمر مائة وستون سنة .

---

(١) هو دريد بن الصمة ، من جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان ، ويكنى أبا قرة ، وهوازن أخو سليم بن منصور ، وكان دريد من فخذ من جشم يقال لهم غزية ، وأمه ريحانة بنت معدى كرب ، أخت عمرو بن معدى كرب الزبيدى . فعمرو على هذا خاله . هكذا جاء فى ترجمة دريد فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ٢ ص ٥٣٦ . ودريد أحد الشجعان المشهورين ، وذوى الرأى فى الجاهلية . ومن جيد شعر دريد المشهور ، قوله :

أمرتهموا أمرى بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى ... غوايتهم وإننى غير مهتد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت ، وإن ترشد غزية أرشد
تنادوا فقالوا : أردت الخيل فارساً ... فقلت : أعبد الله ذلكم الردى
فجئت إليه والرماح تنوشه ... كوقع الصياصى فى النسيج الممدد
فطاعنت عنه الخيل حتى تبددت ... وحتى علانى حالك اللون أسود
قتال امرئ آسى أخاه بنفسه ... ويعلم أن المرء غير مخلد
فإن يك عبد الله خلى مكانه ... فما كان وقافاً ولا رعش اليد
كميش الإزار خارج نصف ساقه ... صبور على الجلى وطلاع أنجد
قليل تشكيه المصائب حافظ ... من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد
صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه ... فلما علاه قال للباطل أبعد
وطيب نفسى أننى لم أقل له ... كذبت ولم أبخل بما ملكت يدى

ودريد بن الصمة هذا ، هو الذى عارض الملك القائد لهوازن (مالك بن عوف النصرى) عارضه عندما ساق مع الجيش نساءهم وأطفالهم ومواشيهم وكل أموالهم إلى وادى حنين . ولكن مالكاً عصاه فوقع كل أموال ومواشى وذرارى هوازن غنيمة فى أيدى الجيش الإسلامى وهو ما حذر دريد مالكاً من أن تقع هوازن فيه .

قال المؤرخون : وكان دريد بن الصمّة الذى أقعده الكبر (ولكنه حضر حنين) يحمل فى هودج على جمل لأنه لا يستطيع الحركة للقتال لكبر سنه . وعندما شتتت الهزيمة هوازن لم يعد هناك من يعتنى بالشيخ المعمِّر (دريد بن الصمة) فترك لوحده يسير به الجمل (وعليه الهودج) على غير هدى ، فأدركه شاب يقال له ربيعة بن رُفيع بن أهبان بن ثعلبة بن يربوع من بنى سليم ، فأخذ بخطام جمله وهو يظنه امرأة . وذلك أنه كان فى هودج ، فأناخ الشاب به فإذا هو شيخ كبير ابن ستين ومائة سنة ، وكان الشاب ربيعة لا يعرف أنه (دريد بن الصمة المشهور) . فقال الفتى السلمى : ما أريد إلى غيره مِمَّن هو على مثل دينه ؟. قال له دريد : من أنت ؟.

قال الغلام : أنا ربيعة بن رفيع السلمى . ثم ضربه بالسيف فلم يؤثر فيه سيف الفتى السلمى . فقال دريد : بئس ما سلحتك أمك ، خذ سيفى من وراء الشجار (أى الهودج) فاضرب به ، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كنت كذلك أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد منعت فيه نساءك . ويقال : إن ربيعة لما ضرب دريداً تكشف للموت عجانه وبطون فخذيه مثل القراطيس من ركوب الخيل . فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله دريداً ، فقالت : والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً فى غداة واحدة . وجزّ ناصية أبيك[1] (أى أطلق سراحه بعد أن

= وكان عبد الله بن الصمة أخو دريد أغار على إبل لعبس وفزارة ، ومعه دريد ، بعد أن شار عليه دريد ألا يفعل فخالفه ، فخرجت عليهم الخيل فاستحر القتال فى بنى جشم ، وقتل عبد الله بن الصمة ، وصرع دريد . ثم تولى دريد زعامة قبيلته بعد أخيه عبد الله . فأغار على عبس وذبيان فقتل منهم مائة قتيل بينهم قاتل أخيه عبد الله واسمه (ذؤاب بن أسماء بن زيد) . قتل دريد عن مائة وستين عاماً .

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩١٤ و ٩١٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٦ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩٥ و ٩٦ .

أسره فى المعركة) قال الفتى : ما كنت أشعر . وفى رواية قالت أم الفتى له : ألا تكرمت عن قتله لما أخبرك بمنّه علينا ، فقال : ما كنت لأتكرم عن رضى الله ورسوله[1] .

وقالت عمرة بنت دريد فى قتل ربيعة دريداً :

لعمرك ما خشيت على دريد ببطن سميرة[2] جيش العناق[3]
جزى عنه الإلٰه بنى سليم وعقّتهم بما فعلوا عقاق[4]
وأسقانا إذا قدنا إليهم دماء خيارهم عند التلاقى

وقالت تذكر بني سليم أيادى دريد عندهم فى الجاهلية حين أعتق نساءهم وأطلق سراح أحد آبائهم :

فرب عظيمة دافعت عنهم وقد بلغت نفوسهم التراق
وربّ كريمة أعتقت منهم وأخرى قد فككت من الوثاق
وربّ منوه بك من سليم أجبت وقد دعاك بلا رِماق[5]
فكان جزاؤنا منهم عقوقاً وهَمًّا ماع منه مخ ساق[6]
عفت آثار خيلك بعد أين بذى بقر إلى فيف النهاق[7]

مصير القائد العام لهوازن

أما القائد العام لجيوش هوازن ، مالك بن عوف النصرى ، فبعد أن تأكد أنه خسر المعركة نهائياً انهزم وانسحب من الميدان فى كوكبة من الفرسان ، هم كبار قادته وهيئة أركان حربه وحرسه . وكان الذى تولى مطاردة مالك وصحبه ، الزبير بن العوام فى الخيل ، وقد ذكر المؤرخون ، أن القائد العام مالكاً ، لما رأى أن الزبير هو الذى يتولى مطاردته (وكان الزبير يعد من أشجع

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٦ والشعر والشعراء لابن قتيبة ج ٢ .
(٢) سميرة : واد قرب حنين قتل به دريد .
(٣) العناق الخيبة والداهية .
(٤) عُقاق على وزن فعال بكسر اللام : من العقوق .
(٥) المنوه الذى يناديك بأشهر أسمائك نداءاً عالياً . والرماق بفتح الراء وكسرها بقية الحياة .
(٦) قال أبو ذر : ماع ذاب ، وكل سائل مائع .
(٧) عفت درست وتغيرت . وذو بقر موضع ، والفيف : القفر . والنهاق هنا . موضع وقال ابن سراج : أين وذو بقر موضعان .

الفرسان) . نزل عن فرسه واختفى بين الأشجار فى الشعاب لئلا يقع أسيراً فى يد الزبير ، لأن مالكاً يعلم أن الزبير لن يتركه يفلت من يده .

فقد جاء فى كتب التاريخ والسير أن مالك بن عوف (عقب انهزامه) وقف على مرتفع من الأرض ومعه فرسان من أصحابه ، فأمرهم بأن يقفوا مكانهم حتى يمر الضعفاء ومن استطاع النجاة من الذرارى قائلاً : قفوا حتى يمضى ضعفاؤكم حتى تلتئم أخراكم .

وبعد أن مرَّ الضعفاء وأصبحوا بمنجى فى مرتفعات الجبال قال لأصحابه (طالباً الاستطلاع) : أنظروا ماذا ترون ؟. قالوا : نرى قوماً على خيولهم واضعين رماحهم على آذان خيولهم . قال (وكان خبيراً عسكرياً واسع الاطلاع على عادات القبائل) : أولئك إخوانكم بنو سليم[١] وليس عليكم منهم بأس .

ثم قال : انظروا ، ماذا ترون ؟ . قالوا : نرى رجالاً أكفالاً[٢] قد وضعوا رماحهم على أكفال[٣] خيولهم قال : تلك الخزرج ، وليس عليكم منهم بأس ، وهم سالكون طريق إخوانهم . ثم قال : انظروا ، ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قوماً كأنهم الأصنام على الخيل ، قال : تلك كعب بن لؤى وهم مقاتلوكم ، ثم قال : انظروا ماذا ترون ؟ قالوا : نرى رجلاً بين رجلين معلماً بعصابة صفراء ، يخبط برجليه الأرض واضعاً رمحه على عاتقه . قال : ذلك ابن صفية ، الزبير بن العوام . وأيم الله لينزلنكم عن مكانكم .

وفعلاً ، فقد هاجم الزبير مالكاً وأصحابه حتى كاد يطوقهم . فلما غشيت مالكاً الخيل نزل عن فرسه ، مخافة أن يقع فى الأسر ، ثم أخذ يلوذ ويتستر بالشجر كى لا يراه أحد من أصحاب الزبير . ثم سلك فى يسوم (جبل بأعلى نخلة) فأعجزهم هرباً ، وما زال ملك هوازن وقائدها موغلاً فى الهرب ، حتى وصل وادى لية[٤] وهناك تحصن فى قصر له ، وبلغ النبى ﷺ تحصن

---

(١) أنظر ترجمة بنى سليم فى كتابنا (فتح مكة) .
(٢) قال فى لسان العرب : الكفل من الرجال الذى يكون فى مؤخر الحرب .
(٣) الاكفال جمع كفل (بالتحريك) وهو العجز ، وقيل ردف العجز .
(٤) لية (بكسر أوله وثانيه) .

مالك بن عوف فى قصر لية[1] فلم يأمر بتعقبه أو إزعاجه لأنه كان يطمع فى أن يهديه الله للإسلام ، وفعلاً ، بعث الرسول ﷺ إلى ملك هوازن المذكور مبعوثاً خاصاً يبلغه أن النبى ﷺ سيعفى عنه وسيعيد إليه أهله وأمواله إن هو دخل فى الإسلام ، فأسلم مالك وحسن إسلامه وصار خير عون للإسلام فى محاربة من تبقى على الشرك كما سيأتى تفصيله فى موطنه من هذا الكتاب .

الرسول ينهى عن قتل النساء والأطفال

ووجدت امرأة مقتولة فى المعركة ، ونسب إلى القائد خالد بن الوليد قتلها ، فلما رأى الرسول ﷺ المرأة القتيلة وكانت من المشركين . قال : ما كانت هذه لتقاتل . ثم أمر الرسول ﷺ أحد أصحابه بأن يدرك خالداً ويقول له : إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة وعسيفاً[2] . كذلك رأى رسول الله ﷺ امرأة من هوازن مقتولة ، فسأل (مستنكراً) عنها فقال رجل من الجيش : أنا قتلتها يا رسول الله ، أردفتها ورائى فأرادت قتلى فقتلتها فأمر رسول الله ﷺ بدفنها فدفنت[3] .

تصفية جيوب مقاومة هوازن

ورغم انهزام هوازن فى حنين فإن بعضاً من رجالها قد عسكروا بوادى : (أوطاس) محاولين إعادة تنظيمهم بغية الصمود فى وجه المسلمين من جديد . وكان النبى ﷺ قد أمر أصحابه بتعقب المنهزمين ومطاردتهم . وكان هو ﷺ على رأس القوات المتحركة للمطاردة حتى وصل الطائف فحاصرها .

ولما بلغ الرسول ﷺ تجمع بعض عسكر المشركين بوادى (أوطاس) بعث لمقاتلتهم والقضاء على مقاومتهم سرية بقيادة أبى عامر الأشعرى[4] عم

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩١٧ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٢) العسيف هو الشيخ الفانى وقيل هو الأجير .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٣٦ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩١٢ ومسند أحمد والنسائى .

(٤) أبو عامر الأشعرى اسمه عبيد بن سليم بن حضار ، وهو عم أبى موسى الأشعرى ، كان من كبار الصحابة ، كان من السابقين الأولين فى الإسلام ذكره ابن قتيبة فيمن هاجر إلى الحبشة . وذكر أنه كان قد عمى ثم أبصر . قتل شهيداً كما هو مفصل فى كتابنا هذا .

أبى موسى الأشعرى[1] فحمل أبو عامر لواء رسول الله ﷺ ، ثم تقدم لمهاجمة المشركين فى أوطاس .

وهناك اصطدم بجماعة من هوازن كانوا قد تحصنوا فى أماكن استراتيجية من الوادى وثبتوا للقتال ، وبارزوا المسلمين حتى قتل منهم تسعة مبارزة . قتلهم بيده قائد السرية أبو عامر الأشعرى الذى استشهد فى النهاية .

فقد قال أصحاب السير والمغازى : لما انهزم الناس أتوا الطائف ، وعسكر منهم عسكر بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة[2] . فبعث إليهم الرسول من يقاتلهم وعقد له لواءً ، فكان معه فى ذلك البعث سلمة بن الأكوع[3] فكان يحدث يقول : لما انهزمت هوازن ، عسكروا بأوطاس[4] عسكراً عظيماً تفرق منهم من تفرق ، وقتل من قتل وأسر من أسر فأتيناهم إلى عسكرهم ، فإذا هم ممتنعون . وذكر ابن إسحاق ، أن من بين مشركى هوازن هؤلاء عشرة إخوة كلهم بارزوا أبا عامر الأشعرى فقتل تسعة منهم ثم استشهد فى النهاية رحمه الله .

فقد جاء فى سيرة ابن هشام والواقدى أن أبا عامر الأشعرى (وهو قائد

---

(١) أبو موسى الأشعرى اسمه عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن عنز بن بكر بن عامر بن عدى بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب ، كان أبو موسى من السابقين الأولين فى الإسلام ، وكان أبو موسى قدم مكة فحالف سيد قريش أبا أحيحة سعيد ابن العاص بن أمية ، وكان قدومه مع إخوته فى جماعة من الأشعريين . أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة . كذا قال ابن إسحاق . وبعضهم يقول : إنه لم يهاجر إلى الحبشة . وإنما صادف مجيئه من اليمن إلى الرسول ﷺ مجيء جعفر وأصحابه من الحبشة فقدموا معاً فى سفينتين على الرسول ﷺ وهو فى خيبر ، كان أبو موسى من أعيان الصحابة . استعمله عمر بن الخطاب على البصرة ، وقد شهد أبو موسى وفاة أبى عبيدة بن الجراح فى الشام كان أبو موسى من أعيان القادة المشتركين فى فتوح الشام والعراق . وكان هو الذى بالاشتراك مع عمر بن سعد بن أبى وقاص — فتح حران ونصيبين فى العراق ، كذلك فتح أبو موسى الأشعرى الأهواز وأصبهان بفارس فى عهد عمر بن الخطاب ، اعتزل أبو موسى الأشعرى الفتنة المؤسفة التى حدثت بين الصحابة . وكان أحد الحكمين فى الخلاف الدامى الذى نشب بين أمير المؤمنين على ومعاوية بن أبى سفيان . توفى أبو موسى بمكة عام ٤٢ هـ وقيل توفى بالكوفة وهو ابن ثلاث وستين سنة .

(٢) وادى نخلة : واد كبير مشهور وهو المسمى (اليمانية) تصب فيه روافد كثيرة .

(٣) انظر ترجمة سلمة بن الأكوع فى كتابنا (صلح الحديبية) .

(٤) أوطاس . قال فى مراصد الاطلاع : واد فى ديار هوازن .

السرية) لقى من ضمن عسكر هوازن عشرة إخوة طلب كلهم المبارزة ، فبرز الأول . فقال من يبارز ؟ فبرز له أبو عامر الأشعرى (وهو يقول : اللهم اشهد عليه) فقتله أبو عامر ، ثم برز آخر فحمل على أبى عامر الأشعرى (وهو يدعوه إلى الإسلام ، ويقول اللهم اشهد عليه) فقتله أبو عامر . ثم برز آخر من الإخوة العشرة فقتله أبو عامر ، ثم جعلوا يحملون على أبى عامر رجلاً رجلاً ويحمل أبو عامر ، وهو يقول : اللهم اشهد . حتى قتل تسعة . وبقى العاشر ، فحمل على أبى عامر ، وهو يدعوه إلى الإسلام ، ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقال الرجل (المشرك) : اللهم لا تشهد علىَّ ، فكف عنه أبو عامر ، فأفلت ، أسلم بعد فحسن إسلامه . فكان رسول الله إذا رآه قال : هذا شريد أبى عامر .

وأثناء القتال رمى رجل من بنى جُشَم أبا عامر بسهم فأثبته فى ركبته ، فانتهى إليه أبو موسى الأشعرى فقال : من رماك يا عم ؟ فأشار أبو عامر لأبى موسى إلى الرامى ، فقال : إن ذاك قاتلى تراه ذلك الذى رمانى .

قال أبو موسى : فقصدت له فاعتمدته ، فلحقته ، فلما رآنى ولى عنى ذاهباً ، فاتبعته ، وجعلت أقول له : ألا تستحى ، ألست عربياً ، ألا تثبت ، فكر ، فالتقيت أنا وهو ، فاختلفنا ضربتين بالسيف ، فضربته بالسيف ثم رجعت إلى أبى عامر فقلت : قد قتل الله صاحبك ، قال : فانزع هذا السهم ، فنزعته فنزا منه الماء . فقال : يا بن أخى انطلق إلى رسول الله ﷺ فأقرئه منى السلام ، وقل له : استغفر لى ، واستَخلفَنى أبو عامر على الناس ، فمكث يسيراً ثم مات ، فرجعت فدخلت على رسول الله ﷺ فى بيته على سرير مرّمل وعليه فراش ، قد أثّر رمال السرير بظهره وجنبيه ، فأخبرته بخبرنا وخبر أبى عامر ، وقوله : قل له : استغفر لى ، قال فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال : (اللهم اغفر لعبيد أبى عامر) ورأيت بياض إبطيه ، ثم قال : اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس ، قال أبو موسى فقلت : ولى فاستغفر ، فقال : (اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً)(١) .

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٣٩ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩٩ ــ و ١٠٠ وتاريخ الطبرى ج ٣ =

الرجل الذى انتحر فى جيش الإسلام

قالوا : وذكروا للنبى ﷺ أن رجلاً كان بحنين قاتل قتالاً شديداً حتى اشتدت به الجراح ، فذكر للنبى ﷺ فقال من أهل النار ، فارتاب المسلمون من ذلك ، ووقع فى أنفسهم ما الله به عليم ، فلما اشتدت به الجراح أخذ مشقصاً من كنانته فانتحر به ، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن ينادى : ألا لا يدخل الجنة إلا مؤمناً ، وإن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر(١) .

الغنائم العظيمة

وعقب انهزام هوازن فى معركة حنين وقعت فى أيدى الجيش الإسلامى كميات كبيرة من الغنائم والسبى وعلى شكل لم يسبق أن وقع مثله فى أيدى الجيش الإسلامى . وهذا بيان تقريبى للغنائم والسبى .

٢٤٠٠٠ بعيراً .

٤٠٠٠٠ شاة .

٨٠٠٠ رأس من السبى .

تجميد الغنائم حتى العودة من الطائف

وعندما قرر الرسول ﷺ مطاردة هوازن حتى الطائف أمر بتجميد الغنائم والسبى فى الجعرانة وأسند أمر الإشراف على الغنائم والسبى ورعايته والاعتناء به إلى الزعيم الخزاعى الشهير ، بديل بن ورقاء . فبقى السبى وباق الغنائم مجمداً ومتحفظ عليه فى الجعرانة حتى عاد رسول الله ﷺ من حصار الطائف ، وفى الجعرانة أعتق جميع السبى ، وقسم الغنائم على الجيش . كما سيأتى تفصيله فى موطنه من هذا الكتاب إن شاء الله .

حصار الطائف

يعتبر حصار الطائف من الناحية العملية الحربية امتداداً لمعركة حنين ، ذلك أنَّ ثقيفاً (وهم أهل الطائف) من أهم قبائل هوازن وأثقلهم وزناً بل يمكن اعتبارهم العمود الفقرى لجيش هوازن فى معركة حنين الفاصلة ، فقد دل

= ص ٧٩ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩١٥ ــ ٩١٦ .

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩١٧ .

تسلسل الأحداث العسكرية ــ بعد معركة حنين ــ على أن القوة الرئيسية ذات الخطر والتى قاتلت المسلمين فى حنين تحت قيادة مالك بن عوف ، هى من ثقيف ، بدليل أن النبى ﷺ بعد انتصاره فى حنين لم يبق من قبائل هوازن التى اشتركت فى هذه المعركة ضده ، من يهتم بأمره سوى ثقيف الذين وجه كل قواته لمطاردتهم ، وقاد هذه المطاردة بنفسه ، حتى وصل إلى الطائف فوجد ثقيفاً قد تحصنت فى قلاعه فضرب عليها الحصار سبعة عشر يوماً ، ولكن لشدة امتناعهم بحصونهم فى الطائف تركهم ﷺ دون أن ينال منهم شيئاً ، حتى هداهم الله للإسلام ، فجاءوا إلى المدينة وأعلنوا إسلامهم طائعين .

مصير قبائل هوازن

وهذا يعنى أن قوة جميع القبائل الهوازنية (ما عدا ثقيف) قد تلاشت ، لا سيما بعد أن أسلم ملكهم وسيدهم الشاب القائد مالك بن عوف النصرى ، وتحول إلى قائد يحارب إلى جانب الإسلام .

وقبل التحدث عن نتائج مطاردة النبى لثقيف من حنين وضربه الحصار عليهم فى قلاعهم ، لابد من إعطاء القارئ الكريم لمحة عن تاريخ قبائل ثقيف ، وعن مدى مركزها فى التاريخ الجاهلى والإسلام .

تاريخ ثقيف

فالذى يذكره المؤرخون وأصحاب الأنساب ، أن ثقيفاً بطن من هوازن . وهوازن هو ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وهوازن الذى تنتسب إليه ثقيف قد تفرّعت عنه فخائذ كثيرة ، تجمعهم قبائل رئيسية ثلاث كلها لبكر بن هوازن وهم .

أولاً .. بنو سعد بن بكر .

ثانياً .. بنو معاوية بن بكر ، الذين منهم مالك بن عوف النصرى .

ثالثاً .. بنو منبّه بن بكر . وإلى هذا الأخير تنتسب ثقيف .

وثقيف اسمه قَسِى (بفتح القاف وكسر السين) ابن منبّه بن بكر بن هوازن ، وقد تفرع عن قسى هذا عدة قبائل ، اشتهروا فيما بعد باسم أبيهم

ثقيف .

ومن أهم هذه القبائل ، بنو جهم بن ثقيف ، وبنو عوف بن ثقيف ــ ومنازل بنى عوف هؤلاء فى وادى ليّة ــ وكانت لهم به حصون ، وكل هذه القبائل تقسم إلى قبيلتين هما الأحلاف وبنو مالك ، وهم الذين اشتركوا (مشركين) فى معركة حنين تحت هذين الاسمين .

أما موطنهم الأصلى فهو الطائف وضواحيها ، وكانت ثقيف فى الجاهلية قوة حربية لها وزنها ، وقلَّ أن خاضت معركة فى الجاهلية مشهورة ، انتصرت فيها كلها على خصومها .

فمن تاريخ ثقيف الحربى فى الجاهلية أن خثعم (وهم جيل من اليمن) غزو ثقيفاً فى الطائف فخرجت إليهم ثقيف ، على رأسهم سيدهم غيلان بن سلمة ، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى هزمهم ، بعد أن أحدث فيهم مقتلة عظيمة ، وأسر عدة منهم ثم منّ عليهم .

ومن أيامهم التى انتصروا فيها ، يوم وادى وجّ ، وهو واد مشهور بالطائف . ولعل أعظم الأيام التى انتصرت فيها ثقيف فى الجاهلية ، هى تلك المعركة التى دارت بينهم وبين بنى عامر بن ربيعة من هوازن . فقد جاء فى معجم قبائل العرب : أن بنى عامر بن ربيعة هؤلاء ، جمعوا جموعاً كثيرة من أنفسهم وأحلافهم ، ثم ساروا إلى ثقيف فى الطائف ، وكانت بنو نصر بن معاوية أحلافاً لثقيف ، فلما بلغ ثقيفاً مسير بنى عامر ، استنجدوا ببنى نصر ، فأنجدتهم ، فخرجت ثقيف إلى بنى عامر ، وعلى ثقيف غيلان بن سلمة بن متعب ، فلقوهم وقاتلتهم ثقيف قتالاً شديداً ، فانهزمت بنو عامر ومن كان معهم وظهرت ثقيف عليهم ، فأكثروا فيهم القتل .

وفى سبب تسمية بلدهم بالطائف ، ذكر البكرى فى معجم ما استعجم أن بنى ثقيف عرفوا فضل المكان الذى يسمى اليوم بالطائف ، وكان لبنى عامر بن ربيعة من هوازن ، فقالوا لبنى عامر : إن هذه بلاد غرس وزرع ، وقد رأيناكم اخترتم المراعى عليها ، فأضررت بعمارتها وأعمالها ، ونحن أبصر بعملها منكم ، فهل لكم أن تجمعوا الزرع والضرع وتدفعوا بلادكم هذه إلينا فنثيرها حرثاً (أعناباً وثماراً وشجاراً) ونكظمها كظائم ونحفرها أطواء ، ونملأها عمارة

وجناناً بفراغنا لها وإقبالنا عليها وشغلكم عنها واختياركم غيرها ؟.

فإذا بلغت وأدركت الثمار شاطرناكم ، فكان لكم النصف بحقكم فى البلاد ولنا النصف بعملنا فيها ، فكنتم بين ضرع وزرع ، لم يجتمع لأحد من العرب مثله ، فدفعت بنو عامر الطائف إلى ثقيف لعمارتها ، فكانت بنو عامر تجىء أيام الصرام (الحصاد) فتأخذ نصف الثمار كلها كيلاً ، وتأخذ ثقيف النصف الثانى .

وكانت عامر وثقيف تمنع الطائف من أرادهم ، فلبثوا بذلك زماناً من دهرهم ، حتى كثرت ثقيف ، فحصّنوا الطائف ، وبنو عليها حائطاً يطيف بها ، فسميَت (الطائف) فلما قووا بكثرة حصونهم ، امتنعوا من بنى عامر فلم تصل إليهم ولم يقدروا عليهم ، ولم تنزل العرب مثلها داراً . اهـ .

ثقيف عند ظهور الإسلام

وكانت ثقيف شديدة التمسك بالكفر والضلال حتى أنهم امتنعوا فى حصنهم عام ثمان للهجرة تمسكاً بالشرك ، ولم يدخلوا فى الإسلام إلا فى السنة التاسعة من الهجرة ، إلا أن النبى ﷺ بدلاً من أن يدعو عليهم لشدة كفرهم ، دعا لهم فأقبلوا جميعاً فأسلموا . فقد ذكر المؤرخون أن النبى ﷺ لما انصرف من الطائف ولم يقدر على حصن ثقيف ، قيل له : يا رسول الله ادع على ثقيف . فقال : اللهم اهد ثقيفاً وأْتِ بها ، فجاءت ثقيف بإسلامها إلى المدينة طائعة مختارة . بفضل الله ثم بفضل دعاء الرسول ﷺ .

ثقيف تستقدم المنجنيقات للدفاع

عندما تحرك النبى ﷺ من المدينة يريد الاستيلاء على مكة وتحريرها من نير الوثنية ، عقب نقض قريش صلح الحديبية ، ظنت ثقيف أن النبى ﷺ يريد مهاجمتها ، فأبلغت إخوانها من قبائل هوازن ، ثم بعثت بسيدها عروة بن مسعود[1] وآخرين إلى جرش بالأردن ليتدربوا على الأسلحة الثقيلة وصنعها هناك . والتى تمثل المنجنيق والعرّادات والدبابات وغير ذلك من الأسلحة الثقيلة التى لا تستعمل إلا عند مهاجمة الحصون أو الدفاع عنها .

---

(١) انظر ترجمة عروة بن مسعود فى كتابنا (صلح الحديبية) .

وكانت جرش[1] فى ذلك العهد مدينة عربية واقعة تحت نير الحكم الرومانى ، وأهلها مشهورون بصناعة الأسلحة الثقيلة ، لذلك بعثت ثقيف بسيدها عروة ابن مسعود ووفد يصاحبه لتعلُّم صنع هذه الأسلحة والتدرب عليها لاستخدامها فى الحرب ضد المسلمين عندما يضربون الحصار على الطائف . فتقذفهم ثقيف بمقذوفات آلاتها الراجمة بالحجارة واللهب من منجنيق وعرّادات وسهام ضخمة تحمل النيران .

العمليات الحربية قبل حصار الطائف .

وقبل أن يتحرك الرسول ﷺ من حنين لمحاصرة ثقيف فى الطائف أمر الطفيل بن عمرو[2] الدَّوسى أن يتوجه إلى قومه فيهدم صنمهم (ذا الكفين)[3] صنم عمرو بن حممة كما أمره أن يستمد قومه (دَوس) ليعينوا الجيش النبوى فى قتاله ثقيفاً . وأمر الرسول ﷺ الطفيل بن عمرو أن يوافيه

---

(١) جرش بضم الجيم وفتحه . مدينة فى الشام تقع اليوم آثارها ضمن المملكة الاردنية الهاشمية ، كذلك يوجد ناحية نجران موضع يقال له : (جرش) .

(٢) هو الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص الدوسى ، ودوس بطن من الأزد . يُلَقَّبُ بذى النون ، كان شاعراً شريفاً مطاعاً فى قومه ، من السابقين الأولين فى الإسلام ، أسلم على يد الرسول ﷺ فى مكة قبل الهجرة ، وقصة إسلامه قصة شيقة (انظر مفصلة فى أسد الغابة والإصابة والاستيعاب) بعد أن أسلم الطفيل عاد إلى قومه فدعاهم الى الاسلام فأسلموا ، وفى كتب التراجم أن الطفيل قال : يا رسول الله انى امرؤ مطاع فى قومى وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الاسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه ، فقال : اللهم إجعل له آية . قال : فخرجت إلى قومى لحتى إذا كنت بثنية تطلعنى على الحاضر . وقع نور بين عينى مثل المصباح . قال : فقلت : اللهم فى غير وجهى فإنى أخشى أن يظنوها مثله لفراق دينهم ، فتحولت فى رأس سوطى فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلق وأنا أهبط إليهم من الثنية ، فلما نزلت أتانى أبى وكان شيخاً كبيراً ، فقلت : إليك عنى يا أبت فلست منك ولست منى . قال : ولم أى بنى ؟ قلت : إنى أسلمت . قال أى بنى فدينك دينى فأسلم ، ثم أتتنى صاحبتى فقلت لها مثل ذلك فأسلمت ، وقالت : أيخاف على من ذى الشرى (صنم لهم) فقلت : لا .. أنا ضامن لذلك ، ثم دعوت دوسا فأبطأوا عن الإسلام . فرجعت إلى رسول الله ﷺ بمكة فقلت : يا رسول الله إنه قد غلب على دوس الربا فادع الله عليهم . فقال : اللهم اهد دوسا . ارجع إلى قومك فادعهم وأرفق بهم ، قال . فرجعت فلم أزل بأرض قومى أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجروا إلى النبى ﷺ إلى المدينة .. قتل الطفيل بن عمرو شهيداً باليمامة ، وجرح ابنه عمر بن الطفيل ثم عوفى وقتل عام اليرموك فى خلافة عمر بن الخطاب شهيداً .

(٣) ذو الكفين : صنم لدوس ، (انظر كتاب الأصنام للكلبى) .

بقومه فى الطائف . وكان الطفيل بن عمرو من السابقين الأولين فى الإسلام ومطاعاً فى قومه . فصدع الطفيل بن عمرو بأمر الرسول ﷺ .

وقبل أن يتحرك الطفيل لتحطيم الصنم . قال : يا رسول الله أوصنى . قال : أفش السلام وأبذل الطعام ، واستحى من الله كما يستحى الرجل ذو الهيئة من أهله ، إذا أسأت فأحسن ، ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾[1] . فخرج الطفيل سريعاً إلى قومه ، فهدم ذا الكفين (الصنم) وجعل يحشو النار فى جوفه ويقول :

يا ذا الكفين لستُ من عُبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

أنا حشوت النارَ فى فؤادكا

وقد استجاب قوم الطفيل بن عمرو له . فانضوى تحت قيادته أربعمائة من قومه المسلمين وافى بهم الطفيل النبى ﷺ وهو بالطائف .

وقد حمل الأزد معهم إلى الطائف من السلاح الثقيل دبابة ومنجنيق . وعندما أرادوا التحرك إلى الطائف . قال بعضهم : يا معشر الأزد ، من يحمل رايتكم ؟ قال الطفيل بن عمرو : من كان يحملها فى الجاهلية ، قالوا أصبت ، وهو النعمان بن الزرافة اللهبى[2] وصلت الأزد الطائف بعد وصول النبى ﷺ إليها بأربعة أيام[3] .

النبى يتحرك إلى الطائف

وهكذا بعد انتهاء معركة حنين على النحو الذى انتصر فيه المسلمون ذلك الانتصار الساحق على هوازن ، وبعد أن أرسل النبى ﷺ بالغنائم والسبى إلى الجعرانة (قرب مكة) أخذ فى مطاردة القوات الرئيسية من هوازن بنفسه . وكانت هذه القوات من ثقيف الذين لجأوا إلى حصنهم واعتصموا به فى الطائف .

خالد على مقدمة الجيش إلى الطائف :

وعندما قرر الرسول ﷺ التحرك إلى الطائف لمطاردة ثقيف جعل خالداً

(١) سورة هود ١١٤.

(٢) لم أجدْ له ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

(٣) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٢٣ .

ابن الوليد على مقدمة الجيش ، وكان خالد دائماً منذ خرج الجيش النبوى من مكة إلى حنين ــ على الخيل . كما أن الرسول ﷺ استخدم الأدلاء العارفين بالطرق ليسيروا أمام الجيش فى طريقه إلى الطائف .

وما زال الرسول ﷺ يقوم بعملية المطاردة حتى وصل الطائف . وقد سلك الرسول بالجيش إلى الطائف وادى نخلة المعروف اليوم (باليمانية) كما سلك وادى لية المشهور .

قال الواقدى : وقدم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من حنين على مقدمته وأخذ يسلك به من الأدلاء إلى الطائف ، فانتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف .. وكانت ثقيف قد رمّوا (أى أصلحوا) حصنهم ، ودخلوا فيه منهزمين من أوطاس وأغلقوه عليهم ــ وهو حصن على مدينتهم له بابان ــ وصنعوا الصنائع للقتال وتهيأوا ، وأدخلوا حصنهم ما يصلحهم لسنة لو حوصروا .

وقال ابن إسحاق : ولما قدم فلّ[1] ثقيف الطائف أغلقوا أبواب مدينتها وصنعوا الصنائع للقتال .

ولم يشهد حنينا ولا حصار الطائف عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات[2] والمجانيق[3] والضّبور[4] ثم سار ، رسول الله ﷺ إلى الطائف حين فرغ من حنين ، فسلك على نخلة اليمانية ، ثم على قرن ثم على المليح ، ثم على بحرة الرّغاء من ليّة فابتنى بها مسجداً فصلى فيه . ثم إنه أقاد يومئذ ببحرة الرغاء ، حين نزلها ، بدم ، وهو أول دم أقيد به فى الإسلام ، رجل من بنى ليث قتل رجلاً من هذيل ، فقتله به ، وأمر رسول الله ﷺ وهو بليّة بحصن مالك بن عوف (قائد هوازن) فهدم ، ثم سلك فى طريق يقال لها : الضيقة ، فلما توجه سأل عن اسمها ؟ فقيل له : الضيقة .

(١) الفل (بفتح أوله) : الجماعة المنهزمون من الجيش .

(٢) قال السهيلى : الدبابات ، من آلات الحرب ، يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها .

(٣) المجانيق : جمع منجنيق (بفتح الميم وكسرها) : وهى آلات الحصار يقذف بها المحاربون النار والحجارة ونحوها .

(٤) الضبور قال فى كتاب العين : جلود يغشى بها خشب يتقى بها فى الحرب وهى تشبه الدبابات المعدة لنقب الأسوار .

فقال : بل هى اليسرى ، ثم خرج منها على نخب ، حتى نزل سدرة يقال لها : الصادرة قريباً من مال رجل من ثقيف ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ : إما أن تخرج ، وإما أن نخرب عليك حائطك ، فأبى أن يخرج فأمر رسول الله ﷺ بإخرابه[1] .

بداية حصار الطائف

ثم واصل الرسول ﷺ التحرك بجيشه نحو الطائف بعد أن بلغه أن ثقيفاً قد اعتصموا به ، وكانوا محاربين أشداء شديدى التعصب لإلههم (اللات) التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم .

وقد عسكر الرسول ﷺ بجيشه تمهيداً لاقتحام قلاع الطائف فى مكان مكشوف غير استراتيجى وقريب من الحصون الثقفية ، وكانت ثقيف يجيدون الرمى بالسهام والقذف بالحراب من على الأبراج ، فما كاد الجيش الإسلامى يحط أثقاله فى معسكره الأول حتى تعرّض لقصف شديد من النبال التى انهالت على الجيش الإسلامى كأنها الجراد ، وقد أصيب من المسلمين (نتيجة هذا القصف) أناس كثير ، الأمر الذى حمل الرسول ﷺ على أن يبدل معسكره ، حيث عسكر فى مكان بحيث يكون جنده فى مأمن من سهام العدو .

وكان هذا التحوُّل بمشورة المحارب المجرِّب الأنصارى الشهير (الحُباب بن المنذر)[2] صاحب الفكرة يوم بدر والتى بموجبها غير الرسول ﷺ موقعه الأول بعد أن عمل بمشورة (الحباب بن المنذر) فعسكر فى أرض استراتيجية منها أدار الرسول ﷺ معركة بدر الكبرى وتم له الانتصار فيها . كما كان كذلك (الحباب بن المنذر) المشير على الرسول ﷺ فى حصار اليهود بخيبر ، بتغير موقعه الذى كان قد عسكر فيه لمحاصرة اليهود وأصيب من أصحابه بسهام اليهود التى قصفوهم بها من أبراج القلاع ، خلق كثير ، وكذلك فعل الحباب فى حصار الطائف ، حين رأى الرسول ﷺ يعسكر فى مكان كان من

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٢٣/ ٩٢٤ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٢١ و ١٢٥ .
(٢) انظر ترجمة الحباب بن المنذر فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

وجهة الخبير العسكرى الحباب بن المنذر ، غير مناسب لأن يكون معسكراً لفرض الحصار على حصون ثقيف .

قال الواقدى : ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من حصن الطائف ، فيضرب عسكره هناك ، فساعة حلّ رسول الله ﷺ وأصحابه جاءه الحباب ابن المنذر . فقال : يا رسول الله : إنا قد دنونا من الحصن ، فإن كان عن أمر سلمنا ، وإنْ كان عن الرأى فالتأخر عن حصنهم ، فأسكت رسول الله ﷺ [1] .

ولكن الرسول ﷺ عمل فى النهاية برأى الحباب بن المنذر ، حيث استدعاه وطلب منه (بصفته خبير مجرّب) أن يختار مكاناً صالحاً لأن يعسكر فيه الجيش فى مأمن ، من سهام العدو . وذلك بعد أن أصيب عدد من جند الإسلام بجراح من جراء قصف النبال الثقفية .

ولنترك أحد الصحابة الكبار ممن حضر حصار الطائف وهو (عمرو بن أمية الضمرى)[2] يصف لنا بداية الحصار وتحويل موقع العسكر بمشورة الحباب بن المنذر . قال عمرو : لقد طلع علينا نبلهم ساعة نزلنا شىء الله به عليم . كأنه رِجْل[3] من جراد ، وترّسنا لهم ، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، ودعا رسول الله ﷺ الحباب فقال : انظر مكاناً مرتفعاً مستأخراً عن القوم . فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف خارج من القرية . فجاء إلى النبى ﷺ فأخبره فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتحولوا . قال عمرو بن أمية : إنى لأنظر إلى أبى مِحجَن يرمى من فوق الحصن بعشرته[4] بمعابل[5] كأنها الرماح ، ما يسقط له سهم .

قالوا : وارتفع رسول الله ﷺ عند مسجد الطائف اليوم ، ويصفون خرافة جاهلية قبيحة لجأت إليها ثقيف ضمن الدفاع عن حصنها . قالوا : وأخرجت ثقيف امرأة ساحرة فاستقبلت الجيش بعورتها ـــ وذلك حين نزل الرسول

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٢٥ .

(٢) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة أحد) .

(٣) الرجل (بكسر الراء) : الشىء الكثير جداً ويختص بالجراد فقط .

(٤) العشرة (بكسر العين) : الصحبة .

(٥) المعابل : جمع معبلة : وهى نصال طوال عراض ، يرمى بها المتحصنون فى القلاع عادة .

ﷺ ـــ يدفعون بتلك الخرافة عن حصنهم .

فلما تحول الرسول ﷺ إلى الأكمة التى اختارها الحباب بن المنذر ، وسار المسلمون إلى الحصن ، فخرج قدام الناس يزيد بن زمعة بن الأسود[1] على فرسه ، فسأل ثقيفاً الأمان يريد أن يكلمهم ، فأعطوه الأمان ، ولكنهم غدروا به ، ذلك أنه لما دنا من حصنهم رموه بالنبل فقتلوه . فكان أول شهيد من المسلمين فى حصار الطائف .

مصرع قاتل يزيد بن زمعة

وقد أوقع الله بالذى غدر بالشهيد يزيد بن زمعة (وهو هذيل بن أبى الصلت) أخو الحكيم والشاعر المشهور (أمية بن أبى الصلت) ، فقد خرج هذيل هذا من الحصن خلسة ، لقضاء حاجة له ، وهو يظن أن المسلمين لا يراه منهم أحد ، غير أن يعقوب بن زمعة[2] ، أخو الشهيد (يزيد بن زمعة) كان له بالمرصاد ، حيث كمن له عند باب الحصن ، وعندما خرج هذيل بن أبى الصلت ، قبض زمعة عليه وأسره ، ثم أتى به رسول الله ﷺ وقال : هذا قاتل أخى يا رسول الله ، فأمكنه الرسول ﷺ منه ، فضرب عنقه .

محاولة المسلمين اقتحام حصن الطائف

وقد بذل الجيش الإسلامى جهوداً مضنية لاقتحام حصن الطائف وفتحه ، ولكنَّ مقاومة ثقيف كانت عنيفة ومركزة .

ولمحاولة التأثير على الثقفيين وإضعافهم بغية إجبارهم على التسليم . استخدم الجيش النبوى المنجنيق فضرب به قلاع الطائف وتهديم ما يمكن تهديمه منها .

(١) هو يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى القرشى الأسدى ، أمه قريبة بنت أبى أمية المخزومية أخت أم سلمة زوج النبى ﷺ . أسلم قديماً ، وكان ممن هاجر إلى الحبشة ، وصحب النبى وروى عنه الحديث كانت إليه المشورة فى الجاهلية ، وذلك أن قريشاً لا يبتون فى أمر إلا عرضوه عليه . فإن رضيه سكت ، وإن لم يرضه كانوا له أعواناً حتى يرجع إلى مكان من أشراف قريش .

(٢) هو يعقوب بن زمعة بن الأسود . قال ابن الأثير فى أسد الغابة أورده جعفر فى الصحابة . وروى عن عبد الرزاق عن ابن جريج عن عمرو بن شعيب عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : بينا نحن مع رسول الله ﷺ إذ خرج حمار من شعب أبى دب فأمسك النبى ولم يكبر ، وأحاز إليه يعقوب ابن زمعة أخو بنى أسد حتى رده .

بغية فتح الطريق من ثغرات فى الأسوار ليقتحم الجيش الإسلامى الحصون .

ولكن يظهر أن سلاح المنجنيق لم يؤثر التأثير المطلوب فى قلاع الطائف . فظل الثقفيون ومن معهم من هوازن صامدين فى حصونهم ، وكانوا رماة نبل مشهورين بإصابة الهدف .

وقد قامت عناصر من الجيش بمحاولة جريئة ، بغية إيجاد السبيل لجمهرة الجيش كى يقتحموا الحصن فيختصروا متاعب الحرب .

وهذه المحاولة الجريئة هى أن مجموعة (يمكن تسميتهم بالفدائيين) زحفوا (متسترين وراء الدبابات) على الحصن حتى وصلوا إلى أسواره ، محاولين (تحت حماية الدبابات) إحداث فتحات فى السور عن طريق نقبه ، حتى يتمكن العسكر الإسلامى من الدخول إلى الحصن ، وهناك يضعون حداً للحرب ، لأن المسلمين على ثقة بأنهم سيتغلبون على المشركين إذا ما تمكنوا من اقتحام الحصن والتحموا معهم فى معركة فاصلة .

زرع الحسك حول قلاع الطائف

ومن جهة أخرى (ولكى تعطل تحركات الثقفيين) قامت قيادة الجيش الإسلامى ببث الحسك حول قلاع الطائف . (والحسك ـــ بفتح أوله وثانيه ـــ: قطع من الحديد صغيرة على هيئة شوك الحسك النباتى ذوى الإبر الحادة المتعددة ، وهو من أدوات الحرب يلقى به حول المعسكرات والحصون ليعيق تحركات العدو ، فيؤذى المشاة ويعطل حركات الخيل ، لأنه يعلق بحوافرها فيؤلمها فلا تقوى على الجرى) .

وقد لجأ المسلمون إلى استخدام الحسك كوسيلة من وسائل تعويق تحركات العدو ، بإيقاعه فى حقول الحسك إذا ما حاول رجاله الهجوم على الفدائيين الذين تحركوا ـــ تحت حمايات الدبابات ـــ لنقب أسوار الحصن الرئيسى لثقيف .

فشل الهجوم الفدائى على حصن ثقيف

غير أن محاولة الفدائيين المسلمين لفتح الثغرات فى جدار الحصن قد فشلت . فقد تنبه الثقفيون للمحاولة (وكانوا مسلحين بأسلحة دفاعية ثقيلة

من قاذفات للهب وغيرها) فأحبطوها ، حيث سلطوا آلاتهم الراجمة بالنار على دبابات الفدائيين الذين وصلوا أسوار الحصن ، فأحرقوا الدبابات التى كان يتستر بها الفدائيون . فانكشف هؤلاء الفدائيون ، فقصفهم الثقفيون بسهامهم وأحرابهم ، وأحدثوا بينهم بعض الإصابات ما بين قتيل وجريح ، وهنا اضطر الفدائيون إلى التراجع إلى معسكر الإسلام .

قال أصحاب السير : فنصب رسول الله ﷺ المنجنيق . وشاور رسول الله ﷺ أصحابه . فقال له سلمان الفارسى(١) يا رسول الله أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم ، فإنا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون وتنصب علينا ، فنصيب من عدونا ويصيب منا بالمنجنيق ، طال الثواء ، فأمره رسول الله ﷺ فعمل منجنيقاً بيده ، فنصبه على حصن الطائف . وذلك بالإضافة إلى منجنيق ودبابتين قدم بهما الطفيل بن عمرو الدوسى . ونشر رسول الله ﷺ الحسَك حول حصنهم ، ودخل المسلمون تحت الدبابة وهى جلود من جلود البقر ، وذلك يوم يقال له : الشدخة قيل : وما الشدخة ؟ قالوا : ما قتل من المسلمين ـــ دخلوا تحت الدبابات ، ثم زحفوا بها إلى جدار الحصن ليحفروه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فحرّقت الدبابات ، فخرج المسلمون من تحتها ، وقد أصيب منهم من أصيب ، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتل منهم رجال(٢) .

---

(١) هو سلمان الفارسى ، ويكنى أبو عبد الله ، ويعرف بسلمان الخير ، مولى رسول الله ﷺ ، وسئل سلمان عن نسبه ، فقال : أنا سلمان بن الإسلام . أصله من فارس رام هرمز وكان اسمه قبل الإسلام (مابه ابن يوذخشان بن مورسلان بن يهوذان بن فيروز بن سهرك من ولد آب الملك ، وكان ببلاد فارس مجوسياً سادن النار . ثم هداه الله للإسلام فجاء من بلاد الفرس يبحث عن دين التوحيد حتى وصل المدينة فأسلم فى قصة شيقة مطولة (انظرها فى أسد الغابة والإصابة والاستيعاب والحلية لأبى نعيم) . كان سلمان من عظماء الصحابة ، وكان فى مقدمة الزهاد بينهم . وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ . (سلمان منا أهل البيت) . كان سلمان صاحب فكرة حفر الخندق لحماية المدينة من هجوم الأحزاب (انظر كتابنا غزوة الأحزاب) ، كان عطاؤه من بيت المال خمسة آلاف ، فإذا استلمه فرقه على المحتاجين . وكان لا يأكل إلا من كسب يده حيث كان (وهو أمير بالعراق) يسف الخوص به ويبيعه ويأكل من ثمنه . توفى سلمان فى آخر خلافة عثمان سنة خمس وثلاثين ، وفى أسد الغابة عن أهل العلم : أن سلمان عاش ثلاثمائة وخمسين سنة ، وقال أبو نعيم فى الحلية : كان سلمان الفارسى من المعمرين .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٢٦ ، ومعازى الواقدى ج ٣ ص ٩٢٧ ـــ ٩٢٨

خروج بعض مقاتلى ثقيف من الحصن وإسلامهم :

وأثناء حصار الطائف خرج من الحصن من ثقيف (من مواليهم) بضعة عشر رجلاً وانضموا إلى معسكر المسلمين وأسلموا ، وذلك بعد أن نادى منادى رسول الله ﷺ بأن أى عبد نزل من الحصن ووصل إلى معسكر المسلمين فهو حر .

قال الواقدى : ونادى منادى رسول الله ﷺ أيما عبد نزل من الحصن فهو حرّ ، فخرج من الحصن بضعة عشر رجلاً .

أبو بكرة[1] والمنبعث[2] ــ وكان اسمه المضطجع فسماه رسول الله ﷺ المنبعث حين أسلم ، وكان عبد العثمان بن عمار بن معتب .. كما خرج الأزرق ابن عقبة بن الأزرق ، وكان عبداً للكلدة الثقفى من بنى مالك ، ثم صار حليفاً فى بنى أمية فنكحوا إليه وأنكحوه . ووردان عبد لعبد الله بن ربيعة الثقفى ، وهو جد الفرات بن زيد بن وردان .. ويحنس النبال وكان عبداً ليسار ابن مالك فأسلم سيده بعد ، فرد النبى ﷺ إليه ولاءه ــ فهم أعبد الطائف .. وإبراهيم بن جابر ، كان عبداً لخرشة الثقفى .. ويسار ، عبد لعثمان ابن عبد الله لم يعقب ، وأبو بكرة بفتح أوله وثانيه نفيع بن مسروح ، وكان للحارث بن كلدة ، وإنما كنى بأبى بكرة لأنه نزل فى بكرة[3] من الحصن .. ونافع أبو السائب ، عبد لغيلان بن سلمة فأسلم غيلان بعد ، فرد النبى ﷺ إليه ولاءه .. ومرزوق غلام لعثمان ، لا عقب له .

كل هؤلاء أعتقهم رسول الله ﷺ كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين

---

(١) أبو بكرة اسمه نفيع بن الحارث بن كلدة ، هو مولى الحارث بن كلدة . أسلم أبو بكرة أثناء حصار الطائف ، وكان من خيار الصحابة ومشاهيرهم . كان أبو بكرة كثير العبادة . وكان من رواة الحديث عن رسول الله ﷺ وهو الذى روى عن رسول الله ﷺ حديث : إذا التقى المسلمان فقتل أحدهما صاحبه ، فالقاتل والمقتول فى النار . قال الحسن البصرى : لم ينزل البصرة من الصحابة ممن سكنها أفضل من عمران بن حصين وأبى بكرة . توفى أبو بكرة سنة إحدى وقيل اثنين وخمسين وأوصى أن يصلى عليه أبو برزة الأسلمى .

(٢) كان اسمه المضطجع ، فسماه النبى ﷺ منبعثاً . وقد أسلم وحسن إسلامه .

(٣) البكرة (بفتح أوله وثانية : هى ما يستقى عليها من البئر . وهى خشبة مستديرة فى وسطها محز للحبل وفى جوفها محور تدور عليه ، قاله فى لسان العرب .

يمونه ويحمله . فكان أبو بكرة إلى عمرو بن سعيد بن العاص وكان الأزرق إلى خالد بن سعيد ، وكان وردان إلى إبان بن سعيد ، وكان يحنس النبال إلى عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، وكان يسار بن مالك ، إلى سعد بن عبادة .. وإبراهيم بن جابر إلى أسيد بن الحضير ، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يقرئوهم القرآن ويعلموهم السنن ، فلما أسلمت ثقيف تكلمت أشرافهم فى هؤلاء المعتقين ، فيهم الحارث بن كلدة ، يردّوهم فى الرق ، فقال رسول الله ﷺ : أولئك عتقاء الله ، لا سبيل إليهم ، وبلغ ذلك من أهل الطائف مشقة شديدة واغتاظوا على غلمانهم[1] .

ولكن هيهات هيهات ، فقد أصبح هؤلاء العتقاء ، أبناء الإسلام ، وفى كنفه ، وقد رباهم أشرف تربية ، فأخرج منهم (بعد أن ساوى بينهم وبين مالكيهم فى الحقوق) رجالاً كانوا مشاعل هداية ومصابيح إرشاد إلى دروب الخير ، ومنهم أبو بكر الصحابى المحدث الشهير والزاهد المعروف فى تاريخ الإسلام .

تصرفات سيد غطفان السيئة بالطائف

ويذكر المؤرخون أن الأحمق المطاع (وهذا لقب عيينة بن حصن الفزارى[2] سيد غطفان) كان ضمن الجيش النبوى الذى تولى حصار الطائف . وكان عيينة قد أعلن إسلامه وشهد مع الرسول ﷺ فتح مكة . إلا أن الأحداث أثبتت (حسبما يروى المؤرخون) أن هذا السيد البدوى كان (وحتى حصار الطائف) من الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم . وأنه إنما أعلن إسلامه وانضم إلى المسلمين ، طمعاً (فقط) فى أن يحصل على حظه من الغنائم والسبى ، بعد أن تأكد لديه أن كفة المسلمين هى الراجحة ، وأن لا أمل لمن يبقى على الشرك من العرب فى التغلب عليهم .

ويؤيد ما ذكرنا أن الأحمق المطاع عيينة بن حصن هذا كان أحد قادة الفتنة العارمة عندما ارتد العرب فى أواخر حياة الرسول ﷺ وأوائل خلافة أبى بكر

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٢٧ ــ ١٢٨ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٣١ ٩٣٢ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٤٧ .

(٢) أنظر ترجمة عيينة بن حصن هذا فى كتابنا (غزوة بدر) .

الصديق . فقد خاض عيينة بن حصن الفزارى هذا ، المعارك الطاحنة إلى جانب طليحة بن خويلد الأسدى ضد المسلمين فى معركة بزاخة الحاسمة .. هذا الزعيم الغطفانى الذى تألَّفه الرسول ﷺ وجعله ضمن هيئة أركان حربه لكونه سيداً مطاعاً تتبعه عشرة آلاف رمح فى نجد . فدخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح ، وعيينة هذا عن يمينه والأقرع بن حابس سيد بنى تميم عن شماله ، عيينة هذا الذى أعطاه الرسول ﷺ من غنائم حنين مائة من الإبل — تصرف أثناء حصار الطائف تصرفاً شائناً إذ قام بدور الجاسوس ضد الإسلام وجيشه الذى كان يفرض الحصار على الطائف ، وأثبت أن ظاهره مع المسلمين وباطنه مع المشركين .

فقد جاء فى كتب السير والمغازى ، أن عيينة بن حصن هذا لما طال الحصار على الطائف دون جدوى ، وعرف (كعنصر محارب فى جيش الإسلام) أن هذا الجيش لا يمكنه اقتحام معاقل الطائف لشدة تحصينها ، استأذن من الرسول ﷺ فى أن يفاوض ثقيفاً ، متظاهراً بأنه سيفاوض لصالح المسلمين ، فقال : يا رسول الله ائذن لى حتى آتى حصن الطائف ، فأكلمهم ، فأذن له الرسول ﷺ ، فجاءهم فقال : أأدنوا منكم وأنا آمن ؟ قالوا : نعم ، وعرفه أبو محجن . فقال : أدن ، فدنا ثم استأذن ثقيفاً فى أن يدخل إليهم الحصن فأذنوا له .

فلما اجتمع بهم فى الحصن (وبدلاً من أن يدعوهم إلى الإسلام وينصحهم بالاستسلام) حثَّهُمْ على الاستمرار فى مقاومة المسلمين شارحاً لهم حقيقة ما عليه المسلمون من أنهم غير قادرين على الاستمرار فى فرض الحصار عليهم . مظهراً سروره واغتباطه بما أبدته ثقيف من مقاومة عنيدة جعلت الجيش الإسلامى عاجزاً عن اختصار الحرب بفتح الحصن .

فقد قال عيينة لثقيف : فداءكم أبى وأمى ، والله لقد سرّنى ما رأيت منكم ، والله لو أن فى العرب أحداً غيركم ، والله ما لاقى محمد مثلكم قط ، ولقد ملّ المقام ، فاثبتوا فى حصنكم ، فإن حصنكم حصين ، وسلاحكم كثير ، وماءكم واتن ، لا تخافون قطعه . ثم خرج ، فلما خرج قالت ثقيف لأبى محجن : فإنا كرهنا دخوله وخشينا أن يخبر محمداً بخلل إن رآه فينا أو فى حصننا . قال أبو

محجن : أنا كنت أعرف له ، ليس أحد أشد على محمد منه وإن كان معه[1] .

وعندما عاد عيينة بن حصن إلى معسكر المسلمين حاول تضليلهم والكذب عليهم ، حيث أراد أن يوهمهم بأنه قدم النصيحة لثقيف بأن يأخذوا الأمان لأنفسهم لأن الرسول لن ينصرف عنهم حتى يقتحم عليهم معاقلهم .. ولكن الرسول ﷺ فضح عيينة وبيَّن أنه قد كذب بعد أن أطلع الله نبيه على خبية عيينة هذا .

فقد سأل الرسول ﷺ عيينة : ما قلت لهم ؟ قال : قلت : ادخلوا فى الإسلام ، والله لا يبرح محمد عقر داركم حتى تنزلوا ، فخذوا لأنفسكم أماناً ، قد نزل بساحة أهل الحصون قبلكم . قينقاع ، والنضير ، وقريظة ، وخيبر أهل الحلقة والعدة والآطام . فخذّلتهم ما استطعت — ورسول الله ﷺ ساكت عنه — حتى إذا فرغ من حديثه قال له رسول الله ﷺ : كذبت ، قلت لهم كذا وكذا ، للذى قال عيينة . فأسقط فى يده ، ولم ينكر . وقال : استغفر الله ، فطالب عمر بن الخطاب الرسول ﷺ بأن ينفذ الإعدام فى عيينة لارتكابه الخيانة العظمى . فقد قال عمر يا رسول الله ، دعنى أقدّمه فأضرب عنقه . ولكن الرسول ﷺ لم يجب عمر إلى طلبه حين قال : لا يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى .

وقد أغلظ أبو بكر الصديق يومئذ فى القول لعيينة بن حصن للذى صنع . فقال له : ويحك يا عيينة إنما أنت توضع فى الباطل ، كم لنا منك من يوم بنى النضير ، وقريظة ، وخيبر ، تجلب علينا وتقاتلنا بسيفك ، ثم أسلمت كما زعمت ، فتحرض علينا عدونا ، قال : أستغفر الله يا أبا بكر وأتوب إليه لا أعود أبداً[2] .

وهذا الخبر عن عيينة بن حصن تؤكده تصرفات سيد غطفان هذا المنكرة ، عقب وفاة النبى ﷺ حيث أعلن عيينة هذا ، الردة وقاد أول جيش

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٣٢ — ٩٣٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٢ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٤٩ .

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٣٣ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٤٨ .

متمرد مرتد لمحاربة الإسلام ، محاولاً (وهو يقود قومه فزارة وبنى أسد) أن يحتل المدينة وينهى حكم الإسلام فيها ، وذلك أثناء غياب أكثرية العسكر الإسلامى الذين كانوا قد غزوا الشام بقيادة أسامة بن زيد الكلبى .

ولكن الخليفة الأول بمساندة قبيلة مزينة الباسلة صدَّ ذلك الهجوم ودحر عيينة بن حصن والعصاة المرتدين الذين كان يقودهم .

وعندما نشبت معركة بزاخة الرهيبة بين المسلمين من جهة بقياد خالد بن الوليد ، وبين طليحة بن خويلد الأسدى . كان عيينة هذا قائداً عاماً لجيوش غطفان المرتدة ونائباً عن طليحة فى قيادة الجيوش المرتدة كلها . فى بزاخة .

وعندما وقع عيينة فى الأسر وجىء به إلى المدينة ، وانطلق صبيان المدينة يجرون خلفه ويعيّرونه قائلين : هذا المرتد عن الإسلام فيقول لهم : والله ما لامس الإسلام قلبى حتى أخرج منه . وقد اختلف المؤرخون فى أمر عيينة ابن حصن ، فمنهم من يقول : أنه جرى إعدامه كزعيم من زعماء الردة ، ومنهم من يقول : إنه أسلم وتاب وحسن إسلامه بعد أن عفّى عنه الخليفة الصديق . والله أعلم بالصواب .

خالد بن الوليد يطلب المبارزة

وذكر المؤرخون أنه أثناء حصار المسلمين للطائف برز قائد سلاح الفرسان خالد بن الوليد متحدياً شجعان ثقيف طالباً منهم المبارزة ولكنهم أحجموا ولم يخرج منهم أحد من الحصن فقد نادى خالد : من يبارز فلم يطلع إليه أحد من ثقيف وظلوا مختفين وراء أسوار وأبراج حصنهم ، وكرر ذلك النداء طالباً البراز فلم يبرز إليه أحد .

ثم (أخيراً) قام سيد ثقيف وزعيمها عبد ياليل فنادى خالداً وأبلغه أن أحداً من ثقيف لن يبرز إليه . وأنهم يفضلون الاعتصام بحصنهم قائلاً : لا ينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيم فى حصننا فإن به من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقمت حتى يذهب هذا الطعام ، خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا[١] .

(١) السيرة الحلبية .

الرسول يأمر بإتلاف بساتين ثقيف ثم يعدل عن ذلك :

لقد بذل المسلمون مجهودات كبيرة واتبعوا وسائل شتى لاختصار متاعب الحرب باقتحام أسوار الطائف وفتح قلاعها . فقذفوها بالآلات الراجمة بالحجارة الضخمة وبالنيران ، كما زحف الفدائيون منهم فى حماية الدبابات لنقب الأسوار وفتح ثغرات فيها يدخل منها جند الإسلام ، ولكنهم لم ينجحوا ، وظلت قلاع الطائف صامدة فى وجه المسلمين . لا يخرج منهم أحد من الحصن ، بل يكتفون بقذف المسلمين المحاصرين بمختلف المقذوفات من سهام ومعابل ونيران لإحراق ما يستخدمه المسلمون من سلاح ثقيل للهجوم على الأسوار . كما فعلوا حين صبوا نيرانهم على الدبابات التى استخدمها الفدائيون المسلمون للهجوم على أسوار الحصن فأحرقوها وجرحوا بعض العناصر من الفدائيين .

ويذكر بعض المؤرخين أن الرسول ﷺ لما استعصى عليهم حصن الطائف أمر بإتلاف مزروعات ثقيف بغية إزعاجهم وإجبارهم على الخروج من قلاعهم . ولكن ثقيفاً ناشدوا الرسول ﷺ الله والرحم أن لا يفعل فعدل عن إتلاف مزروعاتهم ، وبعضهم يذكر أنه أتلف بعض مزروعات ثقيف ثم أمر بإيقاف الإتلاف .

فقد ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية . أن الرسول ﷺ لما طال الحصار . وقتل عدة من أصحابه . أمر بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون(١) .

وذكر بعض المؤرخين أن النبى ﷺ لما أمر بقطع مزروعات ثقيف نادى عمر بن الخطاب سفيان بن عبد الله الثقفى : والله لنقطعن أبا عيالك ، فقال سفيان : إذا لا تذهبون بالماء والتراب ، فلما رأى نادى سفيان : يا محمد ، لم تقطع أموالنا ؟ إما أن تأخذها إن ظهرت علينا ، وإما أن تدعها لله وللرحم(٢) ، كما زعمت ، قال رسول الله ﷺ : فإنى أدعها لله وللرحم .

---

(١) السيرة الحلبية

(٢) قال فى المواهب اللدنية : أى للرحم التى بينهم وبين النبى ﷺ ، وذلك أن أمّه آمنة ، امها برة بنت عبد العزى بن قصى ، وأم برة هذه أم حبيب بنت أسعد ، وأمها برة بنت عوف ، وأمها قلابة بنت =

كما ذكر أيضاً أن اثنين من الجيش الإسلامى وهما (أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة الثقفى) ، تقدما إلى ثقيف فقالا : آمنوا حتى نتكلم ، فأمنتهما ثقيف . فدنيا من الحصن ثم ناديا نساءاً من قريش وكن فى الحصن ، وكانوا يخافون عليهن أن يقعن فى السبى ـــ منهم ابنة أبى سفيان بن حرب ، كانت تحت عروة بن مسعود ، لها منه ولد ، اسمه داود بن عروة ، والفراسة بنت سويد بن ثعلبة ـــ كانت تحت قارب بن الأسود[1]، لها منه عبد الرحمن ابن قارب ، وامرأة أخرى ، فأبين أن يخرجن .

فلما أبين عليهما ، قال لهما بنو الأسود بن مسعود : يا أبا سفيان ويا مغيرة ، ألا ندلكما على خير مما جئتما له ، إن مال بنى الأسود حيث قد علمتما ـــ وكان النبى ﷺ نازلاً بينهم وبين الطائف بواد يقال له العمق (بفتح العين وسكون الميم) ـــ ليس بالطائف مال أبعد رشاءاً ، ولا أشد مؤنة منه ولا أبعد عمارة ـــ وأن محمداً إن قطعه لم يعمر أبداً ، فكلماه ليأخذه لنفسه أو ليدعه لله وللرحم ، فإن بيننا وبينه من القرابة ما لا يجهل فكلماه فتركه رسول الله ﷺ[2] .

فك الحصار عن الطائف :

لقد بذل الجيش الإسلامى مجهودات عظيمة لاقتحام قلاع الطائف وفتحها ، ولكن الحصون كانت منيعة ، وكان الثقفيون مصممين على الصمود ويدافعون عنها بعناد ، وكانوا قد استعدوا لطول الحصار بما خزنوا من مواد غذائية تكفيهم

= الحارث ، وأم قلابة هند بنت يربوع من ثقيف .

(١) هو قارب بن مسعود بن معتب مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف الثقفى ، وهو ابن أخى سيد ثقيف (عروة بن مسعود) . كان قارب من وجوه ثقيف وقادة الحرب فيها . كانت معه راية الأحلاف يوم حاربوا النبى ﷺ فى حنين . قال فى أسد الغابة : والأحلاف أحد قبيلتى ثقيف ، فإن ثقيفاً قسمان أحدهما بنو مالك والثانى الأحلاف .. كان قارب هذا من عقلاء ثقيف وذوى البصائر .. هاجر إلى النبى ﷺ وأسلم قبل أن ترسل ثقيف وفدها . وكانت ثقيف قتلت عروة بن مسعود عندما دعاها إلى الإسلام ، ففارقها قارب وأبو مليح بن عروة غاضبين وقدما على الرسول ﷺ فأسلما . فقال لهما الرسول ﷺ توليا من شئتما فقالا : نتولى الله ورسوله : وقد اشترك قارب بن الأسود فى هدم اللات صنم ثقيف .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٤٨ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٢٨ ـــ ٩٢٩ .

لسنوات ، كما أن الماء من العيون والآبار متوفرة لديهم بكثرة .

وكان المسلمون فى العراء مكشوفين ومعرضين لسهام الثقفيين ومعابلهم . الأمر الذى يجعل المسلمين أكثر تعرضاً للخطر بينما الثقفيون فى بلادهم ومعتصمون بحصونهم عندهم أهلهم وأبناءهم . ولم تُجدِ المحاولات الجدية المضنية التى بذلها جيش الإسلام لاقتحام أسوار الطائف ، حيث كانت قوية وعالية ومنيعة ، يحميها مقاتلون ورماة ماهرون فى القصف بالنبل والمعابل . واستخدام الأسلحة الثقيلة من راجمات باللهب وغيرها .

استمر المسلمون فى محاولاتهم فتح الطائف خمسة عشر يوماً[1] وبعض المؤرخين يقول إن الحصار استمر أكثر من عشرين يوماً[2] .

وقد فقد المسلمون (وهم يجاهدون لفتح الطائف) اثنى عشر شهيداً[3] مقابل رجلين من مشركى ثقيف قتلهما المسلمون أثناء الحصار . وجميع شهداء المسلمين ، قتلوا رمياً بسهام ثقيف التى كانوا يقصفون بها المسلمين من الأبراج والأسوار .

الرسول يستشير الخبراء بشأن استمرار الحصار أو فكه

وبعد مضى خمسة عشر ليلة أو عشرين على محاصرة الطائف دونما أية نتيجة إيجابية لصالح الجيش الإسلامى تدارس الرسول ﷺ الموقف مع بعض كبار مستشاريه والخبراء فى الجيش حول ما إذا كان من المفيد استمرار الحصار أم فكه عن الطائف .

وقد انتهت المشاورات إلى اقتناع النبى ﷺ بأنه ليس من مصلحة الجيش الإسلامى الاستمرار فى الحصار . ولذلك قرر أن يفك الحصار عن الطائف ويعود إلى مكة تاركاً ثقيفاً وشأنها حتى يأتى الله بها فتدخل فى الإسلام طائعة بعد أن تجد نفسها معزولة ومحاطـة بعناصر عربية كلها دخلت فى الإسلام .

كما جاء فى بعض الآثار عن النبى ﷺ أنه لم يأذن الله فى ثقيف (أى

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٣٦ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٨٣ .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥١ .

باقتحامهم بقوة السلاح) .

فقد جاء فى الأثر : أن خولة بنت حكيم بن أمية السلمية (وهى امرأة عثمان) قالت : يا رسول الله أعطنى — إن فتح الله عليك الطائف — حلى بادية بنت غيلان بن مظعون بن سلمة ، أو حلى الفارعة بنت عقيل — وكانتا من أحلى نساء ثقيف . فقال لها رسول الله ﷺ : وإن كان لم يؤذن لى فى ثقيف يا خويلة ؟.

فذكرت خويلة ذلك لعمر بن الخطاب ، فدخل على رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، ما حديث حدثتنيه خويلة ، زعمت أنك قلته ؟ قال : قد قلته ، قال : أوما أذن لك فيهم يا رسول الله ؟ قال : (لا) قال عمر : أفلا أؤذّن بالرحيل ؟ قال بلى فأذّن عمر بالرحيل[1] .

كذلك ذكر أهل السير أن الرسول ﷺ رأى رؤيا فسّرت بأن الرسول ﷺ لن ينال من ثقيف فى حصاره لهم ما يريد . وخلاصة هذه الرؤيا أن النبى ﷺ قال لأبى بكر الصديق : إنى رأيت أنى أهديت لى قعبة[2] مملوءة زبداً ، فنقرها ديك فأهرق ما فيها . قال أبو بكر : ما أظن أن تدرك منهم يا رسول الله يومك هذا ما تريد . قال رسول الله ﷺ : وأنا لا أرى ذلك[3] .

وذكر أصحاب المغازى أن الرسول ﷺ استشار الخبير المجرّب نوفل بن معاوية الديلى[4] بشأن حصار الطائف بعد أن استعصى على المسلمين فتحها . فقال رسول الله ﷺ لنوفل بن معاوية : ما تقول أو ما ترى فى المقام عليهم ؟ فقال نوفل : يا رسول الله ، ثعلب فى جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك شيئاً[5] .

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٢٧ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٣٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٢) القعبة (بفتح القاف) : القدح .

(٣) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٣٦ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٢٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٠ .

(٤) انظر ترجمة نوفل بن معاوية فى كتابنا (فتح مكة) .

(٥) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٠ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٨٤ ومغازى الواقدى ج ٣ ص والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٢ .

ملاحاة أبى محجن وابن الخطاب

وذكر المؤرخون أن الفاروق عمر بن الخطاب جرت بينه وبين أبى محجن الثقفى (وكان يومها مشركاً) مشادّة . فقد طلع أبو محجن من على سور الطائف ونادى المسلمين : يا عبيد محمد ، إنكم والله ما لقيتم أحداً يحسن قتالكم غيرنا ، تقيمون ما أقمتم بشرّ محبّس ، ثم تنصرفون لم تدركوا شيئاً مما تريدون ، نحن قَسِى وأبونا قسا[1] والله لا نسلم ما حيينا وقد بنينا طائفاً حصيناً ، فناداه عمر بن الخطاب : يا ابن حبيب ، والله لنقطعن عليك معاشك حتى تخرج من جحرك هذا ، إنما أنت ثعلب فى جحر يوشك أن يخرج . فقال أبو محجن : إن قطعتم يا ابن الخطاب حبلات عنب ، فإن فى الماء والتراب ما يعيد ذلك . فقال عمر : لا تقدر أن تخرج إلى ماء ولا تراب ، لن نبرح عن باب جحرك حتى تموت . فقال أبو بكر الصديق : يا عمر لا تقل هذا ، فإن رسول الله ﷺ لم يؤذن له فى فتح الطائف . فقال عمر : وهل قال لك هذا رسول الله ؟ فقال : نعم ،. فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : لم يؤذن لك يا رسول الله فى فتحها ؟ قال : (لا)[2] .

تذمر الجيش النبوى لفك الحصار عن الطائف

وبعد مراجعات دقيقة واستشارات قام بها الرسول ﷺ بين بعض أصحابه بشأن الاستمرار أو عدم الاستمرار فى حصار الطائف ، بل وبعد تلقى الرسُول الوحى بعدم الإذن فى الاستمرار فى الحصار لفتح الطائف ، قرر الرسول ﷺ فك الحصار وأمر الجيش بالرحيل إلى مكة تاركاً ثقيفاً فى حصونها على أمل أن يأتى بها الله لتدخل فى الإسلام طائعة مختارة .

وقد أمر الرسول ﷺ وزيره الثانى عمر بن الخطاب أن يعلم الجيش بأنه تقرر فك الحصار عن الطائف وأن يؤذن فى الناس بالرحيل ، وقد فعل عمر ما أمره الرسول ﷺ به .

وعندما سمعت جمهرة الجيش النبوى وتلقت الأوامر بالرحيل وترك ثقيف فى

---

(١) قسى (بفتح أوله وكسر ثانيه) : لقب ثقيف . قال فى لسان العرب : لأنه مر على رغال ، وكان مصدقاً ، فقتله فقيل : قسا قلبه فسمى قسيا .

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٣٥ .

حصونها جرى بين صفوف الجيش شيء من التذمر الواضح ، فقد أظهرت بعض وحدات الجيش معارضة صريحة وأبدى بعض عناصر هذه الوحدات امتعاضاً واضحاً .. وقالوا : كيف ننصرف عن ثقيف وهى أضعف من جيوش هزمناها وأخضعناها .. ومشت بعض عناصر مِنْ الجيش مبدين اعتراضهم على الانسحاب .. مشت إلى أبى بكر وعمر وصارحتهما بهذه المعارضة وطلبت هذه العناصر من وزيرى رسول الله ﷺ أن يراجعاه كى يستمر فى محاصرة ثقيف حتى تستسلم وهى صاغرة .

وحاول أبو بكر وعمر إقناع عناصر المعارضة للانسحاب وفك الحصار ، ولكن هذه العناصر أصرَّت على أن يستمر الرسول ﷺ فى محاربة ثقيف .

ولم يغضب الرسول ﷺ لهذه المعارضة بل استمع إليها ، وأمر بمعاودة الهجوم على ثقيف (بعد إصداره الأمر بالانسحاب) ونشب القتال من جديد بين الجيش الإسلامى وبين ثقيف وكانت ثقيف (كما هو معلوم) معتصمين بقلاعهم والمسلمون مكشوفين . فرمتهم ثقيف بالنبال من على الأسوار . فأصابت عناصر من الجيش الإسلامى جراحات كثيرة دون أن يستطيعوا إحراز أى تقدم لاقتحام الطائف . وعندها اقتنع المعارضون بأن الصواب فيما قرره الرسول ﷺ من الأمر بفك الحصار عن حصون الطائف .

قال الواقدى متحدثاً عن قرار الانسحاب وظهور المعارضة فى الجيش ، ثم رجوع المعارضة وقبولها بقرار الانسحاب وفك الحصار : دخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ فقال : أو لم يؤذن لك فيهم (أى ثقيف) قال : (لا) ، قال : أفلا أؤذّن فى الناس بالرحيل ، قال رسول الله ﷺ : بلى .

فأذّن عمر بالرحيل فجعل المسلمون يتكلمون ، يمشى بعضهم إلى بعض ، فقالوا : ننصرف ولا نفتح الطائف ، لا نبرح حتى يفتح الله علينا ، والله إنهم لأذل وأقل من لاقينا جمع مكة وجمع هوازن ، ففرّق الله تلك الجموع ، وإنما هؤلاء ثعلب فى جحر، لو حصرناهم لماتوا فى حصنهم هذا .

وكثر القول بينهم والاختلاف فمشوا إلى أبى بكر فتكلموا فقال أبو بكر (رضى الله عنه) : الله ورسوله أعلم ، والأمر ينزل عليه من السماء ، فكلموا عمر فأبى

وقال : قد رأينا الحديبية ، ودخلنى من الشك ما لايعلمه إلا الله ، وراجعت رسول الله ﷺ يومئذ بكلام ليت أنى لم أفعل[1] ، وأن أهلى ومالى ذهبا ، ثم كانت الخيرة لما من الله فيما صنع ، فلم يكن فتح كان خيراً للناس من صلح الحديبية — بلا سيف ، دخل فيه من أهل الإسلام مثل من كان دخل — من يوم بعث رسول الله ﷺ إلى يوم كتب الكتاب . فاتهموا الرأى ، والخيرة فيما صنع رسول الله ﷺ ، ولن أراجعه فى شىء من ذلك الأمر أبداً ، والأمر أمر الله ، وهو يوحى إلى نبيه ما يشاء .

وقال الواقدى فى موضع آخر عن استجابة الرسول ﷺ لعناصر المعارضة من جيشه بمعاودة ثقيف للقتال ، وإذعان عناصر المعارضة لقرار فك الحصار بعد أن أصابتهم جراح كثيرة من سهام الثقفيين : (حدثنى كثير بن زيد ، عن الوليد بن رباح ، عن أبى هريرة ، قال : لما مضت خمس عشرة ليلة من حصارهم استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلى فقال : يا نوفل ما تقول أو ترى ؟ فقال نوفل : يا رسول الله ، ثعلب فى جحر ، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك شيئاً . قال أبو هريرة : ولم يؤذن لرسول الله ﷺ فى فتحها . قال : فأمر رسول الله ﷺ عمر وأذن فى الناس بالرحيل . قال : فجعل الناس يضجّون من ذلك قال رسول الله ﷺ فاغدوا على القتال ، فغدوا فأصابت المسلمين جراحات . فقال رسول الله ﷺ إنا قافلون إن شاء الله ، فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون والنبى ﷺ يضحك[2] .

عيينة بن حصن يفخر بثقيف فيزجره عمرو بن العاص

وعندما أخذ المسلمون يفكون الحصار عن الطائف ويرحلون ، نادى سعد ابن عبيد بن أسيد بن عمرو بن علاج الثقفى قال : ألا إن الحىّ مقيم ، فقال عيينة بن حصن (معجباً بمقاومة ثقيف) أجل والله مَجَدةٌ كرام .

فقال له عمرو بن العاص: قاتلك الله ، تمدح قوماً مشركين بالامتناع من

---

(١) انظر تفاصيل قصة معارضة ابن الخطاب المثيرة لصلح الحديبية فى كتابنا الخامس (صلح الحديبية) .

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٣٧

رسول الله ﷺ وقد جئت تنصره ؟ فقال عيينة : إنى والله ما جئت معكم أقاتل ثقيفاً ، ولكن أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب جارية من ثقيف فأطأها لعلها تلد لى رجلاً ، فإن ثقيفاً قوم مباركون ، وفى رواية (مناكير)[1] ، فأخبر عمرو النبى ﷺ بمقالة عيينة فتبسم ﷺ ، ولم يتخذ ضد عيينة بن حصن أى إجراء تأديبى على قوله المنكر ذاك . بل قال (فقط) رداً على ما فاه به عيينة بن حصن : (هذا الأحمق المطاع)[2] .

وهكذا فك الرسول ﷺ الحصار عن الطائف دون أن ينال من ثقيف شيئاً ، وظلوا على شركهم حتى أسلم كل من حولهم من قبائل المناطق المجاورة . فوجدوا أنفسهم فى حالة تشبه الحصار ، يعيشون وحولهم جوّ معاد يحوطهم من كل مكان ، فاضطروا إلى الدخول فى الإسلام ، فذهب منهم وفد إلى المدينة فأعلن إسلامهم وذلك عام تسع للهجرة .

دعاء الرسول ﷺ لثقيف

وعندما فك الحصار الرسول ﷺ عن الطائف وشرع فى مغادرتها ، طلب إليه بعض أصحابه أن يدعو على ثقيف ، ففعل العكس ، حيث دعا الله أن يهديهم .

فقد روى الترمذى من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبى الزبير عن جابر . أن بعض أصحاب الرسول ﷺ قالوا : يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم ، فقال اللهم اهد ثقيفاً[3] وعند بعضهم أنه ﷺ قال اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم[4] وقد أتى الله بهم إلى المدينة مذعنين مسلمين استجابة لدعوة نبيه ﷺ .

وذكر أصحاب السير أن الرسول ﷺ حين أراد أن يرتحل بالجيش ويفك الحصار عن الطائف ، قال لأصحابه قولوا : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلما ارتحلوا واستقلوا قال : آيبون إن

---

(١) مناكير : ذوو دهاء وفطنة .

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٣٧ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٢٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٠ .

(٤) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٣٧ .

شاء الله عابدون ، لربنا حامدون[1] وروى ابن كثير أن الرسول ﷺ قال فى حق ثقيف وهو يرحل عنهم : اللهم اهدهم واكفنا مؤنتهم[2] .

الشهداء فى حصار الطائف :

وأثناء حصار الطائف ، لم يفقد المشركون سوى رجلين اثنين فقط .أما المسلمون فقد استشهد منهم أثناء الحصار اثنا عشر رجلاً قتلوا جميعاً بنبال ثقيف تسعة من المهاجرين وثلاثة من الأنصار والأسماء كالآتى :

١ ـ سعيد بن سعيد بن أمية	أموى
٢ ـ حبيب بن عبد مناف الكنانى	أموى بالحلف
٣ ـ يزيد بن زمعة بن الأسود	أسدى
٤ ـ عبد الله بن أبى بكر الصديق أصابه سهم فمات متأثراً بجرحه فى المدينة	تيمى
٥ ـ عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة	مخزومى
٦ ـ عبد الله بن عامر بن ربيعة العنزى	عدوى بالحلف
٧ ـ السائب بن الحارث بن قيس	سهمى
٨ ـ عبد الله بن الحارث	سهمى
٩ ـ جليحة بن عبد الله	سعدى ليثى
١٠ـ ثابت بن الجذع	أنصارى
١١ـ الحارث بن سهل	أنصارى
١٢ـ المنذر بن عبد الله	أنصارى

طريق الرسول إلى مكة :

وبعد أن فك الرسول ﷺ الحصار عن الطائف عاد إلى الجعرانة ، حيث توجد غنائم حنين والسبى الذى وقع فى أيدى المسلمين يوم حنين .

وقد سلك الرسول ﷺ فى عودته من الطائف نفس الطريق الذى جاءها

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٣٧ .
(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٠ .

منه ، فقد سلك على دحنا[1] ثم على قرن المنازل[2] ثم على نخلة وهو المسمى اليوم (بوادى اليمانية) .

وأثناء عودة الرسول من الطائف وفى أثناء الطريق ، حدثت من الرسول ﷺ تصرفات ، كانت دروساً عملية رائعة فى شرف السلوك والعدل والإنصاف والتواضع ، ينبغى لكل قائد أو زعيم مسلم مسؤول عن فئة أو أمة أن يجعلها نصب عينيه كى تكون له نبراساً يستضىء به فى معاملة مرؤوسيه ، ليكون محل احترامهم وموضع ثقتهم ومحبتهم وتقديرهم .

فقد رأينا (أولاً) كيف أن أكثر وحدات الجيش تضجّرت ولم ترض أن يفك الرسول ﷺ الحصار عن الطائف ، بل طالبت باستمرار القتال ، رغم أن الرسول ﷺ ــ وهو القائد الأعلى ــ قد أذن مؤذنه ونادى بالرحيل عن ثقيف .

ورأينا كيف أن الرسول ﷺ لم يصر على الانسحاب الفورى من الميدان بل لكى يقنع العناصر المتذمرة فى الجيش والغير الراضية بالانسحاب ، لم يفرض عليهم إرادته ويأمر بالانسحاب بدون مراجعة ، بل أمر بمعاودة الهجوم على المشركين الثقفيين ، وعندما فشل الهجوم وتعرض الجيش لجراحات كثيرة من سهام ثقيف ، اقتنعت العناصر المتذمرة بعدم جدوى استمرار الحصار فانسحب الرسول ﷺ بالجيش وكل عناصره مقتنعة بوجاهة الانسحاب ، وهذا من الرسول درس عسكرى فى التمعن فيه فائدة كبرى لمن هم فى مراكز القيادة على أى مستوى كانوا .

مثالية الرسول ﷺ

وحدث أبو رهم[3] الغفارى بأنه كان (وهم عائدون من الطائف) إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة له ، وفى رجله نعلان غليظتان ، إذ زحمت ناقته ناقة رسول الله ﷺ ووقع حرف نعله على ساق رسول الله ﷺ فأوجعه . فقال الرسول : أوجعتنى أخرّ رجلك ، وقرع رجله بالسوط . قال :

(١) دحنا (بفتح أوله وسكون ثانيه): مخلاف من مخاليف الطائف .

(٢) قرن المنازل جبيل صغير يحرم منه حجاج نجد وهو السيل الكبير .

(٣) انظر ترجمة أبى رهم فى كتابنا (غزوة خيبر) .

فأخذنى من أمرى ما تقدم وما تأخر ، وخشيت أن ينزل فىّ القرآن العظيم لعظيم ما صنعت ، فلما أصبحنا بالجعرانة خرجت أرعى الظهر[1] وما هو يومى ، فرقاً أن يأتى النبى ﷺ وحى ، ورسول الله يطلبنى ، فلما روّحت الركاب سألت ، فقالوا طلبك رسول الله ﷺ . فجئته وأنا أترقب فقال : إنك أوجعتنى برجلك فقرعتك بالسوط ، فخذ هذه الغنم عوضاً من ضربتى . قال أبو رهم : فرضاه عنى كان أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها .

وكان عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى[2] يقول : كنت مع النبى ﷺ فى مسيره (أى من الطائف) وهو يحادثنى ، فجعلت ناقتى تلتصق بناقته ، وكانت ناقتى شهمة[3] فجعلت أريد أن أنحيها فلا تطاوعنى ، فلصقت بناقة النبى ﷺ وأصيبت رجله فقال : (أخ) أوجعتنى ، فرفع رجله من الغرز كأنها جمارة[4] ، ودفع رجلى بمحجن فى يده ، فمكث ساعة لا يتحدث ، فو الله ما نزلت حتى ظننت أن سينزل فىَّ عذاب ، قال : فلما نزلت قلت لأصحابى : إنى أرعى لكم ، ولم يكن ذلك يوم رعيتى ، فلما أرحت الظهر عليهم قلت : هل جاء أحد يبغينى ؟ فقالوا : رسول الله ﷺ جاء يبغيك . فقلت فى نفسى : هى والله هى ، قلت : من جاء ؟ قالوا . رجل من الأنصار . قال : فكان أكره إلىّ ، وذلك أن الأنصار كانت فيهم علينا غلظة . قال : ثم جاء بعده رجل من قريش يبغينى . قال : فخرجت خائفاً حتى واجهت رسول الله ﷺ فجعل يبتسم فى وجهى . وقال : أوجعتك بمحجنى البارحة . ثم قال : خذ هذه القطعة من الغنم فأخذتها فوجدتها ثمانين شاة ضائنة[5] .

كذلك حدث أبو زرعة الجهنى[6] فقال : لما أراد رسول الله ﷺ أن

---

(١) الظهر (بفتح أوله وسكون ثانيه): الإبل المعدة للركوب .

(٢) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة خيبر) .

(٣) ناقة شهمة : أى جلدة .

(٤) الجمارة (بضم الجيم) قلب النخلة وشحمتها ، شبه ساقه ببياضها .

(٥) الضأن من الغنم : ذو الصوف ، والأنثى ضائنة .

(٦) قال فى أسد الغابة : هو أبو زرعة القزعى الرمالى أخرجه ابن طرخان فى وحدان الصحابة ، روى عن يحيى بن الإصبع بن مهران القزعى من خثعم ، حدثنى خزام بن عبد الرحمن عن أبى زرعة القزعى =

يركب من قرن المنازل راحلته القصوى وطئت له على يديها ، والزمام فى يدى مطوىّ ، فركب على الرّحل وناولته الزمام ، ودرت من خلفه فخلف[1] الناقة بالسوط ، كل ذلك يصيبنى ، فالتفت إلىَّ فقال : أصابك السوط ؟ قلت نعم بأبى وأمى ، قال : فلما نزل الجعرانة إذا ربضة[2] من الغنم ناحية من الغنائم . فسأل عنها صاحب الغنائم فخبره عنها بشىء لا أحفظه ، ثم صاح : أين أبو زرعة ؟ قال : قلت : ها أنا ذا ، قال : خذ هذه الغنم بالذى أصابك من السوط أمس . قال : فعددتها فوجدتها عشرين ومائة رأس . قال : فتأثّلت[3] بها مالاً .

قصة سراقة بن جعشم المثيرة

كان سراقة بن جعشم[4] المدلجى فارساً ممتازا . وعندما أعلنت قريش منح جائزة مالية قدرها مائة ناقة ، لمن يأتى بالرسول ﷺ حياً أو ميتاً ، وذلك عندما نجح فى الإفلات من قبضتهم وهاجر إلى المدينة .. عند ذلك الإعلان الغاشم ركب سراقة فرسه وأخذ سلاحه (بعد أن علم بالمكان الذى فيه الرسول ﷺ سائراً نحو المدينة) قاصداً قتله أو إلقاء القبض عليه ففشل ولم يمكنه الله مما أراد . فأيقين أن الله مانع رسوله من شر قريش . فاعترف للرسول بأنه جاء لاعتقاله أو قتله ، ولكن كل ما طلبه من الرسول أن يكتب له أماناً يبرزه عند اللزوم ، فأمر الرسول (يومها) أبا بكر فكتب له ما طلب فى كتف بعير . فاحتفظ سراقة بهذه الوثيقة وثيقة الأمان المكتوبة فى كتف البعير[5] . ومرت السنون وعلا شأن النبى ﷺ حتى توجت انتصاراته بتغلبه على هوازن فى أعظم معركة حربية وهى معركة حنين .

= أن النبى ﷺ عقد له راية رقعة بيضاء ذراعاً فى ذراع أخرجه أبو موسى .. قلت ذكر الواقدى أن أبا زرعة هذا كان حامل إحدى رايات جهينة يوم الفتح (انظر كتابنا فتح مكة ص ١٦١) .

(١) خلفها : أى ضربها بسوطه على خلفها .

(٢) الربضة (بكسر الراء): الجماعة .

(٣) تأثل مالاً : اكتسبه واتخذه وثمره .

(٤) انظر ترجمة سراقة فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٥) انظر تفاصيل هذه المطاردة المثيرة فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

وجاء دور إظهار سراقة وثيقة الأمان كى ينجو من أى سوء قد يعترض له من الجيش المنتصر ، فأبرز سراقة تلك الوثيقة للرسول ﷺ وهو عائد من الطائف فوفّى له بما فيها ، ولنترك الصحابى سراقة بن مالك نفسه يحدثنا حديثه الشيق . قال سراقة : لقيت رسول الله ﷺ ، وهو منحدر من الطائف إلى الجعرانة ، فتحصلت[١] ، والناس يمضون أمامه أرسالاً[٢] فوقعت فى مقنب[٣] من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرعونى بالرماح ويقولون : إليك ، إليك ، ما أنت ؟ وأنكرونى حتى إذا دنوت وعرفت أن الرسول ﷺ يسمع صوتى ، أخذت الكتاب الذى كتبه أبو بكر ، فجعلته بين إصبعين من أصابعى ، ثم رفعت يدى وناديت : أنا سراقة بن مالك بن جعشم ، وهذا كتابى ، فقال رسول الله ﷺ : يوم وفاء ، أدنوه ، فأدنيت منه ، فكأنى أنظر إلى ساق رسول الله ﷺ فى غرزه كأنها جمارة ، فلما انتهيت إليه سلمَت ، وسقت إليه الصدقة، فما ذكرت شيئاً أسأله عنه إلّا أنى قلت : يا رسول الله ، أرأيت الضالة من الإبل ترد حياضى وقد ملأتها لإبلى ، هل لى من أجر إن أسقيتها ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم فى كل ذات كبد حَرَّى[٤] أجر[٥] .

وقفة فقهية

وأثناء عودة النبى ﷺ من حصار الطائف ، اعترض رجل من أسلم معه غنم ، ورسول الله ﷺ على راحلته ، فقال :يا رسول الله : هذه هدية قد أهديتها لك ، قال : وممن أنت ؟ قال : رجل من أسلم . قال : إنى لا أقبل هدية من مشرك ، قال : يا رسول الله إنى مؤمن بالله وبرسوله ، قد سقت الصدقة إلى بريدة بن الحصيب[٦] لمالى بعينه مصدقاً .

قال : وأقبل بريدة فلحق بالنبى ﷺ فقال : صدق ، هذا من قومى

---

(١) تحصلت . أى تجمعت وتثبت .

(٢) أرسالاً : أى أفواجاً متقطعة يتبع بعضهم بعضاً ، وأحدهم ، رسل .

(٣) المقنب (بكسر الميم) : قال فى الصحاح : ما بين الثلاثين إلى الأربعين من الخيل .

(٤) قال فى النهاية : الحرى . فعل من الحر ، والمعنى أن تسقى كل ذى كبد حرى أجراً .

(٥) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٣٩ ـــ ٩٤٠ .

(٦) انظر ترجمة بريدة بن الحصيب فى كتابنا (فتح مكة) .

شريف ، ينزل بالصفاح[1] . قال : فما أقدمك إلى نخلة ؟ قال : هى أمرع[2] من الصفاح اليوم ، ثم قال : نحن على ظهر كما ترى ، فألحقنا بالجعرانة ، قال فخرج يعدو عراض[3] ناقة رسول الله ﷺ وهو يقول : يا رسول الله ، فأسوق الغنم معى إلى الجعرانة ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا تَسُقْها ، ولكن تقدم علينا الجعرانة فنعطيك غنماً أخرى إن شاء الله .

ثم سأل الأسلمى رسول ﷺ عن شيء مما يهمه فى دينه فقال : يا رسول الله ، تدركنى الصلاة وأنا فى عطن[4] الإبل ، أفأصلى فيه ؟ قال : لا . قال فتدركنى وأنا فى مراح الغنم ، أفأصلى فيه ؟ قال : نعم . قال : يا رسول الله ، ربما تباعد منا الماء ومع الرجل زوجته فيدنو منها ؟ قال : نعم ، ويتيمم . قال : يا رسول الله ، وتكون فينا الحائض قال : تتيمم . قال : فلحق النبى ﷺ بالجعرانة فأعطاه مائة شاة[5] .

هل استسلمت ثقيف لوحدات من جيش الرسول بعد انصرافه عنها ؟

هكذا انتهى حصار الطائف . فانصرف الرسول ﷺ عنها دون أن يتمكن جيشه من فتحها . هذا بإجماع المؤرخين وأهل السير .

غير أن هناك روايات تذكر أن وحدات من جيش الإسلام فرضت الحصار على الطائف من جديد بعد انصراف الرسول ﷺ عنها ، وأن هذه الوحدات التى جاءت (فى شكل نجدات للجيش النبوى بعد انصرافه) قد ضيقت الحصار على ثقيف حتى استسلمت لهذه الوحدات ، ونزلت على حكم رسول الله ﷺ . وأن ذلك قد تم بقيادة صخر[6] أبى العيلة الأحمسى الذى جاء إلى الطائف بقومه (أحمس[7] ، وكانوا من الفرسان) .

---

(١) الصفاح. قال فى الصحاح : موضع بين حنين وأنصاب الحرم على يسرة الداخل إلى مكة من مشاش .

(٢) أمرع : أى أخصب ، والمريع : الخصيب .

(٣) أى يسير حذاءه معارضاً له .

(٤) العطن (بفتح العين والطاء) : مبرك الإبل حول الحوض .

(٥) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٤٢ .

(٦) هو صخر بن العيلة بن عبد الله بن ربيعة بن عمرو بن على بن أسلم بن أحمس البجلى عداده فى أهل الكوفة . وروى عنه عثمان بن أبى حازم عن أبيه عن جده صخر بن العيلة .

(٧) أحمس . قال فى معجم قبائل العرب : بطن من أنمار بن أراش من القحطانية وهؤلاء هم قوم صخر بن العيلة ، وأحمس أيضاً : بطن من ضبيعة بن ربيعة بن نزار من العدنانية .

فقد روى أبو داود فقال : حدثنا عمر بن الخطاب أبو حفص حدثنا الفرياني حدثنا أبان حدثنا عمرو ــ هو ابن عبد الله بن أبي حازم ــ عن أبيه عن جده صخر ــ هو أبي العيلة الأحمسي ــ أن رسول الله ﷺ غزا ثقيفاً ، فلما أن سمع ذلك صخر ، ركب فى خيل يمد رسول الله ﷺ ، فوجده قد انصرف ولم يفتح ، فجعل صخر حينئذ عهدا وذمة ، لا يفارق هذا القصر (يعنى الطائف) حتى ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، ولم يفارقهم حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ .

وكتب إليه صخر : أما بعد فإن ثقيفاً قد نزلت على حكمك يا رسول الله ، وأنا مقبل بهم فى خيلى ، فأمر رسول الله ﷺ بالصلاة جامعة ، فدعا لأحمس عشر دعوات (اللهم بارك لأحمس فى خيلها ورجالها) .

وأتى القوم فتكلم المغيرة بن شعبة (الثقفى) فقال : يا رسول الله إن صخراً أخذ عمتى ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ، فدعاه فقال : يا صخر إن القوم إذا أسلموا أحرزوا دماءهم وأموالهم ، فادفع إلى المغيرة عمته . فدفعها إليه ، وسأل رسول الله ﷺ ماء لبنى سليم قد هربوا عن الإسلام وتركوا ذلك الماء . فقال : يا رسول الله أنزلنيه أنا وقومى ؟ قال : نعم .

فأنزله وأسلم الأسلميون ، فأتوا صخراً فسألوه أن يدفع إليهم الماء فأبى ، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله أسلمنا وأتينا صخراً ليدفع إلينا ماءنا فأبى علينا ، فقال رسول الله ﷺ : يا صخر إن القوم إذا أسلموا أحرزوا أموالهم ودماءهم فادفع إليهم ماءهم . قال : نعم يانبى الله ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغير عند ذلك حمرة حياء من آخذ الجارية وأخذه الماء ، تفرد به أبو داود[1] .

قال الإمام ابن كثير فى البداية والنهاية (معقباً على قصة ثقيف وصخر أبى العيلة) : قلت : وكانت الحكمة الإلهية تقتضى أن يؤخر الفتح عامئذ لئلا يستأصلوا قتلاً ، لأنه قد تقدم أنه ﷺ لما كان خرج إلى الطائف فدعاهم إلى الله تعالى وإلى أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل ، وذلك بعد موت

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥١ ــ ٣٥٢ .

عمه أبى طالب فردوا عليه قوله وكذبوه ، فرجع مهموماً ، فلم يستفق إلا عند قرن الثعالب[١] فإذا هو بغمامة فيها جبريل ، فناداه ملك الجبال . فقال : يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام ، وقد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ؟ فقال رسول الله ﷺ : بل استأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئاً .

فناسب قوله : بل استأنى بهم أن لا يفتح حصنهم لئلا يقتلوا عن آخرهم وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين فى رمضان من العام المقبل (أى عام تسع للهجرة) . وهو العام الذى وفد فيه سادات ثقيف إلى المدينة فأعلنوا إسلامهم وإسلام ثقيف . وسياق الإمام أبى داود فى صحيحه يدل على أنهم إنما وفدوا بعد أن حل بساحتهم صخر أبو العيلة وقومه الأحمس من بجيلة ولم يفك الحصار عنهم حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأتى بهم المدينة فأسلموا ، فأحرزوا دماءهم وأموالهم وصاروا قوة للإسلام والله أعلم .

الغنائم والسبى فى الجعرانة

كان المسلمون قد غنموا بعد انتصارهم فى موقعة حنين غنائم عظيمة بلغت من الماشية وحدها (وهى أغلى ما يملك العرب فى ذلك العصر) خمسة وعشرين ألف بعير وأربعين ألف شاة وشيئاً عظيم من الفضة ، كما وقع فى يد الجيش الإسلامى ستة آلاف من السبى نساءاً وأطفالاً .

وكان هؤلاء السبى الذين أصبحوا مماليك الجيش الإسلامى كما هى شرعة الحرب فى الإسلام ، والتى لم ير هذا الدين مناصاً من العمل بها كإجراء حربى مقابل ، لأن رقيق الحرب عملة عالمية يتعامل بها كل المحاربين فى العالم آن ذاك[٢] كان كل هؤلاء السبى من هوازن وهم أخوال الرسول ﷺ من الرضاعة ، وقد حررهم جميعاً كما سيأتى تفصيله فيما يلى فى هذا البحث .

وكان رسول الله ﷺ بعد انتصاره فى معركة حنين . وحين قرر أن يطارد أهم أجنحة هوازن المنهزمة الطائف وهى ثقيف ــ أمر بالتحفظ على الغنائم

---

(١) قرن الثعالب هو قرن المنازل .

(٢) انظر تفاصيل موقف الإسلام من الرق فى كتابنا (غزوة بنى قريظة) .

والسبى فى الجعرانة حتى يعود من مطاردة الثقفيين . وكان الرسول القائد ﷺ قد أسند أمر التحفظ على الغنائم والسبى إلى بديل بن ورقاء (وهو أحد زعماء خزاعة حلفاء النبى التقليديين) . كما أسند أمر العناية بالسبى من النساء والأطفال المحتجزين فى الحظائر إلى بُسر بن سفيان الخزاعى[1] .

بناء المساكن للسبى بالجعرانة

ولما كان السبى (بعد انتصار الجيش الإسلامى) لا يملك من أمره شيئاً بعد انهزام هوازن ، وأصبح أمانة فى عنق الجيش الإسلامى . ولما كانت تعاليم الإسلام تعاليم شفقة ورحمة وخاصة بالنسبة للأسير والمسكين ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا ﴾[2] . فقد أمر الرسول القائد ﷺ أن تبنى لهم منازل يستظلون فيها من الشمس فى الجعرانة ، حتى يعود من الطائف ، فيبت فى أمرهم .

كما أمر الرسول ﷺ المشرف على شئون مالية الجيش والإعاشة (وهو بسر ابن سفيان) أن يشترى للسبى جميعاً ثياباً فيكسوهم ، فاشتراها سفيان وكساهم كلهم .

وقال الواقدى : كان سبى هوازن من حنين ستة آلاف ، وكانت الإبل أربعة وعشرين ألفاً ، وكانت : الغنم لا يدرى عددها ، وقد قال بعضهم : إنها أربعين ألف شاة .

فلما قدم رسول الله ﷺ أمر بسر بن سفيان الخزاعى يقدم مكة فيشترى للسبى ثياباً يكسوها من برود هجر[3] فلا يخرج المرء منهم إلا كاسياً ، فاشترى بسر كسوة فكسى بها السبى كلهم[4] .

الأعراب يلحون فى تقسيم السبى والغنائم

كان السبى من النساء والأطفال من هوازن حوالى ستة آلاف . وكانت

---

(١) انظر ترجمة بسر فى كتابنا (صلح الحديبية) .
(٢) الإنسان آية ٨ .
(٣) هجر : مدينة فى البحرين يستورد مُنها البرود .
(٤) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٤٣ .

هوازن أخوال الرسول ﷺ . كانت حليمة السعدية الهوازنية أمه من الرضاعة . وكان الرسول ﷺ قد أخر تقسيم الغنائم والسبى حوالى شهر[٣] ، على أمل أن يتقدم الهوازنيون باسترحام ويطلبون تحرير ذراريهم فيحررهم الرسول ﷺ قبل أن تجرى عليهم القسمة بين الجيش . ولكن أحداً من هوازن طوال شهر (والسبى متحفظ عليه) لم يتقدم بأى طلب مع أن المدة كافية للتقدم بمثل هذا الاسترحام .

وكان السبى والغنائم (بموجب قانون الحرب فى الإسلام) ملكا للجيش (بعد الخمس الذى نص القرآن على أن يكون تحت تصرف الرسول ﷺ لينفقه حسب مقتضيات المصلحة العامة) .

وقد اضطر الرسول ﷺ إلى توزيع غنائم المعركة بمن فيهم السبى . وبعد تقسيم الغنائم وتوزيع السبايا جاء وفد من هوازن يطلب من رسول الله ﷺ أن يحرر السبى ولكن بعد تقسيمه على أفراد القوات المسلحة التى شاركت فى معركة حنين . غير أن الرسول ﷺ حقق رغبة هوازن فحرر السبى وكل رقيق الحرب منهم كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

لقد ألح الأعراب الذين ساهموا فى معركة حنين وكانوا كثيرين .. ألحوا على الرسول ﷺ بعد عودته من الطائف يسألونه الإسراع بتوزيع الأسلاب والغنائم حتى ضايقوه وضربوا حوله شبه دائرة حتى سقط رداؤه من على عاتقه لشدة الزحام .

قال أصحاب المغازى والسير : وجعلت الأعراب فى طريقه يسألونه وكثروا عليه ، يقولون : أقسم علينا فيئنا حتى اضطروه إلى سَمرة فخطفت رداؤه . فقال : ردوا علىّ ردائى . أعطونى ردائى أيها الناس ، فوالذى نفسى بيده لو كان لكم عدد هذه العضاة نعماً لقسمته فيكم ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً ، ثم قام رسول الله ﷺ إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبرة فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها فقال : أيها الناس والله مالى من فيئكم ولا هذه

(١) انظر معازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٠ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٤ والكامل ج ٢ ص ١٨٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٥ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٨٩ — ٩٠ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣٤ — ١٣٥ .

الوبرة . وعند بعضهم : (والله ما يحل لكم مما أفاء الله عليكم ولا مثل هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم[١] . فأدوا الخياط والمخيط فإن الغلول عار وشنار يوم القيامة) .

أمانة وشرف الجندى المسلم

قالوا ونادى منادى رسول الله ﷺ يحذّر الجند من أخذ أى شىء من الغنائم (قبل القسمة مهما قل) . فقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يغل ، وجعل الناس غنائمهم فى موضع حتى استعمل رسول الله ﷺ عليهما .

وكان عقيل بن أبى طالب (قبل أن ينادى منادى رسول الله ﷺ) قد دخل على زوجته وسيفه متلطخ دماً ، فقالت : إنى قد علمت أنك قد قاتلت المشركين ، فماذا أصبت من غنائمهم ؟ قال : هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك ، فدفعها إليها ، وهى فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة . ثم سمع منادى رسول الله ﷺ يقول : من أصاب شيئاً من المغنم فليرده ، فرجع عقيل إلى زوجته وقال لها : والله ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت ، ثم أخذ الإبرة منها وألقاها فى الغنائم[٢] .

وهذا رجل آخر هو عبد الله بن زيد المازنى[٣] أخذ أثناء القتال قوساً من أقواس المشركين فرماهم بها ، فلما سمع منادى الرسول ﷺ ردها إلى المغنم .

وعقب مناداة الرسول ﷺ بأن يرد كل من أخذ شيئاً من المغنم ، جاء

---

(١) يقصد الرسول ﷺ أن الخمس الذى يأخذه لا يستعمله فى مصالحه الخاصة وإنما ينفقه فى مصالح المسلمين فحسب فهو (فعلا) مردود عليهم .

(٢) انظر رحمك الله كيف تكون الأمانة وازع الإهانة ، جندى عرض حياته للموت لا يستحل لنفسه مخيطاً من مال المسلمين الذى هو فيه شريك . بمثل هؤلاء والله تبنى الأمجاد وترفع رايات الحق عالية وتنكس رايات الباطل فى الوحل .. إنه الإيمان والتربية الإسلامية الجذرية المكينة التى تعمر القلوب .

(٣) هو عبد الله بن زيد بن عاصم بن كعب بن عمرو النجارى الأخزرجى الأنصارى . شهد أحداً مع رسول الله ﷺ وكل المشاهد بعدها . وكان (كما يقول ابن الأثير) هو الذى بالاشتراك مع وحشى الحبشى ، قتل مسيلمة الكذاب ، كان مسيلمة قد قتل أخاه حبيباً بن زيد وقطعه عضواً عضواً . كان عبد الله بن زيد من رواة الحديث عن رسول الله ﷺ . وقتل عبد الله بن زيد يوم الحرة أيام يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين .

رجل إلى النبى ﷺ بكبة[1] شعر ، فقال : يا رسول الله ، أضرب بهذه ، أى دعها لى . فقال رسول الله ﷺ أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لك . فردها الرجل فى المغنم . وجاء رجل آخر بحبل فقال : يا رسول الله هذا الحبل وجدته حيث انهزم العدو فاشدد به على رحلى ؟ قال : نصيبى منه لك ، وكيف تصنع بأنصباء المسلمين ؟.

ووجد رسول الله ﷺ فى برذعة [2] رجل (حين نزل قبيلته) عقداً من جزع غلولا ، فأتاهم رسول الله ﷺ فكبر عليهم كما يكبر على الميت[3] .

قسمة غنائم حنين بين الجيش

وبعد أن استقر الرسول ﷺ فى الجعرانة بالقرب من مكة (وحيث توجد الغنائم والسبى) أمر ﷺ أحد كبار الأنصار وهو زيد بن ثابت[4] بإحصاء الغنائم ثم إعطاء كل جندى ما يستحق حسب تعاليم الشريعة فى الغنائم . فقام زيد بإحصاء الغنم ، ثم قسمها على الجند ، فكانت سهامهم ، لكل رجل أربع من الإبل أو أربعون شاة . هذا بالنسبة للمشاة ، أما الفرسان فقد كان نصيب كل فارس من الغنيمة اثنتى عشرة من الإبل أو عشرون ومائة شاة ، وتلك قوانين التوزيع على المحاربين فى شرعة الإسلام ، لأن للجندى غير الفارس سهم واحد . أما الفارس ، فله ثلاثة أسهم ، سهم له كجندى وسهمان لفرسه . والإسلام بهذا يأخذ بعين الاعتبار الفارق الكبير بين المشاة والفرسان . فالفارس أكثر تأثيراً على العدو فى الحرب من الجندى غير الفارس . فراكب الفرس المقاتل يشبه من وجوه كثيرة كقائد الدبابة التى هى ملكه . وهو دونما شك أعظم نكاية فى العدو من الراجل الذى لا يملك فرساً . أما من كان معه أكثر من فرس واحد فلم يسهم له الرسول ﷺ فى الغنيمة . أى أنه لم يسهم إلا للفرس الذى قاتل عليه[5] .

---

(١) كبة الغزل ما جمع منه .

(٢) البرذعة : الحلس الذى يلقى تحت الرحل .

(٣) صحيح البخارى ج ٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٤ ومعازى الواقدى ج ٣ ص ٩١٨ ٩٤٢ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٤) انظر ترجمة زيد بن ثابت فى كتابنا (غزوة أحد) .

(٥) انظر مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٤٩ .

الرسول يغدق العطايا على المؤلفة قلوبهم

يقضى التشريع الإسلامى والذى نزل به القرآن الكريم بشأن غنائم الحرب التى يغنمها جيش الإسلام ، بأن يعزل الخمس من الغنائم ليكون فى متناول يد الرسول ﷺ وتحت تصرفه الخاص ليتصرف فيه وفق مصلحة الإسلام التى هو أدرى الناس بها لأنه رسول الإسلام .

وهذا التشريع صريح واضح فى قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾[1] .

وبإلقاء نظرة على ما غنمه جيش الإسلام المنتصر من أموال العدو فى حنين ، نجد أن من الغنائم أربعة وعشرين ألف بعير وحوالى أربعين ألف شاة وكمية هائلة من الفضة .

وعلى أساس أن خمس هذه الغنائم يكون تحت تصرف الرسول القائد ﷺ ، فإن خمس الأربعة والعشرين ألف بعير (أربعة آلاف وثمانمائة بعيراً) وخمس من الغنم ثمانية آلاف شاة وهذه كميات كبيرة . بالإضافة إلى خمس عشرات الآلاف من أواق الفضة التى عزلت ضمن خمس من الغنائم للرسول ﷺ .

وقد تصرف الرسول ﷺ فى خمس الغنائم فى حدود مصلحة الإسلام ، فأنفق شيئاً عظيماً من هذا الخمس لجذب قلوب زعماء العرب الحديثى العهد بالإسلام ، ليكون لهذا الدين بهم قوة ، وليرسخ فى قلوبهم . وهؤلاء الذين أعطاهم الرسول ﷺ من الخمس أكثرهم ممن أسلم بمكة قبل معركة حنين بحوالى نصف شهر . والبعض الآخر من غير أهل مكة .

أسماء المؤلفة قلوبهم الذين أعطوا من الغنائم :

وهذا جدول بأسماء المؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم الرسول ﷺ من الغنيمة على قدر مراتبهم . ومقدار الكميات التى أعطيت لهم من الإبل والفضة .

الاسم	عدد الإبل	الفضة عدد أوقية
أبو سفيان بن حرب	١٠٠	٤٠

(١) الأنفال ٤١ .

الاسم	عدد الإبل	الفضة عدد أوقية
معاوية بن أبى سفيان	١٠٠	٤٠
يزيد بن أبى سفيان	١٠٠	٤٠
حكيم بن حزام	١٠٠	
النضير بن الحارث بن كلدة[١]	١٠٠	
أسيد بن حارثة الزهرى[٢]	١٠٠	
العلاء بن حارثة[٣]	٥٠	
مخرمة بن نوفل[٤]	٥٠	
الحارث بن هشام[٥]	١٠٠	
سعيد بن يربوع[٦]	٥٠	
صفوان بن أمية[٧]	١٠٠	
قيس بن عدى[٨]	١٠٠	
عثمان بن وهب[٩]	٥٠	
سهيل بن عمرو[١٠]	١٠٠	
حويطب بن عبد العزّى[١١]	١٠٠	

(١) هو النضير وسماه فى أسد الغابة (النضر) وهو تصحيف . ابن الحارث بن كلدة العبدرى أخو النضر بن الحارث الذى أعدم بعد معركة بدر . كان النضير من المؤلفة قلوبهم .

(٢) لم أقف له على ترجمة فيما بين يدى من كتب التراجم .

(٣) هو العلاء بن حارثة بن عبد الله بن أبى سلمة الثقفى أحد المؤلفة قلوبهم وهو من حلفاء بنى زهرة .

(٤) انظر ترجمة مخرمة بن نوفل فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٥) أنظر ترجمة الحارث بن هشام فى كتابنا (غزوة مؤتة) .

(٦) هو سعيد بن يربوع بن عنكة بن عامر بن مخزوم القرشى المخزومى . أسلم عام الفتح وكان اسمه (صرماً فسماه رسول الله ﷺ سعيداً . سكن المدينة . وذهب بصره . فجاءه عمر بن الخطاب يعزيه فى بصره ، فقال له : لا تدع الجمعة ولا الجماعة فى مسجد رسول الله ﷺ ، فقال : ليس لى قائد فبعث إليه بقائد من السبى ، توفى سعيد هذا بالمدينة وعمره مائة وعشرون سنة .

(٧) انظر ترجمة صفوان فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٨) لم أجد ترجمته فيما بين يدى من مصادر .

(٩) لم أجدله ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

(١٠) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(١١) أنظر ترجمة حويطب فى كتابنا (صلح الحديبية) .

الاسم	الإبل	الفضة عدد أوقية
هشام بن عمرو[1]	٥٠	
الأقرع بن حابس التميمى[2]	١٠٠	
عيينة بن حصن الفزارى[3]	١٠٠	
مالك بن عوف النصرى	١٠٠	
العباس بن مرداس[4]	١٠٠	
علقمة بن علاثة الثقفى[5]	١٠٠	

أول السائلين من الغنيمة أبو سفيان[6] :

ويذكر المؤرخون أن أبا سفيان بن حرب . كان أول من سأل رسول الله ﷺ منحه من الغنائم ، فقد دخل على رسول الله ﷺ وبين يديه الفضة فقال : يا رسول الله ، أصبحت أكثر قريشاً مالاً ، فتبسم رسول الله ﷺ ، وقال أبو سفيان : أعطنى من هذا المال يا رسول الله . قال : يا بلال ، زن لأبى سفيان أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل . قال أبو سفيان : ابنى يزيد أعطه ، قال رسول الله ﷺ زنوا ليزيد أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل ، قال أبو سفيان : ابنى معاوية يا رسول الله ، قال : زن له يا بلال أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل . قال أبو سفيان : إنك لكريم فداك أبى وأمى ، ولقد

---

(١) قال فى أسد الغابة : هشام بن عمرو بن الحارث بن ربيعة بن الحارث بن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى . كان من المؤلفة قلوبهم . كان هشام من النبلاء الخمسة الذين كان لهم أثر كبير فى نقض الصحيفة . كذا قاله ابن الأثير .

(٢) أنظر ترجمة الأقرع بن حابس فى كتابنا (فتح مكة) .

(٣) انظر ترجمة عيينة بن حصن فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٤) أنظر ترجمة العباس بن مرداس فى كتابنا (فتح مكة) .

(٥) هو علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . كان من أشراف ربيعة بن عامر . وكان من المؤلفة قلوبهم . وكان فى قومه سيداً كليماً عاقلاً ، وهو الذى نافر عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب (وكلاهما كلابى) ، وفاخره ، ارتد علقمة بعد عودة حطار الطائف ولحق بالشام . فلما توفى النبى ﷺ عاد مسرعاً حتى عسكر فى بنى كلاب بن ربيعة ، فأرسل إليه أبو بكر الصديق كتيبة فهرب ، وغنم رجال الكتيبة أهله وحملوهم إلى المدينة . فتبرأوا مما صنع علقمة وقالوا : إنهم لم يوافقوه على الردة فصدهم أبو بكر وأطلقهم .. أما علقمة فقد تاب فقبل منه أبو بكر . وحسن إسلامه ، وكان من خيار الصحابة .. استعمله الخليفة عمر على حوران بالشام فمات بها .

(٦) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٤٥ — ٩٤٦ — ٩٤٧ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣٥ — ١٣٦ .

حاربتك فنعم المحارب كنت ، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت ، جزاك الله خيراً ، وأعطى فى بنى أسد[1] .

حكيم بن حزام الزاهد :

وحدث الواقدى قال : قال الحكيم بن حزام : سألت رسول الله ﷺ بحنين مائة من الإبل ، فأعطانيها ، ثم سألته مائة فأعطانيها ، ثم سألته مائة فأعطانيها ، ثم قال رسول الله ﷺ : يا حكيم بن حزام ، إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ، قال : فكان حكيم يقول : والذى بعثك بالحق ، لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً ، فكان عمر بن الخطاب يدعو حكيم إلى عطائه فيأبى يأخذه فيقول عمر : أيها الناس ، إنى أشهدكم على حكيم أنى أدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه . وحدث ابن أبى الزناد أن حكيم بن حزام لم يأخذ من الرسول ﷺ سوى المائة الأولى من الإبل[2] .

معاتبة العباس بن مرداس للرسول ﷺ

ويذكر أصحاب السير والمغازى أن الرسول ﷺ أعطى أولاً العباس بن مرداس السلمى[3] (وهو سيد بنى سليم) أربعاً من الإبل فقط . فعاتب الرسول ﷺ فى شعر قال فيه .

كانت نهابا[4] تلافيتُها بكِرِّى على القوم فى الأجرع[5]
وحثِّى الجنودَ لكى يُدلجوا إذا هجع القومُ لم أهجعِ
فأصبح نهبى ونهب العبيد[6] بين عيينة والأقرع

---

(١) مغازى الواقدى ج٣ ص ٩٤٥ .

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٤٥ .

(٣) أنظر ترجمة العباس بن مرداس فى كتابنا (فتح مكة) نهاباً : جمع نهب وهو ما يغنم ، يريد الماشية والإبل ، والأجرع المكان السهل .

(٤) تقدم تفسيره .

(٥) تقدم تفسيره .

(٦) العبيد (بضم العين) فرس عباس بن مرداس .

إلا أفائــل[1] أعطيتُهــا عديدَ قائمهــا الأربــع
وقد كنت فى الحرب ذا تدرأ فلم أعط شيئاً ولم أمنع
وما كان حِصن[2] ولا حابس يفوقنا مرداسَ فى المجمع
وما كنتُ دون امرئ منهما ومن تضع اليومَ لا يرفَع

فلما بلغ الرسول ﷺ عتاب عباس بن مرداس الشعرى لم يغضب ولم يحاسبه على ما فاه به من عتاب . وكل ما فعله الرسول ﷺ أنه أمر بأن يعطى العباس بن مرداس مائة من الإبل بدلاً من الأربع حيث قال ﷺ اقطعوا لسانه عنى . وقطع اللسان تعبير تعبّر به العرب عندما تريد إسكات إنسان بما يحرص على الحصول عليه بمثل الأسلوب الذى سلكه العباس بن مرداس وقد أعطوه مائة من الإبل[3] .

ما قاله بعض المنافقين أثناء تقسيم الغنائم

وأثناء تقسيم غنائم حنين وإعطاء المؤلفة قلوبهم كميات خاصة من الإبل تأليفاً لهم ، تحركت أفاعى النفاق الكامنة فى بعض نفوس العناصر الموجودة فى الجيش النبوى . فقالوا فى رسول الله ﷺ قولاً منكراً حيث اتهموه بعدم العدل وعدم إرادة وجه الله فيما صنع . فتألم لما سمع ولكنه لم يتخذ أى إجراء تأديبى أساءوا إليه بأقاويلهم المنكرة تلك .

فقد روى أهل الحديث فى الصحاح أن رسول الله ﷺ لما قسم الغنائم فى حنين قال رجل (هو فى عداد الأنصار) : ما أراد بها وجه الله فبلغ النبى ﷺ هذا القول فتغير وجهه ألماً . ثم قال : رحمة الله على موسى لقد أوذى بأكثر من هذا .

---

(١) الأفائل جمع أفيل ، وهى من صغار الإبل . قاله أبو ذر فى شرحه ص ٤١٣ .

(٢) يعنى به عيينة بن حصن الذى أعطى مائة من الإبل .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣٧ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٤٧ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٩١ وجاء فى سيرة ابن هشام والواقدى أن الرسول ﷺ قال لعباس بن مرداس : أنت القائل : (فأصبح نهبى ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة ؟) فقال أبو بكر : بين عيينة والأقرع . فقال رسول الله ﷺ : هما واحد ، سواء ما يضرك بدأت بالأقرع أم عيينة . فقال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) .

وفى رواية صحيحة أخرى عن أبى وائل : قال : لما كان يوم حنين آثر النبى ﷺ ناساً ، أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عيينة مثل ذلك وأعطى ناساً ، فقال رجل : ما أريد بهذه القسمة وجه الله . فلما بلغ الرسول ﷺ قول ذلك المنحرف . قال ﷺ : رحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر[١] .

وفى روايات أخرى صحيحة ، يدعم بعضها بعضاً أن رجلاً من بنى تميم يقال له ذو الخويصرة ، وقف على النبى ﷺ وهو يعطى الناس (من الغنائم) فقال له : يا محمد قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم فقال رسول الله ﷺ : أجل فكيف رأيت ؟. قال لم أرك عدلت . قال : فغضب النبى ﷺ فقال : ويحك إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟. فقال عمر بن الخطاب : ألا نقتله ؟ فقال ﷺ : دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية[٢] ، ينظر فى النصل[٣] فلا يوجد شىء ، ثم فى القدح[٤] فلا يوجد شىء سبق الفرث والدم[٥] .

ومن طريق آخر عن جابر بن عبد الله . قال : أتى رجل بالجعرانة النبى ﷺ منصرفه من حنين وفى ثوب بلال فضة ، ورسول الله ﷺ يقبض منها ويعطى الناس ، فقال (الرجل) : يا محمد إعدل ، قال : ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ، لقد خبتُ وخسرتُ إذا لم أكن أعدل . فقال عمر بن الخطاب : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : معاذ الله أن تتحدث الناس' أنى أقتل أصحابى ، إنَّ هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . وفى رواية أخرى فى الصحيحين من حديث الزهرى عن أبى سعيد عن أبى سلمة . قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً (أى بالجعرانة) إذ أتاه ذو الخويصرة ، رجل من بنى تميم . فقال : يا رسول الله إعدل ، فقال رسول الله

---

(١) صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٠٢ .

(٢) الرمية بكسر الراء : الشىء الذى يرمى به .

(٣)النصل : حديد السهم .

(٤) القدح : بكسر القاف وسكون الدال : السهم .

(٥) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٩ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦٢ .

ﷺ : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل لقد خبتُ وخسرتُ ، إذ لم أعدل فمن يعدل ؟ فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله إيذن لى فأضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرّمية ، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ثم إلى رصافه[1] فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى نصله (وهو قدحه) فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى قذذه[2] فلا يوجد فيه شيء ، قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة ، تدردر ، ويخرجون على حين فرقة من الناس . قال أبو سعيد : فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأنا معه ، وأمر بذلك الرجل فالتمس فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذى نعته . قال ابن كثير : ورواه مسلم أيضاً من حديث القاسم بن الفضل عن أبى نضرة عن أبى سعيد به نحوه[3] .

عتاب الأنصار للرسول بشأن الغنائم

كان الأنصار (الأوس والخزرج) منذ بيعة العقبة الكبرى وهى (حسب التعبير العصرى) المعاهدة العسكرية التى أبرمت بين الرسول ﷺ والأنصار . وتعهدوا فيها بحماية الرسول ﷺ كما يحمون نساءهم وأنفسهم وأطفالهم .. كان هؤلاء الأنصار (دائماً وأبداً) العمود الفقرى للجيش النبوى فى أية معركة ضد أعداء الإسلام ، وكانوا هم الذين آووا الرسول ﷺ وتحملوا مسؤولية حمايته بعد أن هاجر إليهم ، مع علمهم بأنهم بذلك يعادون الجزيرة العربية كلها التى كان سكانها يوم ذاك مشركين معادين للتوحيد .

وعلى موقف الأنصار النبيل هذا إزاء رسول الله ﷺ ومن هاجر معه من

---

(١) الرصاف (بكسر الراء) : عقب يلوى على مدخل النصل ، كذا قال فى النهاية فى غريب الحديث .

(٢) القذذ (بضم القاف وفتح الذال) : ريش السهم .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦٣ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٤٨ ـــ ٩٤٩ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٩٢ .

أهل مكة ، أثنى الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ والذين تبوَّأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[1] ﴿ والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم ﴾[2] .

فكان الأنصار (كما سمّاهم الله تعالى) أنصار رسوله الرئيسيين فى كل موقف ، وكانوا لكثرة عددهم وشدة بأسهم فى الحرب ــ مركز الثقل فى أى جيش يقوده الرسول ﷺ .. ففى معركة بدر الكبرى التى دخل المسلمون بعدها التاريخ من أوسع أبوابه ، كان جيش الإسلام كله ثلاثمائة وثمانية عشر مقاتلاً ، بينهم من الأنصار وحدهم ، حوالى مائتين وثلاثين محارباً .

وفى جيش الفتح الذى فتح الله به مكة المكرمة والذى هو عشرة آلاف مقاتل والمكوَّن من أكثر من عشرين قبيلة . كانت قبيلة الأنصار وحدها تشكل نصف هذا الجيش (تقريباً) حيث كان عددهم وحدهم فيه أربعة آلاف مقاتل .

وفى معركة حنين الحاسمة وعندما انهزم الجيش فى المرحلة الأولى من القتال . إنما ناشد الرسول ﷺ ــ حينما ناشد المسلمين الرجوع إلى ساحة الشرف ــ أول ما ناشد الأنصار فعادوا إلى الميدان وصاروا القطب الذى دارت رحى هذه المعركة الفاصلة التى انتهت بنصر المسلمين الساحق على مشركى هوازن .

الأنصار الكرام هؤلاء قد عبّروا عن استيائهم للعطايا الجزيلة التى أعطيت من غنائم حنين لبعض زعماء القبائل الحديثى العهد بالإسلام والذين لم يمض على إسلام بعضهم (كأهل مكة) أكثر من شهر . والذين أعطى كل واحد منهم مائة من الإبل وذلك من الرسول الهادى الذى لا مكان لحب الدنيا فى قلبه ــ بدافع الحرص على تأليف قلوبهم وجذبهم نحو الإسلام كما بيَّن هذا الدافع فيما بعد للأنصار عندما قالوا ما قالوا حول هذا الموضوع .

فقد ذكر المؤرخون وأصحاب الحديث كالبخارى ومسلم . أن الأنصار لما

---

(١) الحشر ٩ .

(٢) الأنفال ٧٤

أجزل الرسول ﷺ العطاء من الغنائم لزعماء القبائل من الأعراب ومن أهل مكة . صدر عنهم ما يمكن تسميته عتاباً للرسول الأعظم ﷺ .

ولما بلغ هذا العتاب إلى مسامع الرسول ﷺ تأثر له كثيراً حتى بدا عليه الغضب واضحاً . وكان الرسول ﷺ يحب الأنصار كثيراً . لذلك استدعى زعماءهم وأجرى بينه وبينهم حواراً مفتوحاً صريحاً حول ما قالوه ، وحول ما كان السبب فى عتابهم للذى صنع الرسول ﷺ من إجزاله العطاء للمؤلفة قلوبهم .

وقد شرح الرسول ﷺ لأحبابه الأنصار وجهة نظره والأسباب التى يجزل العطاء لهؤلاء المؤلفة قلوبهم من زعماء مكة وزعماء القبائل الأخرى . فاقتنع الأنصار فى تأثر بلغ حد البكاء ــ بشرح وإيضاح الرسول ﷺ ، حتى أعلنوا رضاهم بما صنع .

فقد ذكر رواة الحديث وأصحاب المغازى والسير تفاصيل قصة العتاب هذه ، فذكروا أن الأنصار الذين لم تكن حصة جندى المشاة منهم من غنائم حنين أكثر من أربع من الإبل ، بينما حصل مثل عيينة بن حصن وأبى سفيان ابن حرب وصفوان بن أمية والأقرع بن حابس ، كل واحد منهم على مائة من الإبل ولم تكن لهم أية سابقة فى نصر الإسلام .

ذكر رواة الحديث وأصحاب السير أن مما قاله الأنصار فى عتابهم للرسول ﷺ بهذا الصدد : (لقى رسول الله ﷺ قومه أما حين القتال فنحن أصحابه ، وأما حين القسم (أى قسم الغنائم) .. فقومه وعشيرته .. وددنا أن نعلم ممن كان هذا .. إن كان هذا من الله صبرنا ، وإن كان هذا من رسول الله ﷺ استعتبناه[1] .

وقال آخرون من الأنصار حين طفق الرسول ﷺ يعطى رجالاً المائة من الإبل : يغفر الله لرسول الله ﷺ ، يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم[2] .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٦ ــ ٩٥٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٧ .
(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٦ من حديث صحيح البخارى .

وقال آخرون من الأنصار : والله إنَّ هذا لهو العجب إنَّ سيوفنا لتقطر من دمائهم والغنائم تقسم فيهم[١] وفى رواية للإمام البخارى : قال الأنصار : إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا[٢] .

سيد الخزرج يبلغ الرسول عتاب قومه الأنصار

ودخل سعد بن عبادة[٣] سيد الخزرج على رسول الله ﷺ وأبلغه ما يجد الأنصار فى نفوسهم بسبب ما أعطى من غنائم لسادات قريش وزعماء القبائل الأخرى . فقال سعد : إن هذا الحىّ من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت . قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شىء ، قال رسول الله ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ، قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومى[٤] .

وفى بعض المصادر قال رسول الله ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ فقال سعد : ما أنا إلا كأحدهم ، وإنا لنحب أن نعلم من أين هذا ؟[٥] .

الرسول يناقش الأنصار حين عاتبوه بشأن الغنائم

قال رواة الحديث وأصحاب السير أن الرسول ﷺ لما بلغه مقالات الأنصار التى تتضمن عتابهم له حين أجزل العطاء من الخمس لبعض سادات العرب ، غضب حتى انعكس فعل الغضب على وجهه الشريف . قالوا : وأمر سيد الخزرج سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار ليتحدث إليهم ويشرح لهم الأسباب التى دعته إلى أن يصنع ما صنع من الذى أغضبهم فقالوا ما قالوا .. وأمر الرسول ﷺ سعد بن عبادة بأن لا يحضر هذا الاجتماع أحد من غير الأنصار .

وصدع سعد بن عبادة بالأمر فجمع الأنصار (أى ساداتهم) فى خيمة

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٧ عن الصحيحين من حديث شعبة .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٧ نقلاً عن صحيح البخارى .

(٣) انظر ترجمة سعد بن عبادة فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٩٣ .

(٥) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٧ .

كبيرة . وأبلغ سعد رسول الله ﷺ باجتماع الأنصار . فحضر إليهم . وجاء رجال من المهاجرين فردّهم لأنه يريد الاجتماع خاصة بالأنصار .

وقد دخل رسول الله ﷺ على الأنصار المجتمعين والغضب يعرف فى وجهه ، ثم ألقى فيهم كلمة قال فيها (بعد أن حمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله): يا معشر الأنصار مقالة بلغتنى عنكم وجَدَة[1] وجدتموها فى أنفسكم ، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة[2] فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمنُّ وأفضل ، قال : ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟ قالوا : وماذا نجيبك يا رسول الله ؟ ولرسول الله المَنُّ والفضل ؟.

قال : والله لو شئتم قلتم فصدقتم : أتيتنا مكذَّباً فصدَّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك[3] ، وجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار لشيء ، وفى بعض الروايات (لعاهة)[4] من الدنيا تألفت به قوماً أسلموا ، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله ﷺ ، إلى رحالكم ، فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . الأنصار شعار والناس دثار[5] .

وف رواية فى الصحيحين أن الرسول ﷺ قال للأنصار : (إن قريشاً حديثو عهد بجاهلية ومصيبة ، وإنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ؟ قالوا بلى . قال : لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار شعباً لسلكت وادي

---

(١) الجدة : بكسر الجيم : والموجدة الغضب .

(٢) العالة : الفقر

(٣) آسيناك : أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا .

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٨ .

(٥) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٤٢ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٧ ــ ٩٥٨ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٨ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٩٣ ــ ٩٤ صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٠٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨ .

الأنصار أو شعب الأنصار[1]؟

وفى بعض المصادر أن الرسول ﷺ ــ بعد أن أجرى الحوار بهذا مع أنصاره وشرح لهم وجهة نظره والسبب الذى جعله يخص بعض القرشيين بالعطاء الجزيل من خمس الغنائم ــ قال لهم : (أكتب لكم بالبحرين كتاباً من بعدى تكون لكم خاصة دون الناس ، فهو يومئذ أفضل ما فتح الله عليه من الأنصار ، قالوا : وما حاجتنا بالدنيا بعدك يا رسول الله ؟ قال : أما (لا) فسترون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإن موعدكم الحوض ، وهو كما بين صنعاء وعمان ، وآنيته أكثر من عدد النجوم . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ، فبكى القوم حتى اخضلّت لحاهم ، وقالوا : رضينا يا رسول الله حظاً وقسماً . وانصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا[2] .

وذكر أصحاب الحديث والمغازى أن الرسول ﷺ لما أعطى عيينة بن حصن والأقرع بن حابس . كل واحد مائة من الإبل ، قال له سعد بن أبى وقاص : يا رسول الله أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمرى[3] فقال : والذى نفسى بيده ، لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض[4] كلها مثل عيينة والأقرع ، ولكنى تألفتهما ليسلما ، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه[5] .

وروى البخارى عن عمرو بن تغلب قال : أعطى رسول الله ﷺ قوماً

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ٣٥٧ .

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٨ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٨ .

(٣) قال فى أسد الغابة : جعال : وقيل جعيل بن سراقة الغفارى وقيل الضمرى ، ويقال الثعلبى . وقيل : إنه فى عداد بنى سواد من بنى سلمة . كان جعيل من أهل الصفة وفقراء المسلمين . كان من السابقين الأولين فى الإسلام . شهد مع الرسول ﷺ أحداً وأصيبتْ عينه فى حصار بنى قريظة . وكان جعيل دميماً بشع المنظر . وهكذا فالعبرة بالمخبر لا بالمنظر .. فالرسول ﷺ قد أغدق هذا الثناء على جعيل لقوة إيمانه وشدة يقينه ولا عليه إن كان بشع المنظر .

(٤) طلاع الأرض : أى ما يملؤها حتى يطلع عنها ويسيل .

(٥) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٩١ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٤٨ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣٨ .

ومنع آخرين فكأنهم عتبوا عليه فقال : إنى أعطى قوماً أخاف هلعهم وجزعهم ، وأكل قوماً إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الخير والغنى منهم ، عمرو بن تغلب[1] قال عمرو : فما أحب أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم .

أخت الرسول التى كانت بين السبايا

قضت ظروف الهزيمة التى نزلت بهوازن فى حنين والتى حملت معها كل أموالها ونسائها وأطفالها إلى حيث المعركة .. قضت ظروف الهزيمة (وكما هى شرعة الحرب فى الإسلام وفى كل الأعراف والقوانين السائدة فى العالم آن ذاك[2]) أن يقع كل نساء وأطفال هوازن فى الأسر وأن يعتبروا جزءاً من الغنيمة التى تقسم بين المحاربين المنتصرين .

وكان من البديهى أن يقع كل نساء سعد بن بكر بن هوازن (أخوال الرسول ﷺ من الرضاعة) ضمن السبايا فى أيدى المسلمين .

وكان من ضمن أولئك السبايا ، الشيماء بنت الحارث[3] التى أمها حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية أم الرسول ﷺ من الرضاعة . وكانت الشيماء تحمل الرسول ﷺ مع أمها حليمة وتقوم عليه وترعاه عندما كان طفلاً رضيعاً فى بنى سعد بديار هوازن .. الشيماء هذه التى هى أخت الرسول ﷺ من الرضاعة وقعت سبيّة فى أيدى الجيش الإسلامى يوم حنين ضمن سبى هوازن .

---

(١) هو عمرو بن تغلب العنبرى من عبد القيس ، وقيل من بكر وائل وقيل من النمر بن قاسط . وقيل غير ذلك . قال فى أسد الغابة : وجميع ما ذكر فى نسبه يرجع إلى أسد بن ربيعة ، فهو ربيعى على الاختلاف الذى فيه . سكن عمرو بن تغلب البصرة ، وروى عنه الحسن البصرى . وعن عمرو بن تغلب روى الحديث الخطير (كما فى أسد الغابة) وهو أن من أشراط الساعة أن تكثر التجار . ويظهر القلم ، يعنى أن التجار يكثرون لكثرة المال ، ويكثر الذين يكتبون ، فإن الكتابة كانت قليلة فى العرب . شهد عمرو أحداً مع رسول الله ﷺ والمشاهد بعدها .

(٢) انظر أوسع التفاصيل عن موقف الإسلام من الرق الحربى ومنه السبايا وذلك فى كتابنا الرابع (غزوة بنى قريظة) تحت عنوان (الإسلام والرق) ، وأن الرق الحربى فى الإسلام هو من باب العمل الحربى المقابل .

(٣) الشيماء لقب لها . أما اسمها فهو حذافة بنت الحارث السعدية . أسلمت الشيماء ورجعت إلى ديار قومها هوازن بعد أن حررها الرسول ﷺ وأكرمها وخيرها بين أن تقيم عنده أو تعود إلى ديارها .

وكان بعض الذين سبوها من المسلمين قد عنّفوا عليها فى السياق . فكانت تقول لهم : إنى والله أخت صاحبكم ، ولا يصدقونها ، وكان الذين أخذوها طائفة من الأنصار وكانوا أشد الناس على هوازن . فلما أتوا بها الرسول ﷺ قالت : إنى أختك من الرضاعة . قال : وعلامة ذلك ؟ قالت : عضة عضضتنيها فى ظهرى وأنا حاملتك على وركى بوادى السر ونحن يومئذ برعائهم ، أبوك أبى وأمك أمى ، قد نازعتك الثدى ، وتذكر يا رسول الله .

فعرف رسول الله العلامة فوثب قائماً ، ثم بسط لها رداءه وقال لها : اجلسى عليه ، ورحب بها ودمعت عيناه وسألها عن أمه وأبيه من الرضاعة فأخبرته موتهما فى الزمان ، فخيّرها رسول الله ﷺ بين أن تقيم عنده وبين أن تعود إلى قومها قائلاً : إن أحببتِ فأقيمى عندنا محبَّبة مكرمة ، وإن أحببت أن ترجعى إلى قومك وَصلتَك رَجعت إلى قومك . قالت : أرجع إلى قومى ، ثم أسلمت فأكرمها رسول الله ﷺ فأعطاها نعماً وشاء ، ومما أعطاها عبد وجارية زوّجت أحدهما الآخر .

وجاء فى بعض المصادر أن الرسول ﷺ لما بسط رداءه لأخته الشيماء قال لها : سلى تعطى . واشفعى تشفعى .

وقالوا : إن الشيماء شفعت عند رسول الله ﷺ فى رجل من قومها بنى سعد اسمه بجاد . هذا الرجل قد استحق عقوبة الإعدام ، لأنه قتل رجل من المسلمين ومثل به ، حيث حرّقه بالنار بعد أن قتله . فأمر الرسول ﷺ خيله بطلبه ، وقال : إن قدرتم على بجاد فلا يفلتن منكم .

قال الواقدى : وكان بجاد من بنى سعد وكان قد أتاه رجل من المسلمين فأخذه بجاد فقطّعه عضواً عضواً ، ثم حرقه بالنار ، فكان قد هرب ، فأخذته الخيل فضمّوه إلى الشيماء بنت الحارث ، وقال عبد الصمد : لما رجعت الشيماء إلى منزلها بالجعرانة بعد أن عرفها رسول الله ﷺ وأكرمها كلمها النسوة من هوازن فى بجاد ، فرجعت إلى أخيها الرسول ﷺ وطلبت منه أن يهب لها بجاداً ويعفو عنه ففعل[1] .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ .

الرسول ﷺ يحرر سبايا هوازن

قلنا كان رسول الله ﷺ عقب عودته من حصار الطائف انتظر حوالى شهر فى الجعرانة ، لم يقسم السبايا من هوازن على الجيش الإسلامى ، على أمل أن يتقدم وجوه هوازن وزعماؤها بطلب يلتمسون فيه تحرير نسائهم وأطفالهم ، ولكن هوازن توانت فى التقدم بمثل هذا الطلب إلى الرسول القائد ﷺ ، وألح عامة الجيش الإسلامى المنتصر على رسول الله ﷺ طالبين منه تقسيم الغنائم بما فى ذلك السبى فقسم الرسول ﷺ على الجند لأن ذلك حق من حقوقهم كما تقضى بذلك قوانين الحرب فى الإسلام . فنساء العدو المحارب وأبناؤه وأمواله يكونون ملكاً للجيش المنتصر ، ومن السبى يتكوّن الرقيق .

وقد ذكرنا فى كتابنا الرابع (غزوة بنى قريظة) بالتفصيل موقف الإسلام من الرق ، وأن هذا الدين قد جاء لتحرير البشرية فردم جميع منابع الرق المتعارف عليها فى العالم آن ذاك ، ولم يبق إلا على الرق الحربى كعملية عسكرية مقابلة . ومع ذلك فقد رغب الإسلام ترغيباً كبيراً فى تحرير هذا النوع من الرقيق الذى أقره[1] ، وكان الرسول ﷺ يحرص دائماً على تحرير الرقيق بدليل أنه (كما سيأتى فى هذا البحث) حرر ستة آلاف من سبى هوازن بعد أن شفع لأهاليهم عند جند الجيش الإسلامى .

وفد هوازن بين يدى الرسول ﷺ

وكما كان الرسول ﷺ يتوقع ، فقد بعثت هوازن بوفد من كبار زعمائها لمقابلة الرسول ﷺ ليقدم التماساً إلى الرسول ﷺ يطلب فيه المنّ على السبى وتحريرهم .

ولكن وفد هوازن جاء بعد أن جرت قسمة السبى بين عامة الجيش ، فكانت إعادتهم إلى أهاليهم وتحريرهم فيها شىء من الصعوبة والتعقيد . ولكن الرسول ﷺ تغلب على هذه الصعوبة واتخذ الإجراءات الكفيلة بإعادة السبى إلى ذويه من هوازن .

---

(١) أنظر البحث الواسع المفصل عن مواقف الإسلام من الرق وتفنيد شبه أعداء الإسلام التى يثيرونها بسبب موقفه من الرق الحربى .. أنظر ذلك فى كتابنا (غزوة بنى قريظة) فى الفصل بعنوان (الإسلام والرق) .

كان وفد هوازن إلى الرسول ﷺ مكوّناً من أربعة عشر رجلاً . وكان رئيسهم ، أبو صرد زهير بن صرد[1] وكان فى الوفد عم الرسول ﷺ وكان أحد المتكلمين . وكان وفد هوازن قد جاء مسلماً كما جاء بإسلام من وراءه من هوازن .

استقبل الرسول ﷺ الوفد وأكرمهم وأحسن استقبالهم ، ثم تكلم رجال الوفد فى المهمة التى من أجلها جاءوا ، فأخبرهم الرسول ﷺ أنه قد تأنى فى قسمة السبى وانتظرهم كثيراً حتى ظن أنهم لن يأتوا ، فأجرى السهمين على السبى وجرت قسمته بين عامة الجيش ، غير أنه ﷺ وعدهم بأنه سيسعى لتحرير السبى رغم أنه قد توزع وقسم على الجند كجزء من الغنائم . وفعلاً بذل الرسول ﷺ مساعيه لدى عامة الجيش كى يحرر كل منهم ما فى يده من سبى هوازن ، ومن تمسك بحقه فى السبى دفع له الرسول ﷺ تعويضاً من بيت مال المسلمين حتى حرر جميع سبى هوازن وعددهم ستة آلاف رأس .

قال الواقدى : فقدم وفد هوازن ، وكان فى الوفد عمّ الرسول ﷺ من الرضاعة ، قال يومئذ : يا رسول الله ، إنما فى هذه الحظائر من كان يكفلك من عمّاتك وخالاتك وحواضنك وقد حضنَّاك فى حجورنا ، وأرضعناك بثدينا ، ولقد رأيتك مرضَعاً فما رأيت مرضَعاً خيراً منك ، ثم رأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أهلك وعشيرتك ، فامنن علينا من الله عليك .

فقال رسول الله ﷺ : قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لاتقدمون وقد قُسم السبى وجرت فيهم السهمان .

ويؤكد الواقدى إسلام الوفد وإسلام من خلفهم من هوازن وإنهم جاءوا بإسلام الجميع فيقول : وقدم على رسول الله ﷺ أربعة عشر رجلاً من هوازن مسلمين ، وجاءوا بإسلام من وراءهم من قومهم ، فكان رأس القوم والمتكلم أبو صرد زهير بن صرد ، فقال : يا رسول الله ، إنا أهلك وعشيرتك ، وقد

(١) هو زهير بن صرد (بضم الصاد وفتح الراء) أبو صرد وقيل : أبو جرول ، الجشمى : السعدى ، من بنى سعد بن بكر (فهو خال رسول الله ﷺ سكن زهير المذكور الشام . ذكر ذلك ابن الأثير فى أسد الغابة ثم ساق قصة خطبة زهير وغيره بين يدى رسول الله ﷺ .

أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك . يا رسول الله ، إنما فى هذه الحظائر عمّاتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، ولو ملحنا[1] للحارث ابن أبى شمر وللنعمان بن المنذر ، ثم نزلا منا بمثل الذى نزلت به ، رجونا عطفهما وعائدتهما[2] ، وأنت خير المكفولين . ويقال إنه قال يومئذ — أبو صرد —: إنما فى هذه الحظائر أخواتك وعمّاتك وبنات عمّاتك وخالاتك وبنات خالاتك ، وأبعدهنّ قريب منك يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، إنهن حضنّك فى حجورهن ، وأرضعنك بثديهن ، وتوركنك على أوراكهن وأنت خير المكفولين ثم أنشد :

أمنن علينا رسولَ الله فى كرم	فإنك المَرءُ نرجوه ونَدَّخِرُ
أمنن على نسوة قد عاقها قَدَر	مُمزّق شملها فى دهرها غِيَرُ
أمنن على نسوة قد كنت ترضَعُها	إذ فوك مملوءة من محضها الدرر[3]
اللائى إذا كنت طفلاً كنت ترضَعُها	وإذ يزينك ما تأتى وما تذرُ
ألا تداركها نعماه تنشرها	يا أرجح الناس حتى حين يختبرُ
لا تجعلنا كمن شامت نعامته[4]	واستبق منّا فإنّا معشر زهرُ
إنا لنشكر آلاء وإن قدمت	وعندنا بعد هذا اليوم مدّخرُ

قالوا : وبعد أن تكلم رجال وفد هوازن فى أسراهم وطالبوا بتحريرهم والمن عليهم تكلم الرسول الأعظم ﷺ فقال : إن أحسن الحديث أصدقه وعندى من ترون من المسلمين ، فأبناءكم ونساؤكم أحب إليكم من أموالكم[5] قالوا : يا رسول الله خيَّرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا ، وما كنا نعدل بالأحساب شيئاً ، فرّد إلينا أبناءنا ونساءنا ، فقال النبى ﷺ : أما مالى ولبنى عبد

(١) قال فى النهاية لابن الأثير : ملحنا ، أرضعنا لهما .

(٢) العائد : الفضل ، قاله أبو ذر فى شرحه ص ٤١١ .

(٣) الدرر (بكسر الدال) : الدفعات الكثيرة من اللبن قاله فى السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٥٠ .

(٤) شالت نعامتهم قال فى القاموس المحيط : تفرقت كلمتهم أو ذهب عزمهم .

(٥) وفى السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٠ جاء أن النبى ﷺ قال لوفد هوازن : قد وقعت المقاسم مواقعها ، فأى الأمرين أحب إليكم ، أطلب لكم السبى أم الأموال ، وإنما قال ﷺ لهم : قد وقعت المقاسم ، أى لأنه لا يجوز للإمام أن يمن على الأسرى بعد القسم ، وإنما يمن عليهم قبله ، كما وقع له ﷺ فى يهود خيبر ولا يخفى أن هذا فى الرجال دون الذرارى .

المطلب فهو لكم ، وأسأل لكم الناس ، وإذا صليت الظهر بالناس فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين . وبالمسلمين إلى رسول الله ، فإنى سأقول لكم : ما كان لى ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وسأطلب لكم إلى الناس ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر بالناس قام الهوازنيون فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقالوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ، فقال رسول الله أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : فما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وامتنع الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن وعباس بن مرداس والسلمى عن التصدق بتحرير ما فى أيديهم من سبايا .

فقد قال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة : أما أنا وفزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا .

إلا أن بنى سليم خالفوا سيدهم عباس بن مرداس ، وقالوا : أما ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال عباس : وهنتمونى (أى أضعفتمونى) .

وبعد الأخذ والرد وقف الرسول ﷺ خطيباً وأعلن أن جميع السبى من هوازن سيحرر وأن كلاً من هذا السبى سيعود إلى أهله ، وأعلن النبى ﷺ أن من لم تطب نفسه بالتصدق بالعتق ، فإن بيت مال المسلمين سيدفع له التعويض اللازم عما فى يده من سبى لا يرغب فى التصدق بعتقه .

فقد قال الرسول ﷺ لقادة الجيش وزعماء القبائل المشتركين فى معركة حنين : إن هؤلاء القوم (يعنى هوازن) جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت بهم فخيَّرتهم بين النساء والأبناء والأموال ، فلم يعدلوا بالنساء والأبناء ، فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه فليرسل (أى يطلق) ومن أبى منكم وتمسك بحقه فليرد عليهم ، وليكن فرضاً علينا ست فرائض (أى ست من الإبل) من أول ما يفيء الله به علينا .

وقد حدد الرسول ﷺ نوع التعويض للمتمسكين بحقهم فى السبى فجعل

فداء الفرد من السبى (من بيت المال) ثلاث حقاق[1] وثلاث جذاع[2]

وقد قبل الممتنعون بالتعويض الذى حدده الرسول ﷺ .

أما الأغلبية الساحقة من الجيش الإسلامى المنتصر فى حنين وهم المهاجرون والأنصار وبنو سليم فقد تصدقوا بعتق ما فى أيديهم من سبى .

أما المتمسكون بحقهم فى السبى (وهم أقلية قليلة من الأعراب) فقد قبلوا بالتعويض الذى حدده الرسول ﷺ : وقالوا رضينا وسلمنا . فقال لهم رسول الله ﷺ : فمروا عرفاءكم أن يدفعوا ذلك إلينا حتى نعلم ففعلوا .

وهكذا حرر الرسول ﷺ ستة آلاف من سبى هوازن فى حنين فأعتقهم جميعاً ومنع أن يجرى عليهم الرق . وبهذه المناسبة روى أن معاذ بن جبل كان يقول : قال رسول الله ﷺ يومئذ : لو كان ثابتاً على أحد من العرب ولاء أو رق لثبت اليوم ، ولكن إنما هو إسار وفدية .

ثم إن الرسول ﷺ لكى يستوثق أكثر من المهاجرين والأنصار (وهم الأغلبية الساحقة بين الجند الذين شاركوا فى تحقيق النصر يوم حنين) بعث مندوبَين ليطوفا عليهم فيستوثق بأنهم راضون بعتق ما فى أيديهم من سبايا هوازن .

فإلى المهاجرين بعث عمر بن الخطاب ، وإلى الأنصار بعث زيد بن ثابت ، فكان زيد بن ثابت يطوف على الأنصار يسألهم : هل سلموا ورضوا ؟ فخبّروه أنهم سلموا ورضوا . ولم يتخلف رجل واحد ، وبعث عمر بن الخطاب إلى المهاجرين يسألهم عن ذلك ، فلم يتخلف رجل واحد ، وكان أبو رهم الغفارى يطوف على قبائل العرب ، ثم جمعوا العرفاء ، واجتمع الأمناء الذين أرسلهم رسول الله ﷺ فاتفقوا على قول واحد ، تسليمهم ورضاهم ودفع ما كان فى أيديهم من السبى[3] .

---

(١) الحقاق (بكسر الحاء) : جمع الحق والحق من الإبل الداخلة فى السنة الرابعة ، القاموس المحيط ج ٢ ص ٢٢١ .

(٢) الجذاع : جمع الجذع ، وهو من الإبل ما دخل فى السنة الخامسة .

(٣) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ١٥٣ — ١٥٤ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٨٦ — ٨٧ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣١ — ١٣٢ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٠ — ٩٥١ — ٩٥٢ — =

إسلام ملك هوازن وقائدها مالك بن عوف[1] :

كان مالك بن عوف قائد هوازن وملكها قد قاتل قتالاً مريراً يوم حنين هو وقبيلته بنو نصر حتى استحر القتل بينهم وكادوا أن يفنوا .

غير أن القائد مالكاً لما رأى أنَّ هوازن قد خسرت المعركة ، وأنَّ الاستمرار فى مقاتلة المسلمين لم يعد نافعاً ولا مجدياً لهوازن قرر الانسحاب مع هيئة أركان حربه من مكان المعركة لينجو من سيوف المسلمين .

فانسحب إلى بلاده عن طريق نخلة (وهو المسمى اليوم باليمانية) ، ثم استمر فى الهرب حتى وصل وادى ليَّة بالقرب من الطائف ، وهناك تحصن فى حصن له . ثم تَرَك وادى ليَّة والتحق بالطائف حيث تحصن مع ثقيف فى حصنها . وكانت ثقيف من أهم بطون هوازن .

وكان رسول الله ﷺ — وهو فى طريقه لمحاصرة الطائف — قد هدم حصن مالك بن عوف وحرّقه بالنار عندما مرّ ﷺ بهذا الوادى .

النبى يعلن العفو عن مالك بن عوف

ويذكر أصحاب المغازى والسير أن الرسول ﷺ بعد أن فرغ من تقسيم الغنائم فى الجعران وأعاد السبى إلى هوازن سأل وفدهم عن ملكهم وقائدهم

= ٩٥٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٠ — ٢٥٢ وأسد الغابة ج ٢ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٤٢ ٣٥٣ — والكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(١) هو مالك بن عوف بن سعد بن ربيعة بن يربوع بن وائلة بن دهمان بن نصر بن معاوية بن بكر ابن هوازن النصرى ، قال فى أسد الغابة : يكنى أبو على ، كان مالك شجاعاً مقداماً إلى حد التهور . وهو الذى كان يرأس المشركين يوم حنين لما انهزم المسلمون وعادت الهزيمة على المشركين ، وكان مالك ملكاً متوجاً على هوازن .. ويذكر أصحاب السير والتراجم أن مالكاً حمل بنفسه يوم حنين على النبى ﷺ قاصداً قتله ، وكان مالك على فرس له يقال له : مجاج ، فأحجم الفرس ولم يتقدم ، ثم أراده ليحمل على الرسول ﷺ فلم يتقدم أيضاً فقال مالك :

أقدم مجاج إنه يوم نكر ... مثلى على مثلك يحمى ويكر
ويطعن الطعنة تهرى وتهر ... لها من الجوف نجيع منهمر
ويقلب العامل فيها منكسر ... إذا اخزألت زمراً بعد ومر

أسلم مالك بن عوف وحسن إسلامه ، وقد جعله النبى ﷺ أميراً على من أسلم من قومه قيس عيلان .. وقد شهد مالك بعد رسول الله ﷺ فتح الشام وشهد القادسية أيضاً بالعراق مع سعد بن أبى وقاص . ولم نجد فيما بين أيدينا من تراجم متى، وأين توفى مالك بن عوف .

مالك بن عوف النصرى . قالوا : يا رسول الله ، هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف قال رسول الله ﷺ : أخبروه أنه إن كان يأتى مسلماً رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل . وكان النبى ﷺ قد أمر بالحجز التحفظى على أموال مالك بن عوف وأهله ، وأن لا تجرى عليهم قسمة الغنائم كغيرهم .

فحفظت أموال القائد مالك بن عوف وأهله بمكة عند عمتهم ، أم عبد الله بنت أبى أمية . فلما أمر الرسول ﷺ بالحجز التحفظى على أموال القائد مالك وأهله . قال وفد من هوازن : يا رسول الله أولئك سادتنا وأحبتنا إلينا . فقال الرسول ﷺ : إنما أريد بهم الخير .

فلما بلغ ملك هوازن وقائدها ما قاله النبى ﷺ بشأنه ، وما وعده به من خير إن هو دخل فى الإسلام ، وأن أهله وماله موقوف لم يجر عليه سهم القسمة ، قرر أن يلتحق بالرسول ﷺ ويعلن إسلامه ، ولكنه خاف أن تعلم ثقيف أن الرسول ﷺ قال ما قال بشأن مالك وماله وأهله فيحبسونه منعاً له من اللحاق بالنبى ﷺ .

لذلك تكتم على الخبر وقرر أن يغادر الطائف سراً ، فطلب ممن يثق به أن يهيىء له راحلة فيضعها له جاهزة فى مكان يقال له : دحنا[1] ثم أمر بفرسه فجاءه به أحد أتباعه ليلاً فخرج من حصن الطائف (خلسة) ثم امتطى صهوة جواده ، فركضه حتى أتى دحنا ، ومن هناك ركب على بعيره فلحق برسول الله ﷺ ، فلما جاء ، رد عليه النبى ﷺ أهله وماله ، ثم أعطاه مائة من الإبل . وهنا أسلم مالك فحسن إسلامه[2] .

قائد المشركين يتحول إلى قائد المسلمين .

وبعد أن أسلم القائد مالك بن النصرى الذى قاد معركة حنين الفاصلة ضد الجيش النبوى ، وبعد أن اطمأن الرسول ﷺ إلى إسلامه ، ولّاه الرسول ﷺ على من أسلم من قومه من هوازن وفهم ، وجعله قائداً عسكرياً يجاهد

---

(١) دحنا : مخلاف من مخاليف الطائف

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٤ ــ ٩٥٥ .

بهم المشركين فى سبيل الله .

وقد انضم إلى القائد مالك (وكان زعيماً شجاعاً مشهوراً) انضم إليه كل الذين دانوا بالإسلام فى المناطق القريبة من الطائف ، فعقد له الرسول ﷺ عليهم لواءاً ، فكوّن مالك من هؤلاء المسلمين جيشاً صار يغير بهم على من كان على الشرك .

وهكذا وبعد أن كان هذا الشاب الشجاع مصدر قلق وإزعاج للإسلام والمسلمين حين جيش الجيوش لمحاربة المسلمين وهزمهم فى حنين (أول الأمر) . تحول الى عامل توطيد لدعائم الإسلام ، ومصدر إزعاج لمن بقي على الشرك من قبائل تلك النواحى التى يجاورها .

فبعد أن جعله الرسول ﷺ أميراً وقائداً على المسلمين من قومه وسكان النواحى المجاورة صار يشن بهم الغارات على أهل الشرك وخاصة قومه ثقيف الذين هم أقوى قوة بقيت من هوازن بعد الهزيمة فى حنين تناوئ الإسلام .

كيف يصنع الإسلام إذا لامس القلب

وهكذا هو الإسلام إذا لامس قلب الإنسان وخالطه ، أزال من الإنسان كل عوامل الشر ، وغرس مكانها عناصر الخير .

فهذا مالك بن عوف النصرى ، عندما كان على شركه ــ غاية فى العناد والمكابرة والمضى فى مضمار الشيطان . فقد رأينا كيف جمع مالك عشرين ألف مقاتل من هوازن وأحلام تدمير الإسلام والاستيلاء على مكة تداعب خياله ، فخرج بهذه القوات غازياً ، ومصمماً على إخراج المسلمين من مكة انتصاراً للشرك والوثنية ، ورأينا كيف بذل مالك جهده لإنزال الهزيمة المدمرة بالمسلمين ، وكيف أنه (عناداً منه) عندما عارض بعض عقلاء قومه حمله النساء والذرية والأموال مع الجيش فعارضوا بعض مخططاته للمعركة ، هددهم بأنه سينتحر إذا لم يوافقوه على الخطة التى رسمها لمحاربة المسلمين ، ورأينا كيف كان جهده وصبره فى القتال لتوطيد دعائم الشرك فى حنين .

ولكن ها هو اليوم مالك بنفسه ــ وبعد أن جعل الإسلام منه إنساناً آخر ، إنساناً أدّبه القرآن وهذّب طباعه النافرة بالإسلام ــ ها هو يتحول إلى

سيف باتر سله الله على المشركين ، فصار يشن عليهم الغارات صادقاً مخلصاً للإسلام ، حتى دوخهم ، وخاصة قومه ثقيف ، فصار جهاده من أكبر العوامل التى مهدت الطريق لسلطان الإسلام كى يبسط ظله على ثقيف التى ظلت حتى السنة التاسعة للهجرة مستعصية تقاوم الدعوة الإسلامية وتحاربها بكل شراسة وعناد .

قال الواقدى : واستعمل رسول الله ﷺ مالك بن عوف على من أسلم من قومه ومن تلك القبائل حول الطائف من هوازن وفهم ، فكان قد ضوى إليه قوم مسلمون ، وعقد له لواء ، فكان يقاتل بهم ، ولا يخرج لثقيف سرح[1] إلا أغار عليه ، وقد رجع حين رجع وقد سرح الناس مواشيهم ، وأمنوا فيما يرون حيث انصرف عنهم رسول الله ﷺ ، فكان لا يقدر على سرح إلّا أخذه ، ولا على رجل إلا قتله ، فكان قد بعث إلى النبى ﷺ بالخمس مما يغير به ، مرة مائة بعير ومرة ألف شاة ، ولقد أغار على سرح لأهل الطائف فاستاق ألف شاة فى غداة واحدة . فقال أبو محجن بن حبيب .

تهاب الأعداء جانبنـــا ... ثم تغزونا بنو سمـــه
وأتانـــا مالك بهمـــو ... ناقضاً للعهـد والحُرُمَـه
وأتونـــا فى منازلنـــا ... ولقـد كانـوا أولى نقمـه

وقال مالك بن عوف شعراً يمتدح الرسول ﷺ وهو :

ما إن رأيت ولا سمعتُ بمثله ... فى الناس كلّهمو بمثل محمدِ
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ... ومتى تشأ يُخْبِرْك عمَّا فى غد
وإذا الكتيبة عرَّدت أنيابها ... بالمشرفىّ[2] وضرب كل مهنَّدِ[3]

---

(١) السرح (بفتح السين وسكون الراء) : ما يسرح من الماشية فى المراعى من الإبل والشاء والخيل وغير ذلك .

(٢) المشرفى السيف. قال أبو عبيدة : نسبت السيوف المشرفية إلى مشارف ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، وقيل : هى فى جنوب الشام قرب حدود الجزيرة العربية .

(٣) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند .

فكأنه ليثٌ على أشباله وسط الهباء[1] خادِرُ[2] فى مرصد[3]

إسلام صفوان بن أمية[4]

كان صفوان بن أمية الجمحى سيداً من سادات قريش وذوى العقول الراجحة ، وكان من زعماء قريش الذين أولاهم النبى ﷺ اهتماماً خاصاً وقال : إنه يربأ بهم عن أن يظلوا على الشرك . وعندما حرر الجيش النبوى مكة أعطى الرسول ﷺ الأمان ، ثم منحه مهلة أربعة أشهر ليقرر بمحض إرادته ما إذا كان يريد الدخول فى الإسلام .

وقد خرج صفوان (وهو مشرك ضمن الجيش النبوى إلى حنين ، ورغم بقائه على شركه فقد كان موالياً للجيش النبوى يتمنى له النصر على مشركى هوازن ، بدليل أنه لما بشره بعض المنحرفين القرشيين بانهزام المسلمين ، انتهره صفوان وزجره وقال له : اسكت فض الله فاك ، لأن يربنى (أى يكون ملكاً علىَّ) رجل من قريش أحب إلىَّ من أن يربّنى رجل من هوازن[5] .

وظل صفوان (على شركه) ضمن الجيش النبوى ، لم يأت أىَّ عمل مشين ضد المسلمين ، بل كان كثيراً (بعد النصر) ما يتجول مع الرسول ﷺ لتفقد الغنائم وأحوال السبى ، وقد أعطاه النبى ﷺ — وهو على شركه — من الخمس مائة من الإبل .

وذكر بعض المؤرخين أن النبى ﷺ بينما كان يطوف على الغنائم بالجعرانة ، ومعه صفوان بن أمية ، إذ مر بشعب مما أفاء الله على المسلمين ، فيه غنم وإبل ورغاؤها مملوء ، فأعجب صفوان وجعل ينظر إليه ، فقال له رسول الله ﷺ أعجبك أبا وهب ؟ قال : نعم . قال : هو لك وما فيه ، فقال صفوان : أشهد ماطابت بهذا نفس أحد قط إلَّا نبىّ ، وأشهد أنك رسول الله ، وأسلم

---

(١) الهباءة . قال فى شرح أبى در : الغبرة .

(٢) الخادرى : الداخل فى خدره ، والخدر هنا غابة الأسد .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦١ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٥ — ٩٥٦ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣٣ — ١٣٤ وأسد الغابة ج ٤ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

(٤) أنظر ترجمة صفوان بن أمية فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٥) أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣ .

وحسن إسلامه[1] . وعن صفوان نفسه قال : مازال رسول الله يعطينى من غنائم حنين وهو أبغض الخلق حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليَّ منه[2] .

عودة الرسول ﷺ إلى المدينة.

وبعد أن انتهى الرسول من توزيع الغنائم على الجيش المنتصر ، فأعطى كل ذى حق حقه ، بموجب قانون تقسيم الغنائم الذى نزل به القرآن ، وأعطى المؤلفة قلوبهم من الخمس مئات من الإبل . وبعد أن أقام بالجعرانة (وهى من الضواحى القريبة من مكة) ثلاثة عشر ليلة ، من الخامس ذى القعدة حتى الثامن عشر منه سنة ثمان للهجرة ، قرر العودة بأصحابه إلى المدينة .

ولكنه قبل أن ينصرف إلى المدينة دخل مكة المكرمة وأدى وأصحابه نسك العمرة حيث أحرم بالعمرة من الجعرانة التى تقع خارج حدود الحرم .

وبعد أن أكمل وأصحابه مناسك العمرة ، تفقد أحوال العاصمة المقدسة ومسقط رأسه ، وأقام فيها السلطات المدنية حيث عين عليها حاكماً يدير شئونها ، وهو عتاب بن أسيد . كما أسند إلى فئة الفقهاء والقراء من خيرة أصحابه مهمة تعليم أهل مكة الحديثى العهد بالإسلام ـــ أمور دينهم ، فيفقهونهم فى الدين ، ويقرؤونهم القرآن ، ليعرفوا الدين الجديد الذى دخلوا فيه حديثاً ـــ على حقيقته .

ورغم المعاملة السيئة التى كان أهل مكة يعاملون بها الرسول ﷺ طوال إقامته بين أظهرهم قبل الهجرة ، فقد أبدى عطفاً ملحوظاً عليهم ، فأوصى عامله الجديد علي مكة . أوصاه بأهلها الذين سماهم أهل الله[3] . وبعد أن أقام وجيشه بمكة ليلتين غادرها إلى المدينة ، وذلك يوم الخميس لعشر بقين من شهر ذى القعدة سنة ثمان للهجرة . وقد استبقى ما تبقى من خمس غنائم حنين وهى آلاف من الجمال والغنم . استبقى هذا المتبقى من الخمس حيث حبسه (عند دخوله مكة للعمرة) بمجنّة بناحية مرّ الظهران[4] وذلك لكى

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٤٦ وأسد الغابة ج ٣ ص ٢٣ .
(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦٠ وأسد الغابة ج ٣ ص ٢٣ .
(٣) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٩ .
(٤) مر الظهران (بفتح الميم) هو المسمى اليوم : وادى فاطمة .

يصطحبه معه ليقسمه على الأعراب المنتشرين ما بين مكة والمدينة تأليفاً لقلوبهم كى يثبت منهم من دخل فى الإسلام ويرغب فيه من لم يكن قد دخل فيه[1] .

قال الإمام الواقدى يصف عملية رحيل الرسول ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة بعد انتهاء معركة حنين وحصار الطائف : (وانتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذى القعدة فأقام بالجعرانة ثلاث عشرة ، فلما أراد الانصراف إلى المدينة ، خرج من الجعرانة ليلة الأربعاء لاثنى عشر بقيت من ذى القعدة ليلاً ، فأحرم من المسجد الأقصى الذى تحت الوادى بالعدوة القصوى ، وكان مصلى رسول الله ﷺ إذا كان بالجعرانة — فأما هذا المسجد الأدنى ، فبناه رجل من قريش واتخذ ذلك الحائط عنده — ولم يجز رسول الله ﷺ الوادى إلّا محرماً ، فلم يزل يلبى حتى استلم الركن . ويقال : لما نظر إلى البيت قطع التلبية ، فلما أتى أناخ راحلته على باب بنى شيبة ، ودخل وطاف ثلاثة أشواط يرمل[2] من الحجر إلى الحجر ، ثم خرج فطاف بين الصفا والمروة على راحلته ، حتى إذا انتهى إلى المروة فى الطواف السابع حلق رأسه عند المروة ، حلقه أبو هند[3] عبد بنى بياضة ، ويقال حلقه خراش بن أمية[4] .

ولم يسق رسول الله ﷺ منها هدياً ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى الجعرانة فكان كبائت بها ، فلما رجع إلى الجعرانة خرج يوم الخميس فسلك فى وادى الجعرانة، وسلك معه حتى خرج على سرف[5] ، ثم أخذ الطريق حتى انتهى إلى مرّ الظهران .

---

(١) انظر البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦٨ .

(٢) الرمل هو الإسراع فى المشى .

(٣) هو أبو هند الحجاج البياضى ، مولى فروة بن عمرو البياضى ، اسمه عبد الله ، وقيل : يسار ، تخلف عن بدر ، وشهد مابعدها من المشاهد ، حجم النبى ﷺ فى يافوخه من وجع كان به ، وفى أبى هند هذا ، قال النبى ﷺ : إنما أبو هند امرؤ من الأنصار فأنكحوه وأنكحوا إليه يا بنى بياضة (أسد الغابة ج ٥ ص ٣١٨) .

(٤) انظر ترجمة خراش بن أمية فى كتابنا (صلح الحديبية) .

(٥) سَرِف بفتح السين وكسر الراء) موضع على ستة أميال من مكة .

أمير مكة الشاب القوى الصالح

وبما أن مكة المكرمة مدينة كبيرة ، ولها منزلة عظمى بين المسلمين حيث بها وحواليها توجد كل مقدسات الإسلام والمشاعر التى يحج إليها المسلمون فقد أصدر الرسول ﷺ قبل مغادرته لها — مرسوما عين بموجبه حاكماً لها ، عتاب بن أسيد الزهرى ، وكان شاباً فى حوالى الثالثة والعشرين من عمره .

وقد اختاره الرسول ﷺ — رغم صغر سنه ورغم أنه لم يسلم إلا يوم الفتح — اختاره من بين جميع سادات مكة وأشرافها ، لأنه راجح العقل حسن الإسلام وسيد مطاع بين قومه ويتمتع باحترام كبير بين القرشيين ، وقد ظل عتاب بن أسيد أميراً على مكة حتى التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى .

وعندما همّ أهل مكة بالارتداد عقب موت الرسول ﷺ وقف أمير مكة الشاب عتاب (وكان حازماً) وقف موقفاً مشرفاً ، دل على متانة دينه وشدة إخلاصه .

وكان أهل مكة أثناء حياة النبى ﷺ قد شكوا إليه شدة عتاب عليهم ، وكان عتاب صلب الإيمان شديداً على أهل الريبة . فقد جاء فى الإصابة لابن حجر أن النبى ﷺ ولى عتاب إمارة مكة وهو ابن نيف وعشرين سنة ، وعن أنس بن مالك أن عتاباً كان شديداً على المريب ليناً على المؤمن ، وكان يقول : والله لا أعلم متخلفاً عن هذه الصلاة إلا ضربت عنقه . فإنه لا يتخلف عنها إلا منافق ، فقال أهل مكة : يا رسول الله ، استعملت على أهل الله أعرابياً جافياً ، فأجابهم النبى ﷺ (مزكياً هذا الشاب الطيب المؤمن القوى) : إنى رأيت فيما يرى النائم أنه (أى عتاب بن أسيد) أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقعقعها حتى فتح له ودخل ، وروى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وأجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ أنه قال : هو عتاب بن أسيد[١] .

وقال ابن هشام : وبلغنى عن زيد بن أسلم أنه قال : لما استعمل رسول الله

(١) الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة ج ٢ ص ٤٤٤ .

ﷺ عتـابا بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهماً ، فقام فخطب بالناس ، فقال : أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله ﷺ درهماً كل يوم ، فليست لى حاجة إلى أحد[1] .

وكما عيَّن الرسول ﷺ ــ قبل انصرافه إلى المدينة ــ عتاب بن أسيد أميراً على مكة (وهو أول أمير مسلم يتولى شئونها) خلَّف كذلك معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى فى مكة يعلِّمان الناس القرآن والفقه فى الدين[2] .

وقد قال رسول الله ﷺ للأمير الشاب عتاب بن أسيد يوصيه بأهل مكة : أتدرى على من استعملتك ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : استعملتك على أهل الله ، بلّغ عنى أربعاً ، لا يصلح شرطان فى بيع ، ولا بيع وسلف ، ولا بيع ما لم يضمن ، ولا تأكل ربح ما ليس عندك[3] .

تاريخ وصول الرسول المدينة

وجاء فى كتب السيرة أن الرسول ﷺ أثناء عودته من مكة إلى المدينة .. قطع المسافة بينهما فى تسعة أيام ، فقد خرج من مكة يوم الأربعاء فى الثامن عشر من ذى القعدة سنة ثمان للهجرة ووصل المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من الشهر نفسه[4] .

إسلام ثقيف

الحديث عن ثقيف ذو ارتباط وثيق بالحديث عن معركة حنين الحاسمة .

فقد كانت ثقيف (وقد تقدم فى هذا البحث الحديث عن نسبها) تشكل جناحاً من أهم الأجنحة فى الجيش الذى خاض معركة حنين ضد المسلمين . لأنها تشكل عدة عشائر ، كلها ينتسب إلى هوازن التى قادها مالك بن عوف فى حنين ضد النبى ﷺ وأصحابه .

وباعتبار ثقيف جناحاً من أهم أجنحة الجيش الهوازنى الذى خاض ملحمة

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦٨ .
(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٩ .
(٣) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٩ .
(٤) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٥٨ ــ ٩٦٠ .

حنين ضد المسلمين ، فقد طاردهم الجيش الإسلامى بقيادة الرسول ﷺ ، حتى ألجأهم إلى حصنهم المنيع بالطائف ، وعندما وجدهم متحصنين وراء الأسوار فى الطائف ، ضرب عليهم الحصار ، على أمل أن يستسلموا ، أو أن يتمكن المسلمون من اقتحام حصون الطائف ، ولكن الثقفيين صمدوا وقاوموا المسلمين أشد المقاومة .

ولما أدرك الرسول ﷺ أن لا فائدة من فرض الحصار على ثقيف فك عنها الحصار ، ورجع إلى مكة ثم إلى المدينة . على أمل أن يأتى الله بثقيف فتدخل فى ا لإسلام طائعة ، وقد تقدم أن بعض الصحابة قال للرسول ﷺ ـــ وهو يفك الحصار عن الطائف ـــ ادع الله على ثقيف ، فأبى وفعل العكس حيث دعا الله تعالى أن يأتى بها .

ثقيف تقتل سيدها بعد إسلامه

وقد ظلت ثقيف على كفرها متشبثة بوثنيتها ، وكان مالك بن عوف النصرى الذى قاد معركة حنين الفاصلة ضد النبى ﷺ وأصحابه ، كان مالك ـــ بعد أن هداه الله تعالى للإسلام ـــ يتولى القيام بالغارات المسلحة على ثقيف ، باعتباره أحد قادة المجتمع الإسلامى ، غير أن غارات مالك بن عوف ـــ رغم عنفها ـــ لم تؤثر كثيراً على موقف ثقيف المعادى للإسلام ، لأن ثقيفاً كانت قوة كبيرة تتألف من عدة عشائر متماسكة .

غير أن موقف ثقيف أخذ يتغير نحو الإسلام عندما عاد سيد ثقيف عروة ابن مسعود من جرش حيث كان قد ذهب إلى هناك لشراء معدات حربية ثقيلة وللتدرب على صنعها واستخدامها وتركيبها .

كان عروة بن مسعود من أعظم سادات ثقيف ومن أرجحهم عقلاً ، وكان المفروض أن يكون قائد ثقيف يوم أن خاضت هوازن حربها الخاسرة ضد المسلمين فى حنين .

ولكن عروة كان متغيباً عن ديار قومه عندما نشبت هذه المعركة ، لأن هوازن بعثوه مندوباً على رأس وفد من ساداتهم إلى جرش[1] . لشراء أسلحة

---

(١) ذكر ياقوت فى معجمه أن جرش اسم لموضعين فقال : جرش (بضم أوله وفتح ثانيه) مخلاف =

ثقيلة (مثل المنجنيق والعرّادات والدبابات) .

وكان عروة بن مسعود ووفده العسكرى قد ذهبوا إلى جرش ، قبل أن يتحرك النبى ﷺ بجيوشه لفتح مكة ، أى قبل معركة حنين التى خسرتها هوازن بحوالى شهرين اثنين .

وقد مكث عروة بن مسعود وبعثته الحربية فى جرش حوالى ثلاثة أشهر ، تدربت البعثة أثناءها على صنع استخدام الأسلحة الثقيلة ، ولذلك فإن سيد ثقيف عروة بن مسعود ، لم يعد بهذه الأسلحة الثقيلة من جرش إلى الطائف إلا بعد أن انتهت معركة حنين وفك الرسول ﷺ الحصار عن الطائف .

كان عروة بن مسعود راجح العقل حليماً حكيماً نافذ البصيرة ، فعندما عاد من جرش جال بعينى بصيرته فيما دار ويدور فى جزيرة العرب من صراع بين الإسلام والوثنية ، فأدرك أن ظل الشرك والوثنية آخذ فى التقلص بسرعة كبيرة ، وخاصة بعد هزيمة قومه هوازن فى معركة حنين التاريخية : وهوازن كانت أقوى قوة وثنية ضاربة يمكنها أن تجابه المسلمين فى جزيرة العرب ، بدليل أن محاربيها الذين خاضوا معركة حنين كانوا عشرين ألفاً ، وهو عدد لم يسبق لجبهة وثنية (فى الصراع الدائر بين الإسلام والوثنية) أن حشدت مثله لمحاربة الرسول ﷺ فى جزيرة العرب كلها .

من هنا وبإلهام من الله تعالى أدرك عروة بن مسعود أن الإسلام غالب لا محالة ، وأنه لم يبق سوى وقت قصير حتى تصبح الجزيرة العربية كلها قد شملها الإسلام ولفَّها تحت جناحيه . لذلك أضمر سيد ثقيف أن يعتنق الإسلام طائعاً مختاراً .

= من مخاليف اليمن ، ولم يذكر أن بها تصنع المنجنيقات والدبابات . ثم قال : وجرش . (بفتح أوله وثانيه) اسم مدينة عظيمة كانت (وهى الآن خراب) حدثنى من شاهدها وذكر لى أنها خراب ، وبها آبار عادية تدل على عظم ، قال : وفى وسطها نهر جار يدير عدة رحى عامرة إلى هذه الغاية ، وهى فى شرق جبل السواد من أرض البلقاء وحوران من عمل دمشق اهـ . قلت : خرائب جرش وآثارها الرومانية لا تزال قائمة فى المملكة الأردنية الهاشمية ، وآثارها تدل على أن بها كانت مدنية زاهرة ، ومن المحتمل جداً أن يكون عروة بن مسعود وبعثته قد ذهبوا إليها لشراء الأسلحة الثقيلة منها .

كان وصول عروة بن مسعود فى أواخر السنة الثامنة الهجرية ، فقام بتركيب الأسلحة الثقيلة التى جلبها لقومه من جرش فى الأردن ، وقد فعل ذلك أداءاً للأمانة التى ائتمنه قومه عليها حين بعثوه إلى الأردن لشراء هذه الأسلحة وتسليمه إياها لقومه المشركين ، لم يُغَير من عزمه عن اعتناق الإسلام ، بعد أن قذف الله نور هذا الدين فى قلبه .

لذلك (ودون أن يستشير أحداً) غادر الطائف قاصداً المدينة ليعلن بين يدى الرسول ﷺ إسلامه .

وعندما وصل عروة المدينة استقبله الرسول ﷺ بالترحاب ، وكان يعرفه (مسبقاً) لأنه قد اجتمع به عندما جاء وسيطاً لقريش يوم الحديبية عندما كانت أزمة الحديبية بين النبى ﷺ وعشيرته على أشدها[1] وكان عروة بن مسعود رغم كونه حليفاً لقريش قد حذّرها من مغبة عنادها حين منعت المسلمين من دخول مكة وقد جاءوا معتمرين لا محاربين ، وقد توقع أن كارثة ستنزل بقريش نتيجة بغيها يوم ذاك وتصلفها . ثم فارقها ورجع إلى بلاده الطائف . وقد اعتبر العقلاء تصرف عروة بن مسعود هذا دليلاً على رجاحة عقله وبعد نظره .

وعندما أسلم عروة بن مسعود وشهد شهادة الحق ، قرر أن يعود إلى الطائف فيدعو قومه ثقيفاً إلى الإسلام ، وطلب من الرسول ﷺ أن يأذن له بذلك ، ولكن النبى ﷺ حذّره بأن قومه سيقتلونه ، فقد قال عروة : يا رسول الله إيذن لى فآتى قومى فأدعوهم إلى الإسلام ، فوالله ما رأيت مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب ، فأقدم بخير قادم ، وما قدم وافد (قط) على قومه إلا من قدم بمثل ما قدمت به ، وقد سبقت يا رسول الله فى مواطن كثيرة .

وكان عروة بن مسعود سيداً مطاعاً محبوباً بالفعل فى قومه لشرف نفسه ودماثة أخلاقه وكرمه ، وكان يتوقع أنهم جميعاً سيجيبونه إلى الإسلام حينما يدعوهم إليه .

---

(١) انظر تفاصيل مقابلة الرسول ﷺ لعروة بن مسعود بالحديبية فى كتابنا (صلح الحديبية) .

غير أن الرسول ﷺ كان قد اختبر نفسيات أولئك المشركين الثقفيين العتاة الغلاظ القلوب مرتين .. مرة عندما لجأ إليهم أيام اشتداد محنته فى مكة بعد وفاة عمه أبى طالب ، فأساءت إليه ثقيف بدلاً من أن تستضيفه وتكرمه وتخفف من آلامه ، بل وأغرت به السفهاء والعبيد حتى طاردوه فى شوارع الطائف ورجموه بالحجارة ، الأمر الذى اضطره الى أن يترك الطائف ليعود إلى مكة حيث الكرب واشتداد المحنة .. ومرة حينما حاصرهم بعد أن تراجعت جيوشهم منهزمة من حنين فقاوموه أشد المقاومة وأبدوا من العداوة الشىء الكثير .

ولذلك فإن الرسول ﷺ عندما استأذنه السيد عروة بن مسعود ليذهب إلى قومه ثقيف يدعوهم إلى الإسلام قال له الرسول ﷺ ــ عندما أصر على الذهاب إليهم ــ: أنهم إذن قاتلوك ، قالها ثلاثاً ، ولكن عروة كرر الاستئذان فى الذهاب إليهم (مبدياً ثقته بحب قومه له) قائلاً : يا رسول الله لأنا أحب إليهم من أبكار أولادهم ، يا رسول الله لو وجدونى نائماً ما أيقظونى ، فقال له الرسول ﷺ (عندئذ) : إن شئت فخرج إلى الطائف ، وكان الأمر كما حذره رسول الله ﷺ فقد قتله قومه أولئك الأشرار وهو يدعوهم إلى الإسلام .

فلم تمض خمسة أيام حتى وصل عروة الطائف ، وعندما وصل سيد ثقيف بلده أنكرت ثقيف عليه أمراً كانوا يعرفونه منه ومن كل قادم من سفر إلى الطائف (ولم يكونوا قد علموا بإسلامه) وهذا الأمر هو أن يبدأ القادم إلى الطائف من سفر بتقديم فروض العبادة والتقديس لصنمهم الأكبر (اللات) .. ففى هذه المرة تجاهل عروة هذا الصنم لأنه كمسلم موحد ــ لم يعد مكان فى نفسه لهذا الصنم ، فقد ذهب من فوره إلى منزله ، وبعد أن توافد إليه أعيان قومه لاستطلاع حقيقة أمره ، حيوه بتحية الشرك ، فأنكرها عليهم ، ثم دعاهم إلى الإسلام، وهنا كانت نهايته القتل حيث استشهد وهو يؤذن للصلاة فى منزله .

وقد كاد يؤدى قتل عروة بن مسعود إلى حرب أهلية طاحنة بين عشائر ثقيف ، فقد تحزبت عشائر عروة واستعدوا للقتال كي يأخذوا بثأره ، لولا أنه قبل أن يفارق الحياة تصدق بدمه على قاتله حقناً للدماء وإطفاء لنيران الحرب

الأهلية ، فطاب عروة حياً وميتاً .

ولنترك الإمام الواقدى وأشهر من ألَّف فى مغازى رسول الله ﷺ يحدثنا حديث إسلام عروة بن مسعود . قال الواقدى : كان عروة بن مسعود حين حاصر النبى ﷺ أهل الطائف بجرش ، يتعلّم عمل الدبابات والمنجنيق ، ثم رجع إلى الطائف ، بعد أن ولى رسول الله ﷺ ، فعمل الدبابات والعرّادات وأعد ذلك حتى قذف الله عز وجل فى قلبه الإسلام ، فقدم المدينة على رسول الله ﷺ فأسلم ، ثم قال : يا رسول الله إيذن لى فآتى قومى فأدعوهم إلى الإسلام، فوالله ما رأيت مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب ، فأقدم على أصحابى وقومى بخير قادم ، وما قدم وافد قط على قومه إلا من قدم بمثل ما قدمت به وقد سبقت يا رسول الله فى مواطن كثيرة .

فقال رسول الله ﷺ : إنهم إذن قاتلوك ، قال رسول الله ، لأنا أحب إليهم من أبكار أولادهم ، ثم استأذنه الثانية فأعاد عليه الكلام الأول ، وقال رسول الله ﷺ : إنهم إذن قاتلوك ، قال : يارسول الله ، لو وجدونى نائماً ما أيقظونى ، واستأذنه الثالثة ، فقال : : إن شئت فاخرج ، فخرج إلى الطائف ، فسار إليها خمساً ، فقدم على قومه عشاء فدخل منزله ، فأنكر قومه دخوله منزله قبل أن يأتى الرّبة[1] ، ثم قالوا : السفر قد حصره[2] فجاءوا منزله فحيّوه تحية الشرك ، فكان أول ما أنكر عليهم تحية الشرك ، فقال : عليكم تحية أهل الجنة . ثم دعاهم إلى الإسلام، وقال يا قوم : أتتهموننى ؟ ألستم تعلمون أننى أوسطكم نسباً ، وأكثركم مالاً ، وأعزكم نفراً ؟ فما حملنى على الإسلام إلا أنى رأيت أمراً لا يذهب عنه ذاهب ، فاقبلوا نصحى ، ولا تستعصونى ، فوالله ما قدم وافد على قوم بأفضل مما قدمت به عليكم ، فاتّهموه واستغشّوه ، وقالوا : قد واللات وقع فى أنفسنا حيث لم تقرب الرّبة ولم تحْلق رأسك عندها إنك قد صبوت فآذوه ونالوا منه ، وحلم عليهم ، فخرجوا من عنده يأتمرون كيف يصنعون به ، حتى إذا طلع الفجر أوفى على غرفة له فأذن بالصلاة ، فرماه رجل من رهطه من الأحلاف يقال له : وهب بن جابر — ويقال رماه

---

(١) يعنى : اللات .

(٢) قال فى النهاية : حصره : أى منعه عن مقصده .

أوس بن عوف من بنى مالك ، وهذا أثبت عندنا ـــ وكان عروة رجلاً من الأحلاف ، فأصاب أكحله[١] فلم يرقأ دمه[٢] وحشد قومه فى السلاح ، وجمع الآخرون وتجايشوا ، فلما رأى عروة ما يصنعون قال : لا تقتتلوا فىّ فإنى قد تصدقت بدمى على صاحبه ليصلح بذلك بينكم ، فهى كرامة أكرمنى الله بها ، الشهادة ساقها الله إلىّ ، أشهد أن محمداً رسول الله ، خبرّنى عنكم هذا أنكم تقتلوننى ، ثم قال لرهطه : ادفنونى مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم ، قال : فدفنوه معهم ، وبلغ رسول الله ﷺ قتله فقال : مثل عروة مثل صاحب ياسين ، دعا قومه إلى الله عز وجل فقتلوه .

فلما قتل عروة ، قال ابنه أبو مليح[٣] بن عروة بن مسعود ، وابن أخيه قارب بن الأسود بن مسعود[٤] لأهل الطائف : لا نجامعكم على شىء أبداً ، وقد قتلتم عروة ، ثم لحقا برسول الله ﷺ فأسلما ، فقال لهما رسول الله ﷺ : توليّا من شئتما ، قالا نتولى الله ورسوله . قال النبى ﷺ : وخالكما أبو سفيان بن حرب ، حالفاه . ففعلا ، ونزلا على المغيرة بن شعبة ، وأقاما بالمدينة حتى قدم وفد ثقيف فى رمضان سنة تسع الهجرية[٥].

ثقيف كلها تدخل الإسلام :

وعقب ارتكاب ثقيف جريمتها النكراء المتمثلة فى قتل سيدها المسلم عروة ابن مسعود ، وبعد أن شعرت وأحست بما يشبه العزلة القاتلة بين العرب ، تنبه أحد دهاتها وعقلائها وهو عمرو بن أمية أحد بنى علاج[٦] . تنبه إلى

---

(١) الأكحل (بفتح الحاء) : عرق فى اليد وهو الشريان .

(٢) رقأ الدم . إذا سكن وانقطع عن الجريان .

(٣) ذكر ابن الأثير ترجمته فى أسد الغابة فلم يزد على ما جاء فى هذا السياق عن تاريخه .

(٤) هو قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف الثقفى وهو ابن أخى عروة بن مسعود ، كان حامل راية الأحلاف من ثقيف يوم حنين ضد المسلمين . كان سيداً من سادات ثقيف ، وروى له رواة الحديث حديث (رحم الله المحققين) . لم أر فيما بين يدى من تراجم عن تاريخ وفاته .

(٥) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٦٢ .

(٦) لم أجد له ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

ما ستتعرض له ثقيف من أخطار جسيمة قد يكون فيها هلاكها ، إذا لم تسارع إلى إعلان إسلامها أسوة بالقبائل المحيطة بها ، والتى أصبحت ثقيف (لبقائها على الشرك) بين هذه القبائل فى عزلة تامة ، تغير عليها هذه القبائل وتحاربها أينما وجدتها بمن فى هذه القبائل سيد هوازن وملكها السابق مالك بن عوف النصرى قائد حشد الشرك فى حنين ضد المسلمين . والذى أسلم قبل انصراف الرسول ﷺ إلى المدينة .

كان عمرو بن أمية هذا مغاضباً ومهاجراً لعبد ياليل[1] سيد ثقيف الثانى ، ولكنّ عمرو تناسى ما بينه وما بين عبد ياليل ، وبعث إليه يطلب الاجتماع به ، بغية بحث الوضع الشاذ الذى صارت إليه ثقيف بعد أن انتشر الإسلام وغمر القبائل المحيطة بثقيف .

وقد أجاب عبد ياليل عمرو بن أمية فاجتمعا ، فشرح لعبد ياليل خطورة الوضع الذى آلت إليه ثقيف ، وأن الحل الوحيد للمخرج من هذا المأزق الذى فيه ثقيف هو أن تدخل ثقيف فى الإسلام ، فوافقه عبد ياليل على هذا الاقتراح ، فدعيا إلى اجتماع عام حضره وجوه ثقيف وأعيانها بالطائف ، وقد وقف فيهم عمرو بن أمية خطيباً شارحاً لهم خطورة الوضع الذى عليه ثقيف ، فوافقوه على الرأى القائل بأن لا مخرج لثقيف إلا بأن تبعث بوفد منها إلى المدينة ليعلن إسلامها بين يدى الرسول ﷺ .

فقد جاء فى أمهات التاريخ أن عمرو بن أمية أخو بنى علاج ، كان مهاجراً لعبد ياليل بن عمرو ، لشىء بينهما ، وكان عمرو من أدهى العرب ، فمشى إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل داره ، ثم أرسل إليه أن عمرو بن أمية يقول : أخرج إلىّ . قالوا : فقال عبد ياليل للرسول : ويلك ، أعمرو أرسلك إلىّ ؟ قال : نعم وها هو ذا واقف فى دارك ، وكان عبد ياليل يحب صُلحه ،

---

(١) هو عبد ياليل بن عمرو بن عمير الثقفى ، كان سيداً من سادات بنى مالك من ثقيف ، كان رئيس الوفد الذى ذهب إلى المدينة بإسلام ثقيف ، قال فى أسد الغابة : أرادت ثقيف أن ترسله وحده إلى المدينة فامتنع وخاف أن يفعلوا به ما فعلوا بعروة بن مسعود فأرسلوا معه الخمسة ، وهم عثمان بن أبى العاص ، وأوس بن عوف ، ونمير بن خرشة ، والحكم بن عمرو ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة فأسلموا كلهم وحسن إسلامهم وانصرفوا إلى قومهم فأسلموا كلهم .

ويكره أن يمشي إليه ، فقال عبد ياليل : إنّ هذا لشيء ما كنت أظنُّه ، لعمرو كان أمنع فى نفسه من ذلك ، وما هو إلا عن أمر قد حدث وكان أمراً سوءاً ، ما لم يكن من ناحية محمد . ثم خرج عبد ياليل إلى عمرو فلما رآه رحّب به ، فقال عمرو : قد نزل بنا أمر ليست معه هِجرة إنه قد كان من أمر هذا الرجل (يعنى النبى ﷺ) ما قد رأيت وقد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة ، وإنما نحن فى حصننا هذا ، ما بقاؤنا فيه وهذه أطرافنا تصاب ، ولا نأمن من أحد منا يخرج شبراً واحداً من حصننا هذا ، فانظروا فى أمركم .

قال عبد ياليل لعمرو : قد والله رأيت ما رأيت ، فما استطعت أن أتقدم بالذى تقدمت به ، وإن الحزم والرأى الذى فى يديك .

قالوا : فدعا زعماء ثقيف إلى مؤتمر عام حضره عامة الثقفيين ، فائتمروا فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض : ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب[1] ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع ، فائتمروا بينهم وتم الاتفاق على أن يدخلوا فى الإسلام[2] .

وعلى أثر الاتفاق على أن لا نجاة ولا مخرج لثقيف من المأزق التى هى فيه ، إلا بالإسلام ، قررت ثقيف أن تبعث إلى النبى ﷺ برسول خاص ليفاوضه بشأن دخولها فى الإسلام ، فرشحوا لذلك عبد ياليل بن عمرو ، وهو يومئذ فى منزلة عروة بن مسعود وفى مثل سنه .

وعبد ياليل هذا هو الذى أساء إلى الرسول ﷺ أبلغ الإساءة عندما جاء ﷺ ملتجئاً إلى ثقيف عندما اشتد عليه أذى قريش بعد وفاة زوجه خديجة وعمه أبى طالب .

وقد اعتذر عبد ياليل لثقيف أن يكون رسولها إلى النبى ﷺ ، ولم يكن اعتذاره عن خوف من أن ينتقم منه النبى ﷺ لإساءته تلك .. كلا ، فهو يعرف وكل العرب والعجم تعرف أن النبى ﷺ لا ينتقم لنفسه من أحد ، فمن أخلاقه ﷺ أن يقابل الإساءة بالإحسان ، ولكن اعتذار عبد ياليل لقومه

---

(١) السرب (بكسر السين) : المسلك

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٣ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٦٣ ــ ٩٦٤

ثقيف عن القيام بمهمة القيام بإبلاغ الرسول ﷺ إسلام ثقيف ، هو أنّ عبد ياليل يعرف شراسة قومه ثقيف وجرأتهم على سفك الدماء وتقلبهم ، فقد رأى العبرة فى أحب الناس إلى ثقيف (عروة بن مسعود) حيث قتلوه بمجرّد أن دعاهم إلى الإسلام ، فهو إذن يخشى أن يكون مصيره مصير عروة بن مسعود إن هو قبل المهمة منفرداً حيث من المحتمل جداً أن يقتلوه إن هو عاد من المدينة يدعوهم إلى الإسلام ، لذلك اعتذر عن أن يكون رسول ثقيف إلى النبى ﷺ ، غير أن عبد ياليل ـــ لما رأى إلحاح قومه عليه لكى يكون مبعوثهم إلى النبى ﷺ ـــ وافق ولكن بشرط أن يبعثوا معه من كل فخيذة من ثقيف رجلاً .

فوافقت كل القبائل الثقفية على اقتراح السيد عبد ياليل بن عمرو .

فبعث كلّ من القبيلتين الرئيسيتين فى ثقيف (وهما الأحلاف وبنو مالك) بعث كل منهما بصحبة عبد ياليل ممثل عنه فى وفد إلى المدينة مكوّن من ثلاثة من الأحلاف ، وثلاثة من بنى مالك على أن يكون رئيسهم عبد ياليل بن عمرو (وهو من بنى مالك) .

وكان هدف عبد ياليل من اشتراك كل عشائر ثقيف ممثلة فى جناحيها الرئيسين (الأحلاف وبنى مالك) فى الوفد الذاهب إلى المدينة ، واضحاً ، وهو أن يكف كل رجل فى الوفد رهطه عن عبد ياليل إذا ما أرادوا به سوءاً عندما يعود من المدينة إلى الطائف وقد بايع النبى ﷺ على الإسلام نيابة عنهم .

وهكذا تقرر أن تبعث ثقيف وفدها برئاسة عبد ياليل ، الذى يسمونه (لشدة شكيمته) ناب القوم ، وقد غادر الوفد الطائف قاصداً المدينة فى أواخر السنة التاسعة للهجرة ، فوصل الوفد إلى المدينة ، وقابل الرسول ﷺ وأبلغه رغبة ثقيف فى الدخول فى الإسلام ، فرحب بهم الرسول ﷺ وعم المسلمين الفرح لدخول ثقيف فى الإسلام ، لأن ثقيفاً قبيلة عظيمة ذات قوة وشوكة ، وكانت آخر قوة مسلحة فى جزيرة العرب ، يمكنها مصادمة المسلمين وبدخول ثقيف فى الإسلام لم يبق للشرك والوثنية أى أثر فى منطقة الحجاز كلها .

قال الواقدى وابن إسحاق : وأجمعت ثقيف أن ترسل إلى المدينة رجلاً ،

كما أرسلوا عروة ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، وكان فى سن عروة ابن مسعود وعرضوا ذلك عليه فأبى أن يفعل ، وخشى إن رجع إلى قومه مسلماً أن يصنع به إذا رجع من عند النبى ﷺ ما صنع بعروة ، فقال : لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالاً فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونوا ستة .

فبعثوا مع عبد ياليل ، الحكم بن عمرو بن وهب بن معتّب[1] ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتّب[2] ، وهؤلاء رهط عروة . وبعثوا فى بنى مالك : عثمان بن أبى العاص[3] ، وأوس بن عوف[4] ونمير بن

---

(١) قال فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة : (الحكم بن عمرو بن معتب الثقفى ، كان أحد الوفد الذين قدموا مع عبد ياليل بإسلام ثقيف ، وهو من الأحلاف ، أخرجه أبو عمر مختصرا ، قلت ثقيف قبيلتان ، الأحلاف وبنو مالك ، فالأحلاف ، ولد عوف بن ثقيف وهذا منهم ، فإن معتباً هو ابن مالك ابن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف .

(٢) قال المختصون فى تراجم الصحابة : هو شرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف ، أسلم وحسن إسلامه ، نزل الطائف ، وكان من رواة الحديث ، روى عن النبى ﷺ فى الاستغفار : بين كل سجدتين من صلاته ، كان أحد الرجال الخمسة الذين بعثتهم ثقيف بإسلامهم مع عبد ياليل ، له ولأبيه صحبه ، ذكره ابن شاهين وقال : مات سنة ستين ، أخرجه ابن عبد البر وأبو موسى .

(٣) هو عثمان بن أبى العاص بن بشر بن دهمان ، بن عبد الله بن همام بن أبان بن سمار بن مالك بن حطيط بن خيثم بن ثقيف ، يكنى أبو عبد الله . استعمله رسول الله ﷺ على الطائف ، قال فى أسد الغابة : لم يزل عثمان على الطائف حياة رسول الله ﷺ وخلافة أبى بكر وسنتين من خلافة عمر ، واستعمله عمر سنة خمس عشرة على عمان والبحرين ، فسار إلى عمان ، ووجه أخاه الحكم إلى البحرين وسار هو إلى توج فافتتحها ومصرها وقتل ملكها شهرك سنة إحدى وعشرين ، كان عثمان كثير الجهاد فى سبيل الله فقد كان يغزو صيفاً . ويشتو بتوج ، وكان له فى الطائف موقف مشرف . فبعد موت النبى ﷺ حيث اضطربت جزيرة العرب بالردة ، وقف عثمان بن أبى العاص موقفاً شديداً من أهل الريبة ، ومنع أهل الطائف من الردة ، وكان سيداً شريفاً مطاعاً فانصاعوا له ، فلم تحدث أية ردة فى الطائف ، كان من مشاهير الصحابة الذين روى عنه أصحاب السنن الحديث عن رسول الله ﷺ ، روى عنه من أهل المدينة ، وأهل البصرة ، وممن روى عنه الإمام الحسن البصرى ، كان عثمان قد سكن البصرة .

(٤) قال ابن الأثير فى أسد الغابة : إسمه أوس بن حذيفة ، لا أوس بن عوف ، وهو من بنى مالك ، وقال ابن سعد فى طبقاته الكبرى : كان أوس بن حذيفة المذكور ممن استوطن الطائف ، وكان فى وفد ثقيف ، روى الحديث عن النبى ﷺ أنظر ترجمته مطولة فى أسد الغابة ج ١ ص ١٤٣ ـــ ١٤٤

خرشة[1] ستة . ويقال : إن الوفد كانوا بضعة عشر رجلاً ، فيهم سفيان بن عبد الله[2] .

قالوا : فخرج بهم عبد ياليل وهو رأسهم وصاحب أمرهم ، ولكنه أحب أن يسهل كل رجل رهطه[3] .

اتجه وفد ثقيف صوب الشمال الغربي قاصداً المدينة المنورة ، ليحمل إلى الرسول ﷺ القرار الذى توصل إليه سادات ثقيف والمتضمن خروج ثقيف من الشرك ودخولها فى الإسلام ، وكان ذلك من أعلام النبوّة ، فقبل ما يقرب من سنة ــ وعندما كان النبى ﷺ يفك الحصار عن حصن ثقيف بالطائف بعد معركة حنين الفاصلة ــ سأل بعض الصحابة الرسول ﷺ أن يدعو على ثقيف بالهلاك ، فأبى سيد الرحماء ، ودعا لهم بدلاً من أن يدعو عليهم . فقال : اللهم اهد ثقيفا وأت بهم .

وهاهى ثقيف تأتى إلى المدينة (ممثلة فى وفدها الكبير) طائعة مختارة برئاسة رجل كان من أشرس الناس وأشدهم عداوة للنبى ﷺ وسخرية به وبدينه الحق (عبد ياليل بن عمرو) الذى قال للرسول ﷺ ــ فى أول الإسلام عندما لجأ إلى ثقيف يطلب نصرتها على مشركى مكة ــ قال له مستهزئا : (وهو يمرط[4] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك) ، وقال له أخوه مسعود بن عمرو : (أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟) ، وقال أخوه الثانى حبيب بن عمرو : (والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول ، لأنت

---

(1) قال ابن الأثير : هو نمير بن خرشة بن ربيعة الثقفى ، حليف لهم من بلحارث بن كعب ، وروى عنه أنه قال أدركنا رسول الله ﷺ بالجحفة فاستبشر الناس بقدومنا .

(2) هو سفيان بن عبد الله بن أبى ربيعة بن مالك بن حطيط بن جشم بن ثقيف ، كان من ثقات الصحابة الذين يعتمد عليهم عمر بن الخطاب ، ولاه عمر بن الخطاب إمارة الطائف بعد نقل عثمان بن أبى العاص إلى البحرين ، روى عنه الحديث عن رسول الله ﷺ خلق كثير منهم إبنه عبد الله ، وعروة بن الزبير ، ومحمد بن عبد الله بن ماعز ، ونافع بن جبير ، وسفيان بن عبد الله وعنه روى عروة بن الزبير الحديث التربوى العظيم المشهور الذى قال فيه سفيان : قلت يا رسول الله قل لى قولاً فى الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : قل آمنت بالله عز وجل ثم وجل ثم استقم .

(3) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٤ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٦٣ .

(4) يمرطه : ينزعه فيرمى به

أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك[1]) .

استمر عبد ياليل وأعضاء وفده فى تحركهم من الطائف نحو المدينة دون أن يعلم بهم أحد من المسلمين حتى وصلوا ضواحى المدينة وفى وادى قناة[2] على وجه التحديد ، فكان أول من تعرَّف عليهم (وأدرك أنهم جاءوا ليعلنوا إسلام ثقيف) أحد أبناء الأحلاف من ثقيف ، وهو المغيرة بن شعبة الذى كان من أصحاب النبى ﷺ السابقين فى الإسلام .

فقد عرف المغيرة رجال الوفد وأثبتهم واحداً واحداً لأنهم كلهم أبناء بلده ، وقد عايشهم أكثر عمره بالطائف ، وعندما عرفهم المغيرة وعلم أنهم جاءوا لإعلان إسلام ثقيف ، ترك الوادى (الذى كان فيه يرعى إبلاً للرسول ﷺ) وصار يعدو على رجليه بأقصى سرعة ليبشر الرسول ﷺ بقدوم هذا الوفد ، لأن المسلمين (وعلى رأسهم النبى ﷺ) يدركون أن إسلام ثقيف له ما بعده ، مما يعود على الإسلام والمسلمين بأعظم المكاسب ، إذ يعنى ذلك تنظيف آخر جيب من جيوب المقاومة الوثنية الخطيرة التى تشغل بال المسلمين ، حيث لم تبق قوة وثنية مسلحة تحتاج إلى تجريد الجيوش ، سوى ثقيف ذات العدد والعدة ، والتاريخ الحربى يثبت هذه الحقيقة ، فقد رأينا فى أواخر السنة الثامنة الهجرية كيف ضرب إثنا عشر ألفاً من المسلمين بقيادة النبى ﷺ الحصار على حصون ثقيف فعجزت كل هذه القوات الكثيفة القوية عن فتح بلادهم .

لقد دلت تصرفات كبار الصحابة ، حين علموا بقدوم وفد ثقيف ليعلن الإسلام ، دلت على أن إسلام ثقيف حدث هام عظيم بدليل أنهم كانوا يتبارون فى أيهم الأول يبشر الرسول ﷺ بقدوم وفد ثقيف .

فقد ذكر أصحاب المغازى والسير أن وفد ثقيف لما دنا من المدينة ونزل وادى قناة لقوا بها المغيرة بن شعبة يرعى فى نوبته ركاب رسول الله ﷺ وكانت

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦١ .

(٢) وادى قناة .. وادى مشهور يمر شمال المدينة بسفوح جبل أحد من الشرق إلى الغرب ، وفيه دارت معركة أحد الشهيرة .

نوباً على أصحابه ، فلما رآهم المغيرة ترك الركاب وضبر[1] يشتد ليبشر رسول الله ﷺ بقدومهم ، حتى انتهى إلى باب المسجد ، فلقى أبا بكر الصديق فأخبره خبر قومه ، فقال المغيرة : أقسمت عليك بالله لا تسبقنى إلى رسول الله ﷺ بخبرهم حتى أكون أنا أخبره ــ وكان رسول الله ﷺ قد ذكرهم ببعض الذكر ــ فأبشّره بمقدمهم ، فدخل أبو بكر على النبى ﷺ فأخبره والمغيرة على الباب ، ثم خرج أبو بكر إلى المغيرة فدخل المغيرة على النبى ﷺ وهو مسرور[2] .

أما المغيرة بن شعبة ، فقد غمره الفرح والسرور بمجىء قومه للاهتداء بهدى الإسلام ، فعاد إليهم حيث خيموا بوادى قناة فرحب بهم وأعانهم فى ترويح إبلهم وأخذ فى تهذيبهم والترويض من طباعهم النافرة الجافة الشرسة ، حيث كانوا أعراباً أجلافاً لا يعرفون من تعاليم الإسلام وآدابه شيئاً ، فعلّمهم كيف يحيون الرسول ﷺ .

الشروط السخيفة التى اشترطتها ثقيف لإسلامها :

غير أن جذور الجاهلية المتأصلة فى نفوس الوفد الثقفى جعلت رجال هذا الوفد ــ وهم يفاوضون النبى ﷺ ــ يشترطون لدخولهم فى الإسلام شروطاً تناقض أصول هذا الدين ، وقد رفض الرسول ﷺ هذه الشروط ، إلا أنه بحكمته وحلمه وأناته وصبره ، تغلّب على كل الصعاب فى المفاوضات التى استغرقت وقتاً غير قصير بينه وبين وفد ثقيف ، حتى دخلوا فى الإسلام وتخلوا عن تلك الشروط السخيفة .

ظلت رواسب الجاهلية (رغم توجيه المغيرة بن شعبة) ذات تأثير على عقول رجال وفد ثقيف فبدلاً من أن يحيّوا الرسول ﷺ بتحية الإسلام التى علمهم إياها المغيرة بن شعبة ، حيوه بتحية الجاهلية وهى (عم صباحاً) ، كما أن وفد ثقيف فى المرحلة الأولى من المفاوضة ، لم يتصل بالنبى ﷺ مباشرة كما كانت تفعل الوفود الوافدة إلى المدينة لإعلان إسلام عشائرهم ، بل لجأ الوفد

---

(١) ضبر : أى وثب

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٤ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٩٨ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٦٤ .

الثقفى فى مفاوضاته مع الرسول ﷺ أول الأمر إلى واسطة بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وكان هذا الواسطة ، هو خالد بن سعيد بن العاص[1] الذى كان ينقل من وادى قناة (حيث يخيم الوفد الثقفى) إلى رسول الله ﷺ آراء ومقترحات وشروط وفد ثقيف ، ويعود إليهم بجواب رسول الله ﷺ عليها .

كان وفد ثقيف ضيفاً على النبى ﷺ رغم أن رجال هذا الوفد لم يعلنوا إسلامهم صراحة إلا بعد مفاوضات طويلة وشاقة .

فكان الطعام — بأمر من رسول الله ﷺ — ينقل من المدينة إلى رجال الوفد فى وادى قناة شمالى المدينة ، ولكن هؤلاء الثقفيين (لما نشأوا عليه من جلافة الأعراب ، ولما ترسب فى نفوسهم من رواسب وثنية ، لم يمحها غير الإسلام حينما دخلوا فيه) كان الشك ينتابهم حيال الرسول ﷺ وأصحابه ، فكانوا لهذه الوساوس ، لا يأكلون من الطعام الذى يبعث به إليهم النبى ﷺ حتى يأكل منه الصحابى الوسيط ، خالد بن سعيد بن العاص .

أما خلاصة الشروط السخيفة المناقضة لأصول الإسلام والتى اشترطتها ثقيف والمطالب التى تقدمت بها إلى النبى ﷺ فهى :

---

(١) هو خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .. يكنى أبو سعيد ، أمه من ثقيف . كان خالد من السابقين الأولين فى الإسلام ، أسلم بعد أبى بكر الصديق ، فكان ثالثاً أو رابعاً ، وقال ضمرة بن أبى ربيعة : كان إسلام خالد مع إسلام أبى بكر ، وقالت أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص ، كان أبى خامساً فى الإسلام . قلت : من تقدمه . قالت : على بن أبى طالب وأبو بكر وزيد ابن حارثة وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وكان سبب إسلامه ، أنه رأى فى النوم أنه وقف على شفير النار ، فذكر من سعتها ما الله أعلم به وكآن أباه يدفعه فيها ورأى رسول الله ﷺ آخذاً بحقويه لا يقع فيها ، ففزع وقال : أحلف إنها لرؤيا حق ، ولقى أبا بكر فذكر ذلك له . فقال له أبو بكر : أريد بك خيراً، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه فإنك ستتبعه فى الإسلام الذى يحجزك من أن تقع فى النار وأبوك واقع فيها ، فلقى رسول الله ﷺ وهو بأجياد . فقال : يا محمد إلى من تدعو ؟ قال : أدعوا إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ولا يدرى من عبده ممن لم يعبده . قال خالد : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فسر رسول الله ﷺ بإسلامه ، هاجر خالد بن سعيد الهجرتين ، كان خالد بن سعيد من عمال رسول الله ﷺ ومات الرسول ﷺ وخالد أمير له على اليمن وكان خالد أول قائد يقتحم بجيشه الشام مجاهداً فى خلافة أبى بكر الصديق ، وقد نكب جيشه وتراجع بعد أن أوقعه الرومان قرب دمشق فى شبه كاشة ، آستشهد خالد بن سعيد فى معركة أجنادين فى خلافة عمر بن الخطاب على أصح الأقوال ، وقيل استشهد فى معركة مرج الصفر وهو يقود المعركة الأولى ضد الرومان بالقرب من دمشق .

١ ــ إباحة الزنا لهم .
٢ ــ السماح لهم بالتعامل بالربا .
٣ ــ السماح لهم بتعاطى الخمر .
٤ ــ إسقاط الصلاة عنهم .
٥ ــ تأخير هدم صنمهم اللات لمدة ثلاث سنوات .

هذه هى المطالب والشروط السخيفة التى تقدم بها الوفد الثقفى إلى النبى ﷺ لدخولهم فى الإسلام ، ولكنّ النبى ﷺ رفض (جملة وتفصيلاً) كل هذه الشروط والمطالب ، لأنها كلها تناقض أصول الإسلام . ثم ما زال رسول الله ﷺ يقدم الحجج والبراهين لرجال الوفد على أن الإنسان لا يكون مسلماً مالم يتبّع تعاليم الإسلام كلها حتى اقتنعوا وسلموا وأسلموا .

وقد ذكر أصحاب المغازى والسير ، كل بسنده وأسلوبه ، ذكر القصة المطوّلة للمفاوضات التى جرت بين الوفد الثقفى وبين الرسول ﷺ فقالوا :

دخل المغيرة بن شعبة على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، قدم قومى يريدون الدخول فى الإسلام بأن تشرط لهم شروطاً ويكتبون كتاباً على من وراءهم من قومهم وبلادهم . فقال رسول الله ﷺ : لا يسألون شرطاً ولا كتاباً أعطيته أحداً من الناس إلّا أعطيتهم فبشرهم ، فخرج المغيرة راجعاً فخبّرهم ما قال لهم رسول الله ﷺ ، وبشّرهم وعلمهم كيف يحيّون رسول الله ﷺ ، فكل ما أمرهم به المغيرة فعلوا ، إلا التحية فإنهم قالوا : أنعم صباحاً ، ودخلوا المسجد . فقال الناس : يا رسول الله ، يدخلون المسجد وهم مشركون ؟ فقال رسول الله ﷺ إنّ الأرض لا ينجّسها شىء .

وأنزل المغيرة ثقيفاً فى داره بالبقيع ، وهى خطة خطّها رسول الله ﷺ ، فأمر النبى ﷺ بخيمات ثلاث من جريد فضربت فى المسجد ، فكان خالد ابن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله ﷺ ، حتى كتبوا كتابهم ، وكان خالد هو الذى كتب كتابهم بيده ، وكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد ، حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم .

وكانوا (وهم فى المسجد قبل أن يسلموا) يسمعون القراءة بالليل وتهجّد أصحاب النبى ﷺ ويتوضّأون وينظرون إلى الصفوف فى الصلاة المكتوبة ، ويرجعون إلى منزل المغيرة فيطعمون ويتوضّأون ، ويكونون فيه ما أرادوا ، وهم يختلفون إلى المسجد . وكان رسول الله ﷺ يجرى لهم الضيافة فى دار المغيرة ، وكانوا يسمعون خطبة النبى ﷺ ، فقالوا : أمرنا بالتشهد أنه رسول الله ولا يشهد به فى خطبته ، فلما بلغ رسول الله ﷺ قولهم قال : أنا أول من شهد أنى رسول الله ، ثم قام فخطب وشهد أنه رسول الله فى خطبته ، فمكثوا على هذا أياماً ، يغدون على النبى ﷺ كل يوم يخلفون عثمان بن أبى العاص على رحالهم ، وكان أصغرهم ، فكان إذا رجعوا إليه وناموا بالهاجرة خرج فعمد إلى النبى ﷺ فسأله عن الدين واستقرأه القرآن ، وأسلم سراً من أصحابه فاختلف إلى النبى ﷺ مراراً حتى فقه ، وسمع القرآن ، وقرأ من القرآن سوراً على رسول الله ﷺ ، فإذا وجد رسول الله ﷺ نائماً عمد إلى أبى بكر رضى الله عنه فسأله واستقرأه ـــ ويقال : إذا وجد النبى ﷺ نائماً جاء أبىّ بن كعب فاستقرأه ـــ فبايع النبى ﷺ على الإسلام قبل الوفد وقبل القضية ، وكتم ذلك عثمان من أصحابه ، وأعجب النبى ﷺ به وأحبه .

فمكث الوفد أياماً يختلفون إلى النبى ﷺ ، والنبى يدعوهم إلى الإسلام ، فقال عبد ياليل : هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى أهلنا وقومنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام قاضيتكم ، وإلا فلا قضية ولا صلح بينى وبينكم ، قال عبد ياليل : أرأيت الزنا ؟ فإنا قوم عزّاب بغرب (أى ببعد) ، لابد لنا منه ، ولا يصبر أحدنا على العزبة .

قال : هو مما حرّم الله على المسلمين ، يقول الله تعالى :﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾[1]

قال :أرأيت الربا ؟ .

قال : الربا حرام .

قال : فإن أموالنا كلها ربا .

قال : لكم رؤوس أموالكم ، يقول الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما

---

(١) سورة الإسراء ٣٢ .

بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾[1] .

قال : أفرأيت الخمر ؟ فإنها عصير أعنابنا ، لابد لنا منها .

قال : فإنَّ الله قد حرمها ، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ﴾ الآية .

قال أصحاب المغازى والسير : فارتفع القوم وخلا بعضهم ببعض ، فقال عبد ياليل : ويحكم ، نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال الثلاث ، والله لا تصبر ثقيف عن الخمر أبداً ، ولا عن الزنا أبداً ، وكان فى الوفد رجل ذا عقل وبصيرة هو سفيان بن عبد الله . فقال لعبد ياليل : أيها الرجل ، إن يرد الله بها (أى ثقيفاً) خيراً تصبر عنها ، قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا فصبروا وتركوا ما كانوا عليه ، مع أنا نخاف هذا الرجل ، قد أوطأ الأرض غلبة ونحن فى حصن فى ناحية من الأرض ، والإسلام حولنا فاش ، والله لو قام على حصننا شهراً لمتنا جوعاً ، وما أرى إلا الإسلام ، وأنا أخاف يوماً مثل يوم مكة .

ثم قالوا للرسول ﷺ : أرأيت الربّة (يعنى اللات) ما ترى فيها ؟.

قال : هدمها .

قالوا : هيهات ، لو تعلم الربَّة أنا أوضعنا فى هدمها قتلت أهلنا .

قال عمر بن الخطاب : ويحك يا عبد ياليل إن الربَّة حجر لا يدرى من عبده ممن لا يعبده .

قال عبد ياليل : إنا لم نأتك يا عمر فأسلموا[2] .

وهكذا فشل الوفد الثقفى فى الحصول على أية امتيازات تسقط عن ثقيف بعض التكاليف كالصلاة أو تبيح لهم بعض المحرمات فى الإسلام كالربا والزنا والخمر ، وذلك بعد أن رفض الرسول ﷺ كل هذه المطالب بصراحة ، وأبلغ الوفد الثقفى أن الإسلام بكل تكاليفه وأوامره ونواهيه كل لا يمكن تجزئته بأخذ

---

(١) سورة البقرة ٢٧٨ .

(٢) انظر تفاصيل إسلام ثقيف فى سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٢ — ١٨٣ — ١٨٤ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٦٢ — ٩٦٣ — ٩٦٤ — ٩٦٥ — ٩٦٦ — ٩٦٧ — ٩٦٨ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٩٧ — ٩٨ — ٩٩ وطبقات ابن سعد ج ٣ ص ٣١٣ — ٣١٤ والبداية والنهاية ج ٥ ص ٩٦٨ والكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٩٣ — ١٩٤ .

بعضه وترك بعضه .

بعد هذه المفاوضات والمراجعات الطويلة ، وبعد تداول أعضاء الوفد الثقفى فيما بينهم الرأى استصوبوا رأى سفيان بن عبد الله ، تغلب وازع العقل على نداء العاطفة فدخلت ثقيف فى الإسلام دونما قيد أو شرط ، إلا أن الرسول ﷺ قبل أن يُعفى ثقيفاً من تحطيم صنمها اللات وبقية أصنامها بأيديها .

قال الواقدى : وكمل الصلح ، وكتب ذلك خالد بن سعيد فلما كمل الصلح ، كلموا النبى ﷺ يدع الربَّة ثلاث سنين لا يهدمها ، فأبى ، قالوا : سنتين ، فأبى . قالوا : سنة ، فأبى . قالوا : شهراً واحداً ، فأبى أن يوقِّت لهم وقتاً . وإنما يريدون بترك الربَّة لما يخافون من سفهائهم والنساء والصبيان ، وكرهوا أن يروعوا قومهم بهدمها ، فسألوا النبى ﷺ أن يعفيهم من هدمها. قال رسول الله ﷺ : نعم أنا أبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها ، واستعفوا رسول الله ﷺ أن يكسروا أصنامهم بأيديهم ، وقال : أنا آمر أصحابى أن يكسروها .

وسألوا رسول الله ﷺ أن يعفيهم من الصلاة .

فقال ﷺ : لا خير فى دين لا صلاة فيه .

فقالوا : يا محمد أما الصلاة فسنصلى ، وأما الصيام فسنصوم . وتعلموا فرائض الإسلام وشرائعه ، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يصوموا ما بقى من الشهر ، وكان بلال يأتيهم بفطرهم ، ويخيَّل إليهم أن الشمس لم تغب ، فيقولون : ما هذا من رسول الله ﷺ إلا استبار لنا ، ينظر كيف إسلامنا . فيقولون : يا بلال ما غابت الشمس بعد ، فيقول بلال : ما جئتكم حتى أفطر رسول الله ﷺ ، فكان الوفد يحفظون هذا عن رسول الله ﷺ من تعجيل فطره . وكان بلال يأتيهم بسحورهم قال : فأسترهم من الفجر[1] .

هكذا أسلمت ثقيف ، وبدخولها فى الإسلام لم تتبق فى جزيرة العرب قوة ذات شأن تناوىء الإسلام . وبعد إسلام ثقيف أخذت الوفود من جميع أنحاء

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٦٨ .

الجزيرة العربية يفدون إلى المدينة لدخول من تبقى من قبائل العرب فى الإسلام .

أمير ثقيف منهم :

وبعد أن أشرقت قلوب وفد ثقيف بالإسلام وهم فى المدينة ، وأصبحوا ضمن الأسرة الإسلامية الكبرى . طلبوا من الرسول ﷺ أن يعيّن لهم أميراً يرجعون إليه فى الإدارة والحكم ببلادهم ويتولى إرشادهم ويؤمّهم فى الصلاة .

فقالوا : يا رسول الله أمِّر علينا رجلاً يؤمُّنا ، ولما كان التَفَقُّه فى الدين مع الكفاءة فى العمل ، هو المقياس عند الإسلام لتولى الأمر فقد اختار الرسول ﷺ لثقيف أميراً عليها فى بلادها كلها عثمان بن أبى العاص ، ولم يمنع الرسول من أن يؤمّر على ثقيف عثمان هذا كونه أصغر رجال الوفد سناً ، فقد اختاره الرسول ﷺ من بينهم أميراً لما رأى من حرصه على الإسلام ، وحرصه على تعلم القرآن ولكونه كان أسبق رجال الوفد إلى الدخول فى الإسلام .

فقد عينَه الرسول ﷺ أميراً على الطائف كلها ، وبعد أن عينَه أميراً زوده بوصايا نبوية سامية ، قال عثمان : وكان آخر عهد عهده إلىَّ رسول الله ﷺ أن اتخَذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً ، وإذا أممت قوماً ، فأقدرهم[1] بأضعفهم ، وإذا صليت لنفسك فأنت وذاك[2] .

وكان أبو بكر الصديق قد أثنى على عثمان بن أبى العاص فقال : يا رسول الله إنى قد رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن[3] .

وفى رواية أخرى أن عثمان بن أبى العاص قال : كان آخر ما عهد إلىَّ رسول الله ﷺ حين بعثنى على ثقيف أن قال : يا عثمان تجاوز فى الصلاة ، وأقدر الناس بأضعافهم ، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة[4] .

---

(١) أقدرهم (بضم القاف وسكون الدال) أى قدر ظروف الضعيف فيهم بحيث لا تطيل فى صلاتك إلى درجة تشق على الضعيف بل اجعلها فى حدود طاقته من حيث المدة .

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٦٩ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٥ .

(٤) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٦ .

وبعد أن تمت كل الإجراءات الخاصة باعتناق ثقيف الإسلام ، وكتب الرسول ﷺ بينه وبينهم كتابهم وعيَّن أميرهم ، غادروا المدينة قاصدين بلادهم الطائف ليعلموا قومهم بنتيجة محادثتهم ويدعونهم إلى الدخول فى الإسلام .

وقد لاقى رجال الوفد الثقفى من قومهم فى الطائف بعض المتاعب وشيئاً من المقاومة فلم يتقبلوا الإسلام بسهولة ، ولكن رجال الوفد اطمأنوا من نفارهم ولاينوهم وروّضوهم حتى تم التغلب على كل المتاعب ، ودخل الثقفيون فى الإسلام جميعهم .

هدم الطاغية اللات وما صاحبه من متاعب :

كان إسلام ثقيف فى السنة التاسعة الهجرية آخر مسمار دق فى نعش الوثنية فى منطقة الحجاز وغربى نجد حيث تسكن قبائل هوازن العظيمة والكثيرة العدد . حيث لم يعد للوثنية أى وجود فى هذه المناطق .

لقد كان يوماً مشهوداً ذلك اليوم الذى تحطم فيه صنم ثقيف (اللات) وهو صنم قد اتخذته ثقيف إلهاً من دون الله ليقرِّبها إلى الله زلفى .

وقد جاء ذكر هذا الصنم فى كتاب الله العزيز ، فقال تعالى ﴿أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى إنْ هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظّن وما تهوى الأنفسُ ولقد جاءهم من ربِّهم الهدى﴾[1] .

تاريخ اللات ومن هو :

ومن الجدير بالذكر أن اللات هو اسم رجل صالح ، كان منذ القدم ـــ قد اتخذ له مكانا طريق الحاج يطعم فيه المحتاجين من الحجاج عندما يمرون به ، وكان يلتُّ لهم السويق (أى يعجنه) بنفسه ، ويطعمهم تقرباً إلى الله تعالى ، ولهذا أطلق عليه لقب (اللات) نسبة إلى قيامه بلت العجين .

كان اللات يفعل المعروف هذا والناس على الحنفية دين إبراهيم عليه السلام ، فلما مات هذا الرجل الصالح (اللات) اتخذ قومه على قبره مشهداً فصاروا

(١) سورة النجم آية ٢٣ .

يختلفون اليه للتكريم والتبرك ، وبمرور الزمن وتكاثف الجهل وتفلّت الناس من الحنفية دين إبراهيم عليه السلام تحوَّل اللات إلى صنم يُعْبَدْ من دون الله [١] بالدعاء والطواف والتقديس والذبح والنذر ، لا بالاعتقاد أن اللات يخلق أو يرزق أو يحيي أو يميت، وإنما بالاعتقاد أنه لقربه من الله (بزعمهم) يتوسط لهم عند الله على أساس قاعدتهم التى أشار إليها القرآن ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى ﴾[٢] .

ولقد روى الإمام ابن جرير الطبرى بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد : ﴿أفرأيتم اللات والعزّى﴾ قال : كان يلتُّ لهم السويق[٣] فمات فعكفوا على قبره ، وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس : (كان يلت السويق للحجاج) وعن سعيد بن منصور : (فيطعم من يمر من الناس فلما مات عبدوه ، وقالوا : هو اللات)[٤] .

كان اللات أكبر الأوثان عند العرب[٥] . وقال الإمام هشام الكلبى فى كتابه (الأصنام) : واللات بالطائف ، هو أحدث من مناة ، وكان صخرة مربعة ، وكان يهودى يَلتُّ عندها السويق ، وكانت سدنتها من ثقيف بنو عتّاب ابن مالك ، وكانوا قد بنوا عليها بناءً وكانت قريش وجميع العرب تعظّمها ، وبها كانت العرب تسمّى (زيد اللات وتيم اللات) ، وكانت فى موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم (أى فى عهد الكلبى) ، وهو الذى ذكره الله فى القرآن فقال : ﴿أفرأيت اللات والعزّى﴾ .

وله يقول عمرو بن الجعد :

فإنى وتركى وصلَ كأس كالذى ... تبرأ من لات وكان يدينُها

---

(١) أنظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٢٤٨ مطبعة السنة المحمدية ، وانظر كتاب الأصنام للإمام الكلبى ص ١٦ وما بعدها .

(٢) سورة الزمر آية ٣ .

(٣) السويق : دقيق الحنطة أو الشعير . ولته : بله بالماء أو السمن ، والحاج بمعنى الحجاج .

(٤) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٢٤٩ .

(٥) فتح المجيد ص ٢٥٤ .

وله يقول المتلمس فى هجائه عمرو بن المنذر :

أطردتنى حذَرَ الهُجاء واللات والأنصاب لا تئل

فلم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف ، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار . وفى ذلك يقول ابن عارض الجُشَمى حين هُدِّمت وحُرِّقت ينهى ثقيفاً عن العود إليها والغضب لها .

لا تنصروا اللاتَ إنَّ الله ملكُها وكيف نصركموا من ليس ينتصرُ

إنَّ التى حرقت بالنار فاشتعلت ولم تقاتِل لدى أحجارها هَدَرُ

إن الرسول متى ينزل بساحتكم يظعن وليس بها من أهلها بَشَرُ

وقال أوس بن حجر يحلف باللات .

وباللات والعزّى ومن دانَ دينَها وبالله إن الله منهن أكبر(١)

كان صنم اللات أعظم أصنام العرب شأناً فى نفوس ثقيف خاصة والعرب عامة ، وكأننا قد مرَّت آلاف السنين والأعراب فى الطائف يتوارثون تقديس وتعظيم هذا الصنم جيلاً بعد جيل ، وكان وفد ثقيف الذى ذهب إلى المدينة برئاسة عبد ياليل يعرف ما لهذا الصنم الطاغية من منزلة فى نفوس ثقيف الذين قتلوا سيدهم عروة بن مسعود لأنه عندما عاد من المدينة مسلماً لم يحلق رأسه عند هذا الصنم كما هى عادتهم ، بل رفع شعار التوحيد وهو الأذان .

وحتى بعد أن أسلم رجال الوفد فى المدينة وحسن إسلامهم فقد كانوا يتصورون الصعوبات التى سيلاقونها لإقناع قومهم باعتزال الصنم اللات والقبول بتحطيمها كشرط أساسى لصحة إسلامهم .

لهذا كان وفد المفاوضة من ثقيف (وهو يفاوض الرسول ﷺ للدخول فى الإسلام) أفصح عن تخوّفه من التحطيم الفورى للطاغية (اللات) وكان هذا التخوّف ناتجاً عَمَّا يتوقعونه من النقمة التى سيتعَرضون لها من جماهير ثقيف

---

(١) كتاب الأصنام ص ١٧ .

إن هم رأوا زعماءهم من رجال الوفد ، يعودون من المدينة وهم يحملون مشروع تحطيم اللات التى ظلت إلهاً عبر آلاف السنين .

لذا طلب عبد ياليل وبقية أعضاء وفده ، طلبوا من الرسول ﷺ أن يسمح ببقاء (اللات) ويتجاوز عن بقائها لمدة ثلاث سنوات ، على أساس أن يسعى زعماء ثقيف خلالها للتطمين من نفار نفوس الثقفيين وترويضها حتى يدخلوا فى الإسلام ويرضوا (بدون متاعب) بتحطيم (اللات) صنمهم الأكبر .

غير أن الرسول ﷺ الذى ما جاء إلا لمحو كل أثر من آثار الوثنية رفض طلب الوفد الثقفى وأصر (إقامة للتوحيد) على أن يهدم صنم اللات فى الحال وبمجرد التمكن من هدمه ، لأن بقاء هذا الصنم يبقى ما له من تقديس فى نفوس جماهير ثقيف ، وهذا لا يساعد على نشر الإسلام بينهم ، بل على العكس يشكل عائقاً كبيرا فى هذا السبيل .

ولأن السماح (من جهة أخرى) ببقاء هذا الصنم مع وجود سلطان الإسلام على ثقيف ، يعنى موافقة الرسول ﷺ على أن تمارس طقوس الشرك إلى جانب قيام التوحيد ، وهو تناقض ترفضه طبيعة الإسلام وأبى القبول به الرسول ﷺ وهو فى أشد أيام محنته عندما كان بمكة قبل الهجرة فى قلة قليلة جداً من أصحابه ، وعندما لم تكن له أية قوة عسكرية تقف إلى جانبه ، فكيف يوافق (إذن) على هذا التناقض وقد دانت كل الجزيرة العربية وأصبحت كلها عسكراً للتوحيد .

لهذا رفض الرسول ﷺ السماح ببقاء اللات ، وأصر على أن أول عمل يجب أن يتم عند عودة وفد ثقيف إلى الطائف هو تحطيم صنم (اللات) فلم يسع الوفد الثقفى (وقد دان بالإسلام إلا أن يوافق على ذلك) .

إلا أن رجال الوفد الثقفى تقدموا إلى الرسول ﷺ بالتماس يطلبون فيه إعفاءهم من أن يحطموا صنم اللات وبقية الأصنام بأيديهم ، ولما لم يكن فى تحقيق هذا الطلب أى أثر ضار على دعوة التوحيد أو على إسلام رجال الوفد ، فقد وافق الرسول ﷺ الوفد الثقفى على التماسهم قائلاً : (أما كسر أوثانكم

بأيديكم فسنعفيكم منه[1]، وقال أنا آمر أصحابى أن يكسروها) .

وقد عاد الوفد الثقفى إلى الطائف ، بعد أن أعلنوا دخول ثقيف فى الإسلام ، أما مهمة تحطيم اللات وبقية أصنام ثقيف فقد أوكلها الرسول ﷺ إلى أبى سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة الثقفى ، وقد توجه أبو سفيان والمغيرة إلى الطائف لتنفيذ أوامر الرسول ﷺ بشأن هدم الطاغية اللات وبقية الأصنام .

وعندما وصلا الطائف طلب المغيرة من أبى سفيان أن يتقدم ويشرع فى هدم (اللات) ولكنَّ أبا سفيان ــ وقد علم ما أصاب عروة بن مسعود على يد قومه حين قتلوه لما لم يقدّس اللات ــ طلب هو من المغيرة أن يبدأ هو الهدم قائلاً : (ادخل على قومك أنت[2]) فاتجه المغيرة بنفسه إلى صنم قومه اللات يصحبه بضعة عشر رجلاً ، ليتولى نسف اللات وما حولها من أبنية تابعة لها ، فوجد المغيرة حشداً كبيراً من عامة ثقيف حول صنم (اللات) ، ولكنهم عندما شرع المغيرة فى هدم اللات ، لم يبدوا أية مقاومة مسلحة ، إلا أن بنى معتّب من ثقيف (قوم المغيرة) حاولوا إقناعه بعدم توريط نفسه فى هدم اللات ، فنصحوه بأن لا يُقدِم على الهدم خوفاً عليه (بزعمهم) من أن يُصيبه مكروه من ذلك الصنم ، لما بقى فى نفوسهم من رواسب الاعتقاد الجاهلى فى هذا الصنم .

إلا أن المغيرة (وهو المكين فى الإسلام) سخر من تحذير قومه السخيف ، ثم حمل المعول ــ أمام الجماهير المحتشدة ــ وتسلق بناية صنمهم (اللات) حتى بلغ رأسه والعامة لا تشك ــ لما فى نفوسهم من اعتقاد وثنى فى اللات ــ فى أن اللات ستدافع عن نفسها ، فتطيح بالمغيرة وتقضى على حياته ، إلا أنَّ شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد أخذ المشاهدون ينظرون إلى المغيرة بن شعبة فى ذهول ، وهو يضرب ذلك الصنم الذى يُعبَدُ من دون الله فى الطائف آلاف السنين ، فيهدمه حجراً حجراً ، حتى أتى عليه من القواعد دون أن يناله أىُّ مكروه .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٥ ومغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٦٨ .

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٧١ .

وبهدم صنم اللات انتهت خرافة من أعظم الخرافات فى جزيرة العرب ، وهى خرافة اللات أعظم الآلهة عند الوثنيين العرب ، ثم قام المغيرة بن شعبة وأبو سفيان بن حرب بتحطيم ما بقى من أوثان لثقيف فى المنطقة ، وبتكسير وتحطيم اللات وبقية أوثانهم أزيل آخر أثر للوثنية فى منطقة الحجاز .

كيف أضحك المغيرة الناس من ثقيف

ويذكر المؤرخون وأصحاب السير أن المغيرة بن شعبة (كى يضحك الناس من ثقيف ويبرهن على اعتقادهم الخاطئ وغبائهم الكبير وأنهم كانوا يعيشون وأجدادهم وهماً) مع هذا الصنم اللات آلاف السنين تظاهر — وهو يهدم الطاغية اللات — بأنها قد أصابته إنتقاماً لنفسها ، فخرّ متظاهراً بأنه مغشىّ عليه ، ليرى كيف يكون ردّ الفعل عند الجماهير المحتشدة حول الصنم ، ولقد كان رد الفعل كبيراً بين هذه الجماهير ، فلم يكد المغيرة يسقط ويتظاهر بأنه مغشى عليه حتى تصايحت الجماهير المخدوعة فخورة بآلهتها اللات ، معلنة أن الربة — كما يسمونها — لن تسكت على من يريد أن يمسها بسوء .

وبينما كانت الجماهير المغفلة المخدوعة فى نشوة وهمها بأن اللات قد انتصرت لنفسها ، إذا بالمغيرة بن شعبة يقف ساخراً من تلك العقول الضالة ، وموجها الحديث (فى توبيخ وتقريع) لأولئك القوم من أهله قائلاً : (يا معشر ثقيف ، كانت العرب تقول : ما من حى من أحياء العرب أعقل من ثقيف ، وما من حيّ من أحياء العرب أحمق منكم ، ويحكم ، وما اللات والعزى ، وما الرَّبة؟ حجر مثل هذا الحجر ، لا يدرى من عبده ومن لم يعبده ، ويحكم أتسمع اللات أو تبصر أو تنفع أو تضر ؟ ثم هدمها وهدم الناس معه[1]) .

وفى مصادر الحديث عن هدم الصنم اللات جاء أن بنى معتّب قوم المغيرة ابن شعبة ، عندما تبلّغوا أن المغيرة ابنهم سيتولى بنفسه هدم (اللات) لبسوا السلاح ووقفوا إلى جانبه مخافة أن تعتدى عليه ثقيف بالقتل كما اعتدت على عمّه عروة بن مسعود ، فقام بنو معتّب يحرسون المغيرة حتى انتهى من هدم

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٧٢ .

اللات ، فلم تقدر أن تناله ثقيف بأى أذى ، ولهذا السبب طلب أبو سفيان من المغيرة بن شعبة أن يكون هو البادئ بهدم صنم قومه ، لأن أبا سفيان يعلم أن عشيرة المغيرة سيحمونه بالسلاح[1] .

حديث الواقدى المطوّل عن ثقيف وصنمها اللات :

ويحدثنا الإمام الواقدى (بإسهاب) عن تدنّى مستوى العقول التى كانت تعكف على تقديس اللات والعزّى ، وعن المضاعفات والمتاعب التى لقيها الوفد الثقفى فى سبيل إقناع ثقيف بالتخلى عن عبادة اللات وبقية الأصنام ، وقد سلك الوفد مختلف السبل ولجأ إلى شتى الحيل حتى تمكن من إقناع ثقيف بأن أسلم وسيلة لهم هى الدخول فى الإسلام ففعلوا .

قال الواقدى ــ يصف قدوم الوفد على قومهم ثقيف وما قابلوهم به : (ثم خرج الوفد عامدين إلى الطائف) ، فلما دنوا من ثقيف قال عبد ياليل : أنا أعلم الناس بثقيف فاكتموها القضية ــ أى الاتفاقية التى تمت بين الوفد وبين الرسول ﷺ ــ وخوّفوهم بالحرب والقتال وأخبروهم أن محمداً سألنا أموراً عظّمناها فأبيناها عليه ، ويسألنا تحريم الزنا والخمر ، وأن نبطل أموالنا فى الربا ، وأن نهدم الرَّبة .

وخرجت ثقيف حين دنا الوفد ، فَلَمَّا رآهم الوفد ساروا العنق[2] وقطروا الإبل ، وتغشّوا بثيابهم كهيئة القوم قد حزنوا وكربوا ، فقال بعضهم : ما جاء وفدكم بخير ، ودخل الوفد ، فكان أول ما بدأوا به على اللات ، فقال القوم حين نزول الوفد إليها ، وكانوا كذلك يفعلون ، فدخل القوم وهم مسلمون فنظر فيما خرجوا يدرأون به عن أنفسهم ، وقالت ثقيف : كأنهم لم يكن لهم بها عهد ولا برؤيتها ، ثم رجع كل واحد إلى أهله ، وأتى رجالاً منهم جماعة من ثقيف فسألوهم : ماذا رجعتم به ؟ وقد كان الوفد قد استأذنوا النبى ﷺ أن ينالوا منه فرخّص لهم ، فقالوا : جئناكم من عند رجل فظ غليظ ، يأخذ من أمره ما شاء ، قد ظهر بالسيف ، وأداخ

---

(١) أنظر مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٧١ .

(٢) قال فى لسان العرب : العنق (بفتح أوله وثانيه) من السير المنبسط .

العرب[1] ودان له الناس ، ورعبت منه بنو الأصفر فى حصونهم ، والناس فيه إما راغب فى دينه وإما خائف من السيف ، فعرض علينا أموراً شديدة أعظمناها فتركناها عليه ، حرّم علينا الزنا ، والخمر والربا ، وأن نهدم الرّبة . فقالت ثقيف :لا نفعل هذا أبداً . فقال الوفد : لعمرى قد كرهنا ذلك وأعظمناه ، ورأينا أنه لم ينصفنا ، فأصلحوا سلاحكم ، ورمّوا حصنكم ، وانصبوا العرّادات عليه والمنجنيق ، وأدخلوا طعام سنة أو سنتين فى حصنكم ، لا يحاصركم أكثر من سنتين ، واحفروا خندقاً من وراء حصنكم ، وعاجلوا ذلك فإنَّ أمره قد ظل لا نأمنه ، فمكثوا بذلك يوماً أو يومين ، يريدون القتال ، ثم أدخل الله تبارك وتعالى فى قلوبهم الرعب فقالوا : ما لنا به طاقة ، وقد أداخ العرب كلها ، فارجعوا إليه فأعطوه ما سأل وصالحوه ، واكتبوا بينكم كتاباً قبل أن يسير إلينا ويبعث الجيوش .

فلما رأى الوفد أن قد سلموا بالقضية ، ورعبوا من النبى ﷺ ، ورغبوا فى الإسلام ، واختاروا الأمن على الخوف ، قال الوفد : فإنا قد قاضيناه ، وأعطانا ما أحببناه ، وشرط لنا ما أردنا ، ووجدناه أتقى الناس ، وأبرّ الناس ، وأوصل الناس ، وأوفى الناس ، وأصدق الناس ، وأرحم الناس ، وقد تركنا من هدم الربة وأبينا أن نهدمها ،وقال: (أبعث من يهدمها) ، وهو يبعث من يهدمها . قال : يقول شيخ من ثقيف قد بقى فى قلبه شيء من الشرك بعد بقية : فذاك والله مصداق ما بيننا وبينه ، إن قدر على هدمها فهو محق ونحن مبطلون ، وإن امتنعت ففى النفس من هذا بعد شيء ، فقال عثمان بن العاص : منّتك نفسك الباطل وغرّتك الغرور ، ومات الرَّبة ؟ وما تدرى الرَّبة من عبدها ومن لم يعبدها ؟ كما كانت العزّى ، ماتدرى من عبدها ومن لم يعبدها ، جاءها خالد بن الوليد وحده فهدمها ، وكذلك إساف[2] ونائلة وهبل[3] ، ومناة

---

(١) أداخهم أى أذلهم .

(٢) قال الكلبى فى كتابه (الأصنام) : وكان لهم إساف ونائلة ، لما مسخا حجرين وضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما ، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام ، عبد معها . وكان أحدهما بلصق الكعبة ، والآخر فى موضع زمزم ، فنقلت قريش الذى كان بلصق الكعبة إلى الآخر ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما .

(٣) هبل (بضم الهاء وفتح الباء) هو (كما جاء فى كتاب الأصنام) أعظم أصنام قريش ، قال =

خرج إليها رجل واحد فهدمها ، وسواع[1] ، خرج إليه رجل واحد فهدمه ، فهل امتنع شيء منهم ؟ قال الثقفى : إنَّ الربة لا تشبه شيئاً مما ذكرت ، قال عثمان : سترى .

ثم يستمر الإمام الواقدى فيقول : وأقام أبو سفيان والمغيرة بن شعبة يومين أو ثلاثة ، ثم خرجوا وقد تحكم أبو مليح بن عروة ، وقارب بن الأسود ، وهما يريدان يسيران مع أبى سفيان والمغيرة إلى هدم الربة ، فقال أبو مليح يا رسول

= الكلبى : وكان فيما بلغنى من عقيق أحمر على صورة الإنسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب ، كان أول من نصبه خزيمة بن مدركة ، وكان يقال له : هبل خزيمة .. وكان فى جوف الكعبة ، قدامة سبعة أقداح ، مكتوب فى أولها : صريح والآخر : ملصق ، فإذا شكوا فى مولود ، أهدوا له هدية ، ثم ضربوا بالقداح ، فإن خرج : صريح ألحقوه وإن خرج ملصق ، دفعوه .. وقدح على الميت .. وقدح على النكاح ، وثلاثة لم تفسر لى على ما كانت ، فإذا اختصموا فى أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً ، أتوه فاستقسموا بالقداح عنده . فما خرج ، عملوا به وانتهوا إليه ، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله (والد النبى ﷺ) ، وهو الذى قال أبو سفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد : أعل هبل .. أى علا دينك .. فقال رسول الله ﷺ : الله أعلى وأجل .

(١) ودا (بفتح الواو) أحد أصنام خمسة مشهورة عند العرب ومنذ فجر التاريخ ، وهن (ود ، وسواع ، ويغوث . ونسر ويعوق) وقد كانت هذه الأصنام الخمسة معبودات قوم نوح كما جاء فى القرآن الكريم ﴿ قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً .. ومكروا مكراً كباراً .. وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً .. وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً ﴾ .. قال أبو المنذر هشام بن محمد الكلبى فى كتابه (الأصنام) : وكان أول من اتخذ تلك الأصنام (من ولد إسماعيل وغيرهم من الناس ، وسموها بأسمائها على ما بقى ففهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل) هذيل بن مدركة .

اتخذوا سواعاً ، فكان لهم برهام من أرض ينبع ، وينبع عرض من أعراض المدينة ، وكانت سدنته بنو لحيان . واتخذت كلب (ودا) بدومة الجندل ، وكان الذى جاء بالصنم (ود) عمرو بن لحى الجرهمى عندما كان حاكماً على مكة قبل قريش ، دفع عمرو الصنم (ودا) إلى عوف بن عذرة بن زيد اللات ابن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحال بن قضاعة .. فحمل عوف الصنم (ودا) إلى وادى القرب ، فأقره بدومة الجندل ، وسمى ابنه عبد ود ، فهو أول من سمى به ، وهو أول من سمى عبد ود ثم سمعت العرب به بعد .. ظل الصنم (ود) معبوداً بدومة الجندل حتى حطمه خالد بن الوليد عام تسع من الهجرة حين بعثه رسول الله ﷺ من تبوك .. وقد دافعت كلب عن إلهها (ود) فقاتلهم خالد حتى قتلهم ، فهدمه وكسره .. وقال الإمام الكلبى قلت لمالك بن حارثة : صف لى (ود) حتى كأنى أنظر إليه . فقال : كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر (أى نقش) عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ورفضة أى (جعبة) فيها نبل .

الله ،إنّ أبى قتل وعليه دين ، مائتـا مثـقال ذهب ، فإن رأيت أن تقضيه من حليّ الرّبة فعلت . فقال رسول الله ﷺ : نعم . فقال قارب بن الأسود : وعن الأسود بن مسعود أبى ، فإنه قد ترك ديناً مثل دين عروة ، فقال رسول الله ﷺ : إنَّ الأسود مات وهو كافر . فقال قارب . تصل به قرابة ، إنما الدين عليَّ وأنا مطلوب به . فقال رسول الله ﷺ : إذاً أفعل . فقضى عن عروة والأسود دينهما من مال الطاغية .

وخرج أبو سفيان والمغيرة وأصحابهما لهـدم الربة فلما دنوا من الطائف قال (المغيرة) لأبى سفيان : تقدم فادخل لأمر النبى ﷺ . فقال أبو سفيان : بل تقدم أنت على قومك ، فتقدم المغيرة فى بضعة عشر رجلاً يهدمون الربة ، فلما نزلـوا بالطائف نزلوا عشاء فباتوا ، ثم غدوا على الربة يهدمونها ، فقال المغيرة لأصحابه الذين قدموا معه : لأضحكنكم اليوم من ثقيف . فأخذ المعول واستوى على رأس الربة ومعه المعول ، وقام قومه بنو معتّب دونه ، معهم السلاح مخافة أن يصاب كما فعل بعمه عروة بن مسعود . وجاء أبو سفيان وهو على ذلك فقال : كلا ، زعمت تقدمنى أنت إلى الطاغية ، ترانى لو قمت أهدمها كانت بنو معتب تقوم دونى ؟ قال المغيرة : إن القوم قد واضعوهم هذا قبل أن تقدم ، فأحبوا الأمن على الخوف .

قال الواقدى : وقد خرج نساء ثقيف حسراً[1] يبكين على الطاغية ، والعبيد ، والصبيان ، والرجال منكشفون ، والأبكار خرجن . فلما ضرب المغيرة ضربة بالمعول سقط مغشياً عليه يرتكض ، فصاح أهل الطائف صيحة واحدة : كلا ، زعمتم أن الربة لا تمتنع ، بلى والله لتمتنعن ، وأقام المغيرة ملياً على حاله تلك ، ثم استوى جالساً فقال : يا معشر ثقيف كانت العرب تقول : ما من حى من أحياء العرب أعقل من ثقيف ، وما من حى من أحياء العرب أحمق منكم ، ويحكم ، وما اللات والعزى ، وما الربة ؟ حجر مثل هذا الحجر ، لا يدرى من يعبده ومن لم يعبده ، ويحكم ، أتسمع اللاتُ أو تبصر أو تنفع أو تضر ، ثم هدمها وهدم الناس معه ، فجعل السادن يقول : — وكانت سدنة اللات من ثقيف بنو العجلان بن عتاب بن مالك ، وصاحبها

---

(١) حسَّراً : أى مكشوفات الوجوه ، قاله أبو ذر فى شرحه .

منهم عتاب بن مالك بن كعب ثم بنوه بعده ــ يقول : سترون إذا انتهى إلى أساسها ، يغضب الأساس غضباً يخسف بهم .

فلما سمع بذلك المغيرة ولى حفر الأساس حتى بلغ نصف قامة ، وانتهى إلى الغبغب خزانتها ، وانتزعوا حليها وكسوها وما فيها من طيب ومن ذهب أو فضة . قال : تقول عجوز منهم : أسلمها الرضاع[1] ، وتركوا المصاع[2] ، وأعطى رسول الله ﷺ مما وجد فيها أبا مليح ، وقاربا ، وناسا ، وجعل فى سبيل الله وفى السلاح منها ، ثم إن رسول الله ﷺ كتب لثقيف : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من النبى رسول الله إلى المؤمنين ، إن عضاه وجّ[3] وصيده لا يعضد ، ومن وجد يفعل ذلك يجلد وتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ محمداً ، فإن هذا أمر النبى محمد ﷺ » . وكتب خالد بن سعيد بأمر النبى الرسول محمد بن عبد الله ، فلا يتعداه أحد ، فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله ﷺ . ونهى النبى ﷺ عن قطع عضاه وجّ وعن صيده . وكان الرجل يوجد يفعل ذلك فتنزع ثيابه . واستعمل رسول الله ﷺ على حمى وجّ سعد بن أبى وقاص[4] .

وهكذا وبانتهاء هدم اللات وبدخول ثقيف فى الإسلام انتهت آخر مرحلة من مراحل الصراع بين الإسلام والوثنية فى منطقة الحجاز ، حيث أصبحت كل هذه المنطقة داخلة فى حظيرة الإسلام ، ولم يعد للوثنية أى وجود فى أية ناحية من نواحى الحجاز ، وكان إسلام ثقيف فى أواخر السنة التاسعة للهجرة . أى بعد مرور حوالى سنة على انهزام ثقيف وكل هوازن فى معركة حنين الحاسمة . والعام التاسع من الهجرة ، هو المسمى بعام الوفود ، وفيه أنزل الله تعالى على نبيه ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً فسبّح بحمد ربّك واستغفره إنه كان تواباً﴾[5] .

---

(١) الرضاع (بكسر الراء) جمع راضع ، وهو اللئيم .

(٢) المصاع (بكسر الميم) : المضاربة بالسيف .

(٣) وج . قال ياقوت : اسم الطائف .

(٤) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٩٦٩ ــ ٩٧٠ ــ ٩٧١ ــ ٩٧٢ ــ ٩٧٣ .

(٥) سورة النصر .



الفصل السادس

(نظرة وتحليل)

- وقفة عند عدد قتلى الفريقين فى المعركة .
- دروس من حنين .
- أسباب هزيمة المسلمين فى المرحلة الأولى .
- أسباب انتصار المسلمين بعد انهزامهم .
- ثبات الرسول ﷺ ساعة الهزيمة هو نقطة التحول فى تصحيح وضع المسلمين .
- أسباب هزيمة هوازن بعد انتصارها .
- أسباب فشل حصار الطائف .

قتلى الفريقين فى معركة حنين :

برجوعنا إلى مصادر التاريخ الإسلامى كالطبرى والواقدى وابن إسحاق ، لم نجد هؤلاء يذكرون سوى أربعة استشهدوا يوم حنين . وهم .

١ ـــ أيمن بن عبيد وهو ابن أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ . وعدَّه ابن إسحاق من قريش .

٢ ـــ سراقة بن الحارث من الأنصار .

٣ ـــ رقيم بن ثابت بن ثعلبة بن زيد بن لوذان ويهمله ابن إسحاق ، ويذكر بدلاً منه يزيد بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب ، بينما يذكر الواقدى أن يزيداً استشهد فى حصار الطائف لا فى حنين .

٤ ـــ أبو عامر الأشعرى عم أبى موسى الأشعرى .

أما قتلى المشركين ، فلم يذكر المؤرخون أية تفاصيل عنهم ، فلم يذكروا (مثلاً) أسماء أحد منهم أربعة رجال من بنى مالك هم :

١ ـــ اللجلاج .

٢ ـــ ورجل يقال له وهب .

٣ ـــ عثمان بن عبد الله ، وكان سيد ثقيف .

٤ ـــ عوف بن الربيع وهو الملقب بذى الخمار .

ورغم عدم إعطاء المؤرخين جدولاً بأسماء القتلى من مشركى هوازن ، فإنه يفهم من ثنايا حديثهم عن المعركة أن عدد القتلى بين هوازن كان كبيراً .

فمثلاً ذكر الواقدى أن ثقيفاً وحدها فقدت فى المعركة ما يقارب المائة قتيل كما ذكر (كما تقدم فى هذا البحث) أن قبيلة بنى نصر (قوم القائد العام لهوازن) استحرّ بينها القتل حتى كادت تفنى مما حدا ببعض المسلمين من بنى نصر هؤلاء إلى أن قال (اشفاقاً على قومه رغم شركهم) ، يا رسول الله ، هلكت بنو رباب ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اجبر مصيبتهم ـــ وقبيلة بنى نصر من أهم أجنحة هوازن ولا شك أنها تعد بالمئات ، ومعنى تصريح أحد أفرادها بأن القتل كاد يفنيها ، معناه أن قتلاها بلغوا المئات ، وهاتان فقط قبيلتان من هوازن تشم من حديث المؤرخين عن ضحاياهما أنها بلغت المئات

فكم هى إذن الضحايا بين العشائر الأخرى من هوازن ؟ لا شك انها تعد بالمئات أيضاً ، وهذا غير مستغرب ، لأن طبيعة المعركة تفرض أن تكون الضحايا كثيرة جداً ، لأنها معركة لم يدر مثلها (بعد مؤتة) فى الضراوة والشراسة والعنف حيث صبر الفريقان فيها صبراً عظيماً كما تقدم وصفه فى هذا البحث .

تعليق على عدد القتلى المسلمين :

واذا كان يستشف من حديث أصحاب السير والمغازى أن هوازن قد فقدت (تقريباً) أكثر من ألف قتيل ، فإن أصحاب السير والمغازى هؤلاء قد وضعوا جدولاً لقتلى المسلمين لم يذكروا فيه (كما تقدم) أكثر من أربعة شهداء ، ونحن ــ واستناداً إلى نظرية فيلسوف التاريخ الإمام ابن خلدون الذى ذكرها فى مقدمته ــ نرى أن هذا العدد (بالنسبة لمستوى المعركة الضارية قليل) فنقول :

مما لاجدال فيه ولا اختلاف بين أصحاب السير والمغازى أن معركة حنين هى (بعد معركة مؤتة) أعنف معركة يخوضها الجيش النبوى ، وقد شهد بذلك الصادق المصدوق النبى ﷺ حين قال ــ بعد أن عاد المنهزمون المسلمون إلى الميدان ــ: الآن حمى الوطيس ، وهذا قول يصوِّر شدة القتال وضراوته ، وهو قول ، لم يقل الرسول ﷺ مثله فى وصف أية معركة من المعارك التى خاضها طيلة حياته .. قول يجسد ويصوِّر صبر الفريقين فى القتال العنيف الضارى ، لأن الوطيس فى القتال لا يحمى إلا إذا تصافح المحاربون بالسيوف وتداسروا بالرماح وتراشقوا بالنبل على أعلى مستويات القتال فى ثبات وصبر وعناد .

وهوازن قبيلة محاربة على مستوى ممتاز وقواتها المشتركة فى المعركة قوات كثيفة حددها المؤرخون بعشرين ألف مقاتل ، كما أن هذه القوات الكثيفة كانت تحت قيادة ملك فتى باسل هو فى القمة من حيث الشجاعة والخبرة بالحرب وأساليبها ، وكان جيشه الكثيف شديد الانضباط ، إلى درجة رأينا معها كيف أطاع عامة الجيش وسمعوا لقائدهم الشاب ، رغم الغلطة التعبوية التى ارتكبها ، والمتمثلة فى إجبار جند هوازن على أن يصطحبوا معهم إلى ميدان القتال النساء

والأطفال والأموال ، وهى الغلطة التى نبه المحارب المجرب دريد بن الصمَّه الجشمى القائد مالكاً إليها وطالبه بشدة أن يتراجع عنها . فرفض استناداً إلى ما ترسخ فى اعتقاده أن ما أقدم عليه بهذا الشأن سيكون من أكبر الحوافز للجند على الثبات وعدم التفكير فى الهرب . وفعلاً ثبت جند هوازن حتى فقدوا (وهم صابرون) ما لا يقل عن ألف قتيل فى تقديرنا استناداً إلى إشـــارات أصحاب المغازى والسير .

ثم إننا (كما شهد المؤرخون أنفسهم) رأينا كيف نزلت الهزيمة المروِّعة بجيش الإسلام فى المرحلة الأولى من المعركة حتى وصلت طلائعه المنهزمة قريباً من مكة ، والمنهزم الهارب يكون القتل فيه كثيراً دونما جدال ، لا سيما إذا كان عدوّه المنتصر يطارده لينزل به أكبر خسارة ممكنة فى الأرواح ، وهو ما فعلته هوازن المنتصرة (بشهادة أصحاب المغازى والسير) فى أول المعركة ، وكانت هوازن عشرين ألفاً والمسلمون اثنى عشر ألفاً .

يضاف إلى ذلك (وهو الأهم) نجاح كمائن هوازن فى هجومها الصاعق على المسلمين ، فقد انقضت الكمائن بأسلوب صاعق مباغت عند الفجر على الجيش النبوى وهاجمته بمختلف الأسلحة بما فى ذلك الخيل ، كما قصف رجال الكمائن الهوازنية المسلمين من مختلف الجهات بوابل من النبال وصفها بعض المؤرخين لكثافتها كأنها أرجال الجراد . وهذه النبال لابد وأن تصيب مقاتل كثير من الذين تعرَّضوا لها لاسيما وأنهم كانوا مكشوفين لرماة النبل الذين كانوا يتربصونهم وراء التلال دون أن يعلموا عنهم شيئاً .

وقد رأينا ـــ أثناء حصار الطائف ـــ كيف قُتل أربعة عشر من المسلمين بنبال الثقفيين الذين كانوا فى حصونهم ، رغم أن المسلمين كانوا على استعداد وحذر ، وكانوا بعيدين عن مرمى النبال ومستترين بمختلف الآلات والوسائل .

فكيف إذن (ومع كل الذى أوضحناه) يكون كل قتلى المسلمين فى معركة حنين من أولها إلى آخرها أربعة قتلى فقط ؟.

إن الذى نراه (وهذا مجرد استنتاج وتقييم) أن شهداء المسلمين فى معركة حنين أكثر بكثير من الذى ذكره الواقدى وابن إسحاق والطبرى ، ولا ندرى (طبعاً) بالتحديد كم هم عدد الشهداء الذين نعتقد أنهم سقطوا فى ميدان

الشرف بحنين ، ولكنهم (فى نظرنا) يبلغون المئات ، وهو عدد لابد وأن يسلم به كل خبير عسكرى درس وصف المؤرخين لمراحل معركة حنين الطاحنة .

ونحن بهذا لا نتهم الأئمة الأعلام من أصحاب السير والمغازى بإخفاء الحقائق ، كلا وألف كلا . بل نؤكد أنهم مثال النزاهة والأمانة والصدق ، فهم (كما ذكرنا فى كتابنا غزوة مؤتة) أمناء ثقات يقدِّرون مسؤولية ما يكتبون لمن بعدهم من الأجيال ، وانطلاقاً من قاعدة الأمانة فى النقل التى التزموها لم يذكروا من شهداء معركة حنين إلا ما وصل إلى علمهم عن طريق الثقات ، وهم أربعة شهداء فقط .

ولكن هؤلاء المؤرخون الأعلام أثبتوا بالتفصيل ضراوة المعركة وشدتها وطول وقتها وذكروا ما يشير إلى أن قتلى المشركين بلغوا المئات دون أن يضعوا جدولاً سوى لأسماء أربعة منهم على رأسهم قائد قوات ثقيف عبد الله بن عثمان .

ثم إننا (مع ترجيحنا القوى بأن قتلى المسلمين فى حنين قد وصلوا المئات) وترجيحنا هذا مبنى على ما درسناه من مراحل القتال الشرس والضارى ابتداء من انهزام إثنى عشر ألف مقاتل (أول الأمر) وهم المسلمون وملاحقة عشرين ألف مقاتل لهم يخبطونهم بالسيوف ويطعنونهم بالرماح ويرمونهم بالنبال ، وهم المشركون ، مدة من الزمن ، ثم رجوع المنهزمين المسلمين والتحامهم مع المنتصرين المشركين فى قتال شرس ضار لم يصف الرسول مثله فى الضراوة بسبب صبر الفريقين وذلك بقوله ﷺ : « الآن حمى الوطيس » . إننا مع ترجيحنا هذا نعتز بنزاهة وأمانة أئمتنا المؤرخين الأعلام الذين لم يكتبوا لنا فى مؤلفاتهم إلا أسماء ما وصل إلى علمهم من شهداء المسلمين وهم أربعة .. كما لم يذكروا أيضاً إلا أربعة فقط من القتلى وكلهم من ثقيف .

ثم إن عدم حصول أئمة المغازى والسير على أعداد تفصيلية أو إجمالية لعدد شهداء المسلمين فى معركة حنين وفى غيرها مثل معركة مؤتة (وهى فى نظرنا أعداد كثيرة) يرجع إلى عدة أمور .

١ ــ أنه لم يكن هناك (لا فى قيادات المسلمين ولا فى قيادات المشركين) قسم إدارى مهمته إحصاءالقتلى وتقديم قوائم بأسمائهم كما هو النظام السائد فى الجيوش العصرية .

٢ ــ ليس هناك (كما قلنا فى كتابنا غزوة مؤتة) ديوان إحصاء للجند يسجل فيه المنخرطون فى سلك الجيش بحيث يمكن الرجوع إلى هذا السجل لمعرفة عدد وأسماء الشهداء فيسهل على المختصين بأخبار المغازى والسير وضع قوائم بأسماء هؤلاء الشهداء فى مؤلفاتهم .

٣ ــ يؤلف أبناء البادية من مختلف القبائل الأغلبية فى الجيش النبوى يوم حنين ، وهؤلاء بعد معركة حنين وحصار الطائف تفرقوا راجعين إلى قمم الجبال وبطون الوديان فى بواديهم المنتشرة فى طول الجزيرة وعرضها ، ولا شك أن كل عشيرة علمت بشهدائها ، ولكن من الصعب على المختصين بتدوين أخبار المغازى والحروب فى العهد النبوى ، الحصول من هؤلاء البدو على عدد وأسماء الشهداء من أبناء هذه العشائر ، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الاهتمام بتدوين أخبار الحروب الإسلامية فى العهد النبوى لم يكن من المؤرخين إلا فى أواسط أواخر القرن الثانى الهجرى .

من هنا جاء تقديرنا واستنتاجنا بأن هناك للإسلام جنوداً كثيرين استشهدوا فى معركة حنين لم يصل إلى علم المؤرخين الأوائل عددهم وأسماؤهم ، وأكثرهم (على الأرجح) من أبناء البادية الذين يمثلون أكثرية الجيش المحارب فى حنين .

هذا كما قلنا (فى تعقيبنا على شهداء غزوة مؤتة) مجرد استنتاج وتقييم جعلنا نبديها استساغتنا ــ بل والتزامنا ــ للقاعدة الفلسفية التاريخية التى وضعها فيلسوف التاريخ والاجتماع الأول الإمام عبد الرحمن بن خلدون الكندى الحضرمى فى مقدمته الذائعة الصيت ، والقائلة : إن على المؤرخ الباحث أن لا يجمد على النصوص المتعلقة بالتاريخ ، بل عليه (مع فحص النصوص) أن يقيم الأحداث ويزن الأمور بميزان العقل فيرفض تصديق ما لايقبله العقل والوجدان (كقصة العبّاسة أخت الرشيد) كما عليه أن يستخرج الحقائق على ضوء الواقع التاريخى والتى قد لا تكون النصوص التاريخية المسطورة قد ذكرتها ولكنَّ سياق هذه النصوص تُستشف منه هذه الحقائق كالترجيح بأن عدد شهداء المسلمين فى معركتى حنين ومؤتة أكثر مما أورده أصحاب المغازى فى كتبهم رضى الله عنهم .

بين أحد وبدر وحنين :

قد يقول قائل :ـــ لمعارضة استنتاجنا وتقدير هذا :ـــ ولكن كيف تمكن أصحاب المغازى والسير من وضع جدول دقيق لقتلى الفريقين (المسلمين والمشركين) فى كل من معركتى بدر وأحد بل وحتى عدد الأسرى من المشركين فى بدر ، وذكر اسم كل واحد من أولئك القتلى من الفريقين والأسرى من المشركين ؟ .

والجواب على هذا التساؤل هو كما يلى :

١ ـــ إن المتحاربين فى هاتين المعركتين كل فريق منهم يمثل عنصراً واحداً أشبه ما يكون بالعائلة الواحدة بحيث يعرف كل أفراد هذه العائلة بعضهم البعض فرداً فرداً .

فقريش (مثلاً) قبيلة واحدة خرجت من مدينة واحدة وكل عشيرة بل كل العشائر القرشية تعرف بالتحديد عدد وأسماء المشتركين من قريش فى المعركتين .

ومثل ذلك يقال فى المقاتلين المسلمين من أهل المدينة فهم عنصر واحد كذلك أشبه بعائلة واحدة يعرف أفراد هذه العائلة بعضهم بعضاً فرداً فرداً فمن السهل جداً التعرف على اسم الرجل الذى يفقدون فى أى المعركتين أحد أو بدر ، وهذا بالنسبة للفريقين المشركين والمسلمين ، على حد سواء . وإذا كان الأنصار لا يعرفون أسماء كل القوات القرشية المشتركة فى كل من معركتى بدر وأحد ، فإن فيهم من المهاجرين (وكلهم من قريش) عدد غير قليل يعرف كل واحد منهم اسم ونسب كل جندى مشرك اشترك فى أى من المعركتين لأن هؤلاء المشركين نشأوا وهؤلاء المهاجرين فى بلدة واحدة هى مكة ، فهم أبناء بلدة واحدة ومن قبيلة واحدة هى قريش أو الأحابيش الذين يعتبرون من قريش أيضاً .

٢ ـــ بالإضافة إلى ما تقدم فإن عدد المحاربين المسلمين فى كلتا المعركتين محدود ، فهم فى معركة بدر حوالى ثلاثمائة ، وفى معركة أحد حوالى سبعمائة ، فهم مع هذا العدد المحدود ، عندما خرجوا إلى كلتا المعركتين محفوظة أسماؤهم

فى سجل مضبوط ، وإن كان سجلاً غير مكتوب حيث كان هذا السجل صدور نساء ورجال أهل المدينة الذين يحفظون بكل دقة أسماء وأنساب هؤلاء الذين خرجوا من المدينة إلى كلّ من المعركتين ، ومثل هذا القول ينطبق على المشركين من قريش ، من هنا سهل على أصحاب المغازى والسير معرفة عدد بل وأنساب القتلى من الفريقين فى كلتا المعركتين وكذلك عدد وأسماء وأنساب الأسرى من المشركين . أما فى كل من معركة مؤتة وحنين ، فالأمر يختلف اختلافاً كبيراً ، فالجيش فيهما مؤلف من قبائل عديدة وخاصة فى فتح مكة ومعركة حنين كما هو موضح فى جدول المحاربين لأسماء القبائل المشتركة فى فتح مكة (انظر كتابنا فتح مكة) وهذه القبائل هى التى اشتركت فى معركة حنين وأكثرها من سكان البادية المنتشرين فى مختلف أرجاء الجزيرة . والذين من الصعب، جداً على المختصين بكتابة مغازى الرسول ﷺ أن يعرفوا عن شهدائهم من التفاصيل مثل الذى عرفوه ودونوه عن شهداء معركتى بدر وأحد .

دروس من حنين

إن أول درس استفاده ويجب أن يستفيده المسلمون من معركة حنين ، هو عواقب الإعجاب بالنفس والاعتداد بالكثرة إلى حد الغرور ، هذا الإعجاب الذى كرهه الله للمسلمين وذكرهم به فى القرآن بما جره عليهم من وبال ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ الآيات .

فالإعجاب يؤدى إلى الغرور ، والغرور بدوره يؤدى إلى الاستهانة بالعدو ، والاستهانة بالعدو تؤدى فى النهاية إلى مساعدة هذا العدو فى أعماله الحربية إلى حد كبير ، وقد تحقق له النصر الكامل وإن كان غير مُهيِّءٍ له . وهكذا يمكن إجمال النتائج السيئة التى نتجت عن إعجاب المسلمين بكثرتهم فيما يلى :

أ ــ الاستهانة بقوات هوازن .

ب ــ جزم عناصر الجيش بأنهم لن يغلبوا فى المعركة .

جـ ــ الإهمال واللامبالاة التى سادت مقدمة الجيش وعناصر الاستطلاع المسؤولة عن الاستكشاف الأمر الذى جعل هذه العناصر تقصّر فى مهمتها إلى الحد الذى جعلها تجهل أخطر عمل تعبوى قامت به قيادة هوازن ، وكاد يؤدى

بجيش الإسلام إلى كارثة مدمرة ، وهو تنظيم الكمائن ، ووضعها فى أضيق المضايق والممرات التى سيمر بها الجيش النبوى عند بزوغ الفجر ، مما أدى إلى الهزيمة المنكرة التى نزلت بالعسكر الإسلامى فى الصدمة الأولى من المعركة ، نتيجة انقضاض الكمائن على أرتال المسلمين وبصورة صاعقة مفاجئة ، وفى مكان ضيق ووعر .

أسباب هزيمة المسلمين فى البداية :

أ ـــ الغرور والإعجاب :

كان إعجاب المسلمين بكثرتهم والذى تحول لدى بعض عناصر الجيش إلى غرور ـــ السبب الرئيسى فى الإهمال والاسترخاء الذى حل لدى كثير من عناصر الجيش محل التنبه واليقظة والحذر مما أدى إلى تمكين العدو من وضع خطة الكمائن وتنفيذها بصورة ناجحة أدت إلى هزيمة المسلمين هزيمة منكرة عند الصدمة الأولى ، **هذه الهزيمة التى كادت أن تكون كاملة شاملة ساحقة لولا** ثبات الرسول والقائد الأعلى للجيش فى الميدان .

ب ـــ مستوى التعبئة الممتاز الذى كانت عليه قوات هوازن قبل المعركة ، فقد رأينا كيف أن ذلك الشاب الألمعى قائد هوازن وملكها ، مالك بن عوف رغم غلطته التعبوية القاتلة (استصحاب الجند للأهل والمال معهم) قد لجأ عند تعبئة قواته فى حنين إلى عامل نفسى كان له أثره المرعب فى نفوس جند المسلمين ، وهو أنه أركب النساء فى الصفوف الخلفية من جيشه على الجمال ، فظهرن وكأنهن جزء من الجيش ، حتى بدا جيش هوازن وكأنه مائة ألف لا عشرين ألفاً كما شهد بذلك أحد الصحابة الذين حضروا حنين كما تقدم فى هذا البحث .

ج ـــ نجاح قائد هوازن فى سبق المسلمين إلى وادى حنين واختياره المرابطة بجيشه فى المكان المناسب من هذا الوادى ، حتى بدا واضحاً وكأنه أجبر المسلمين على المرور فى مضايق وشعاب ، لا يفضلون المرور فيها لوعورتها وضيقها وشدة انحدارها ، وهذه حقيقة أدلى بها أحد الصحابة وهو يتحدث عن التحرك إلى حنين ، فذكر أن جيش الإسلام ـــ وهو يحاول الدخول إلى وادى حنين ـــ لم يكن يتحرك فى سهل منبسط ، كما هو الأفضل لجيش أكثره

من الفرسان والهجانة ، وإنما كان ينحدر فى منحدرات وعرة شديدة الانحدار ، الأمر الذى جعله يفقد الكثير من انتظام صفوفه ، ويسهل على الكمائن التمكن منه وإنزال الهزيمة به وعلى تلك الصورة المخيفة .

د ــ نجاح قائد هوازن فى اختيار مواضع الكمائن التى نصبها لتنقض على عسكر الإسلام فى الوقت الذى حدده لها ، حيث اختار مضايق الشعاب والمنحدرات التى سيمر بها جيش الإسلام ، ووضع الكمائن فى التلال والأماكن المحيطة بها ، كما وضع وحدات من فرسانه عند مخارج هذه الشعاب لتضرب (وبأسلوب صاعق محكم) مقدمة جيش الإسلام عندما تحاول الخروج من هذه الشعاب . وكانت مقدمة المسلمين أكثرها من بدو بنى سليم عليهم خالد بن الوليد .

هـ ــ نجاح خطة السرية والكتمان التى اتبعها القائد مالك بن عوف ، وهو يضع وحدات الكمائن الخاصة فى المواقع التى اختارها على طريق الجيش النبوى ، حيث قامَ بتفقد هذه المواقع واختيارها بمهارة ودقة ، وقام بترتيب الكمائن فيها فى ظلام الليل ، مما جعل عناصر استطلاع جيش الإسلام المكلفة بالرصد والاستكشاف على جهل تام بهذه الكمائن ومواقعها ، الأمر الذى عرّض المسلمين لتلك الهزيمة المروّعة عند الصدمة الأولى .

و ــ نجاح استخبارات ودوريات المشركين فى الحصول على أدق المعلومات عن عدد جيش الإسلام ومواعيد تحركاته بشكل لسنا متجنِّين إذا قلنا : إنه أدق من أعمال دوريات واستخبارات المسلمين .

ولولا نجاح دوريات واستخبارات هوازن الممتازة ، لما استطاعوا أن يحددوا لقائدهم العام المواضع التى وصلها جيش الإسلام والأماكن التى سيكون فيها عند الفجر ، الأمر الذى يسَّر لمالك بن عوف (وفق معادلات وحسابات دقيقة) أن يضع الكمائن فى المواقع المناسبة لتنقض على جيش الإسلام بصورة فعالة فى الوقت المناسب .

وكان مالك يعلّق أكبر الآمال على عمليات الكمائن الصاعقة المباغتة ، والتى نجحت فى مهمتها مائة فى المائة ، وكاد مالك يقطف الثمرة النهائية اليانعة لنجاح خطة الكمائن ، لولا ثبات الرسول القائد ﷺ والقلة من أصحابه ،

الذين ضيّعوا على ملك هوازن وقائده ثمرة عمليات الكمائن الناجحة .

ز ــ كذلك من أسباب هزيمة المسلمين أول الأمر أنه يوجد فى جيش الإسلام عناصر من قريش وكنانة مدخولة العقيدة ، أسلمت ولمّا يدخل الإيمان فى قلوبهم.. كانت هذه العناصر تتمنى أن تنزل الهزيمة الكاملة بالجيش النبوى ، وتود أن تتمكن هوازن من أن تعيد للوثنية سلطانها على مكة المكرمة .

لذلك ومن المنطلق السيء فإن هذه العناصر المشبوهة (وكانت جزءاً من الجيش النبوى) كانت أول المنهزمين عندما بدأت كمائن هوازن هجومها المباغت عند الفجر على المسلمين ، فكانت هذه العناصر المشبوهة ــ بالإضافة إلى إسراعها فى الهزيمة ــ عامل بلبلة وإرجاف ، حيث قامت عن قصد وسوء نية بإشاعة الذعر والفزع فى نفوس المسلمين ، للتأثير على معنوياتهم التى كانت قد تعرّضت لهزة عنيفة نتيجة تعرّضها لهجوم الكمائن الصاعق المباغت فى عماية الصبح .

ح ــ وجود عناصر أخرى فى الجيش من أهل مكة وكنانة غير سيئة النية ــ ولكنها على جهل شبه تام بالإسلام ، لحداثة عهدها بهذا الدين حيث انضمت إلى الجيش النبوى ولم يمض على إسلامها سوى حوالى خمسة عشر يوماً . فظلت هذه العناصر لذلك على كثير من المعتقدات الوثنية ، فقد رأينا كيف أن هذه العناصر طلبت من الرسول ﷺ ــ عند التحرك إلى حنين ــ أن يسمح لها بمباشرة ما يباشره المشركون من أعمال وثنية ، حيث طلبوا من الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط ، فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم (أى المشركين) ذات أنواط[1] .

فهذه العناصر قد لا تكون سيئة النية ، ولكنها جاهلة بحقيقة الإسلام المبنى على عقيدة التوحيد ، مما جعل وجودها عامل بلبلة وعامل ارتباك وضعف فى الجيش ، لأن أهم حوافز القــوة القتـالية لدى المسلمين إنما كان قوة عقيدة الإسلام .

---

(١) انظر تفاصيل قصة ذات أنواط فيما مضى من هذا الكتاب .

أهم أسباب انتصار المسلمين بعد انهزامهم :

أ ـ ثبات الرسول ﷺ :

يأتى (دونما شك) وفى الدرجة الأولى ، من أسباب انتصار المسلمين الساحق بعد هزيمتهم المنكرة فى حنين : يأتى فى الدرجة الأولى ، ثبات الرسول ﷺ عند الهزيمة ، حيث انحاز فى الميدان إلى مكان مناسب وثبت فيه ، وصار يناشد المنهزمين ليعودوا إلى ميدان الشرف وينضمُّوا إليه .

الأمر الذى جعل هزيمة المسلمين غير شاملة ، بعد أن كادت تكون كاملة ومدمرة وساحقة ، فقد انتاب المنهزمين (وخاصة الأنصار) الخجل من أنفسهم ، عندما علموا أن نبيهم وقائدهم الأعلى ثابت فى الميدان يقاتل المشركين مقبلاً غير مدبر ، فعادوا إلى الميدان وأعادوا تشكيل وحداتهم كلها من جديد وشرعوا بقيادة نبيِّهم ﷺ فى القيام بهجوم مضاد كاسح جديد ، فضيَّعتْ عودتهم إلى الميدان ثمرة الانتصار التى كاد أن يقطفها قائد هوازن وملكها الداهية .

وهذه حقيقة واقعة يقرها ـ فى كل عصر وزمان ـ المختصون بدراسة الشؤون العسكرية . فثبات القائد العام وهيئة أركان حربه ، عندما يتعرّض الجيش لهزة عنيفة أو هزيمة ، يكون له أحسن النتائج فى تصحيح الأوضاع على الأقل ، وتحويل الهزيمة إلى نصر مؤزر ، وهذا ما حدث بالفعل للجيش النبوى بسبب ثبات قيادته ، حين عاد هذا الجيش المنهزم والتف من جديد حول قائده الأعلى النبى ﷺ الذى بثباته يوم حنين ضرب أروع الأمثلة فى الشجاعة والاستبسال .

ولا غرو ، فتاريخ الرسول العسكرى قبل حنين وبعدها ، هو من أروع الصفحات فى تاريخ العسكريين الشجعان ، فما تعرّض المسلمون لروع أو فزع إلا وكان الرسول ﷺ فى مقدمتهم أثبت من الرواسى ، يحميهم ويثبّت من أفئدتهم ، فكانوا يلوذون به عندما تدلهمُّ الخطوب ، ولقد وصف هذه الحقيقة الناصعة البراء بن عازب حين قال : ولقد كنا ، إذا حمى البأس ، نتقى برسول الله ﷺ وإنه الشجاع الذى يحاذى به[1] .

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٢٨ .

وهزيمة المسلمين فى حنين ليست أول هزيمة منكرة تنزل بالمسلمين ، فيكون ثبات الرسول ﷺ العامل الرئيسى والأول فى إنقاذ الموقف وتجنُّب عواقب الهزيمة الوخيمة بإعادة المسلمين إلى الميدان ، ومقاتلتهم العدو ، بعد أن فرُّوا أمامه .

ففى معركة أُحد نزلت بالمسلمين (كما حدث فى حنين) هزيمة مروِّعة ، ووصلت طلائع المنهزمين منهم أطراف المدينة ، ولكن ما أن علموا بثبات نبيهم وقائدهم الأعلى النبى ﷺ فى مكانه من الميدان حتى كرّوا راجعين للتجمع حوله ، ومن أجل تحقيق هذا الغرض اشتبكوا مع طوابير المشركين المحيطة به فى قتال شرس ضار ، فقدوا أثناءه سبعين من خيرة رجالهم ، ولكن ذلك ـــ بفضل الله ثم بفضل ثبات نبيهم ساعة الهزيمة ـــ مما أعاد لهم السيطرة على مكان المعركة فى أُحد ، فامتنعوا بسيوفهم وضيّعوا على قريش النصر الذى يسرته لهم غلطة فصيلة الرُّماة المسلمين ، فجعل رسول الله ﷺ نصر قريش نصراً تعبوياً محدوداً ، بعد أن كاد أن يكون سَوَقياً[1] له آثاره المدمرة على مصير المسلمين .

فلولا ثبات الرسول ﷺ ساعة انكسار المسلمين يوم أُحد لكانت هزيمتهم كاملة شاملة ، وعندما تصبح هزيمتهم هكذا فإنه من السهل على قائد جيش مكة أبى سفيان أن يحتل المدينة ، وبهذا يكون نصر المشركين فى أُحد نصراً سَوَقياً شاملاً لا نصراً تعبوياً محدوداً .

ونفس الشيء فعله الرسول ﷺ فى حنين .. فقد انتصرت هوازن فى الصفحة الأُولى من المعركة انتصاراً كاد يكون انتصاراً سَوَقياً كاملاً شاملاً مدمراً ، لولا ثبات الرسول ﷺ مكانه فى الميدان منذ اللحظة الأُولى التى تعرَّض فيها جيشه لتلك الهزيمة المزلزلة .

فكانت ثمرة ثبات سيد الشجعان الرسول القائد ﷺ ، حصر انتصار هوازن بجعله (فقط) تعبوياً محدوداً غير ذى أثر مصيرى ، حيث كان ثباته

(١) الفرق بين الانتصار التعبوى والسوقى ، هو أن الانتصار التعبوى محدود فى موضع محدود لوقت محدد ، لا أثر له مصيرى ، أما الانتصار السوقى فله أثره الحاسم فى نتائج المعركة كأن يحقق المنتصر أهدافه كلها .

ﷺ السبب الرئيسى فى عودة أصحابه إلى الميدان ، هذه العودة المحمودة التى قلبت موازين القوى فى المعركة لصالح المسلمين .

غير أن مما تجدر الإشارة إليه أن الوضع المتحرّج الذى عالجه الرسول القائد ﷺ بثباته وشجاعته يوم حنين يختلف عن الوضع الخطر الذى عالجه بثباته وشجاعته يوم أُحد من حيث النتائج النهائية لكل من المعركتين .

فى معركة أحد كانت مكاسب الرسول ﷺ ساعة انهزام أصحابه :

١ ــ حرمان المشركين من توسيع انتصارهم حيث كان ذلك الثبات سبباً فى حصر ذلك الانتصار فى دائرة الانتصار التعبوى الضيق الذى يتمثل (فقط) فى تمكن المشركين مِنْ قتل سبعين من الصحابة رضى الله عنهم مع إصابة الرسول ﷺ نفسه بجراحات بليغة .

٢ ــ إجبار قريش على الاكتفاء بما حققت من نصر تعبوى محدود ورضاها من الغنيمة بالإياب حيث انسحبت من الميدان وتركته تحت سيطرة المسلمين ، مخلفة فيه أربعة وعشرين قتيلاً من جيشها ، الذى انهزم ثم انتصر نتيجة غلطة حماة مؤخرة المسلمين وهم الرماة الذين وضعهم القائد الأعلى النبى فى الجبل الذى يشرف على ميدان القتال ، ولكنَّ قريشاً عندما عاد المسلمون إلى الميدان بعد هزيمتهم المنكرة ــ لم تتعرض لأية هزيمة نتيجة انتصار سَوَقى حققه المسلمون بعد رجوعهم إلى الميدان ، فقد انسحبت قريش الى بلادها من الميدان بقواتها سليمة ما عدا ٢٤ قتيلا فقدتهم مقابل ٧٠ فقدهم المسلمون .

آ ــ أما مكاسب المسلمين من ثبات الرسول ﷺ يوم حنين فقد كانت أعظم ، ذلك أن ثبات الرسول ﷺ لم يقتصر على أن كان سبباً فى حصر انتصار هوازن عند الصدمة الأولى فى دائرة الانتصار التعبوى ، بل جعل هذا الانتصار التعبوى المحدود يتحول إلى انتصار سَوَقى كامل للمسلمين الذين نُزلوا بهوازن هزيمة كاملة شاملة لم تقم للمشركين بعدها قائمة .

فعندما عاد المسلمون إلى الميدان فى حنين لم يكتفوا بتجميع صفوفهم وإعادة تنظيمهم ومنع هوازن من تحقيق مزيد من الانتصارات كما حدث فى

أحد ، بل قاموا بهجوم معاكس قوى صاعق ، كانت نتيجته انهزام جند هوازن المشركين انهزاماً مروّعاً شاملاً ونهائياً ، تمثل فى فرار جند هوازن وتركهم نساءهم وأموالهم وأطفالهم فى الميدان غنيمة للمسلمين .

ب ــ تسبب ثبات الرسول ﷺ فى تماسك مائة من صفوة أصحابه يوم حنين ، وكان لثبات هذه المائة أحسن الأثر فى تخفيف هزيمة المسلمين ، حيث شكل هؤلاء المائة بقيادة الرسول ﷺ ــ ساعة اشتداد النكبة ــ قوة حماية ، حمت إلى حد كبير ساقة (مؤخرة) المسلمين المنهزمين ، حيث قاد الرسول ﷺ بهذه المائة هجوماً عنيفاً مضاداً على عناصر هوازن التى كانت تشكل مقدمتهم لمطاردة المسلمين ، فاستبسل الرسول ﷺ والصفوة المائة من أصحابه فى هذا الهجوم المضاد حتى أنزلوا ببعض وحدات هوازن خسائر فادحة ، بدليل أن المنهزمين المسلمين لم يعودوا إلى الميدان من جديد إلا والأسرى من مشركى هوازن موثقين فى الحبال بين يدى الرسول القائد ﷺ .

ج ــ كان ثبات الرسول ﷺ والمائة الصابرة من أصحابه ثم هجومهم المضاد على الوحدات المطاردة من هوازن ــ ساعة النكبة ــ عاملا رئيسياً فى انخفاض زخم هجوم هوازن الذى بدأته الكمائن ، حيث من المرجح أنَّ هوازن ظنت (لِمَا تعرَّضت مقدمتها له من هجوم قوى مضاد من الرتل الصغير الذى قاده الرسول ﷺ أنَّ جند الإسلام كله لم ينهزم ، الأمر الذى خفف حدة هجوم هوازن الصاعق (بعض الشىء) فيسر ذلك إلى حد كبير ــ مهمة عودة الجيش الإسلامى إلى الميدان ، والذى كان فى واقعه قد انهزم بأكمله عند الصدمة الأولى مع الفجر .

د ــ كذلك كان دور العباس بن عبد المطلب (عم الرسول ﷺ وكان من المائة الثابتة) دوراً مهماً فعالاً فى إعادة المنهزمين ، حيث قام (وبأسلوب يدل على الشجاعة) قام حسب أمر الرسول ﷺ ، وبصوته الجهورى الذى يسمع عبر عدة أميال ــ بإبلاغ المسلمين المنهزمين الحقيقة الرائعة التى ما كان الكثير منهم يتوقعها ، وهى أن القائد ﷺ ثابت مكانه فى الميدان يجالد المشركين بسيفه ، ثم ناشدهم (وخاصة الأنصار) أن يعودوا إلى الميدان

فكان لسماع مناشدة الرسول القائد ﷺ المنهزمين ــ عبر صوت عمه

العباس ـــ أحسن الأثر فى تقوية روحهم المنهارة ، وفى إثارة الشعور بالخجل من أنفسهم ، حين أدركوا أنهم فروا وتركوا نبيهم والأحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم وحيداً فى الميدان ، فعطفوا راجعين ، ثم تحوَّلوا إلى إعصار كاسح ، عصف بهوازن وآلافها العشرين ، حتى بعثروها بحنق وغيظ كما تبعثر العاصفة الورق اليابس .

فلولا سماع المنهزمين المسلمين صوت العباس يبلغهم ثبات نبيهم ﷺ ويناشدهم باسمه العودة إلى ميدان القتال ، لكانت هزيمتهم هزيمة ساحقة كاملة ، ولتطور انتصار هوازن من انتصار تعبوى محدود إلى انتصار سَوَقى شامل قد تبيد فيه هوازن أكثر القوات الإسلامية المنهزمة .

وهكذا فأساس انتصار المسلمين الساحق بعد هزيمتهم المروِّعة وسببه الرئيسى هو ثبات سيد الشجعان وأشرف الخلق محمد ﷺ وبتلك الشجاعة التى لا مثيل لها .

هـ ـــ العقيدة .. مما لا جدال ولا خلاف بين خبراء الحروب ، أن العقيدة للجندى فى أية حرب يخوضها ، هى أكبر مصدر لقوته المعنوية التى هى أولى وأهم أسلحة الجندى المحارب .

والمسلمون الحقيقيون . ومنذ سطع نور الإسلام ـــ وهم يجعلون الحفاظ على عقيدتهم فى المقام الأول ، ولعله من تحصيل الحاصل وتكرار القول ، التصريح بأن عقيدة الإسلام كانت فى مقدمة العوامل التى حققت لقوات محمد ﷺ النصر الكامل فى حنين .

ولقد رأينا كيف انتصر المسلمون فى حروبهم التاريخية بعقيدتهم على أعداء يتفوقون عليهم فى كل شيء مادي.. انتصروا لا فى العهد النبوى داخل الجزيرة فحسب ، بل وخارجها .. انتصروا انتصارات لا يكاد العقل يصدقها . وذلك عندما كانوا يحملون عقيدة التوحيد الراسخة التى يعتقدون أن الموت فى سبيل الدفاع عنها وحمايتها أسمى ما يتوق إليه المسلم الصادق .. هذه حقيقة أكدها واعترف بها الباحثون حتى من غير المسلمين .

ولا أدل على هذه الحقيقة من أنَّ المسلمين ـــ بعد أن ضعفت فى نفوسهم

هذه العقيدة أو تلاشت بعد خير القرون ـــ توالت عليهم النكبات والإهانات والمصائب ونزلت بهم الهزائم المخجلة ، مع كثرة عددهم وتوفر عتادهم ، وقلة عدد وعتاد عدوهم ، فانقلب الوضع بالنسبة للمنتسبين إلى الإسلام نتيجة الخواء العقائدى الذى تعرضت له نفوسهم فى الأعصر الأخيرة ، فتخلفوا فى كل شىء ، وخاصة بعد أن استوردوا عقائد ومبادىء غريبة أحلوها محل عقيدة الإسلام .. والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

أسباب هزيمة هوازن الساحقة بعد انتصارها :

مما لا جدال فيه أن قيادة هوازن قد رأسها شاب شجاع ألمعى أثبت منذ بداية المعركة حتى نهايتها أنه على مستوى ممتاز من الدراية العسكرية والخبرة بفنون القتال والسياسة الحربية والدقة فى رسم الخطط واختيار المواقع .

أما الشجاعة ، فقد رأينا منذ البداية كيف دعا قومه ـــ وهو يلقى فيهم كلمة حماسية ـــ إلى أن يكسروا جفون سيوفهم عند اللقاء ، فكسر عشرون ألف مقاتل جفون سيوفهم ولقوا المسلمين بعشرين ألف سيف مصلتاً مكسور الجفن ، وكسر جفون السيوف ، اتباعه علامة تدل على الشجاعة والتصميم على الاستماتة فى القتال ، ومن الناحية العملية فقد رأينا كيف ثبت مالك بن عوف فى الميدان على رأس قبيلته الخاصة بنى نصر وجالد المسلمين ـــ رغم انهيار بقية عشائر هوازن ـــ حتى كادت قبيلته (لثباتها بقيادته) أن تفنى عن آخرها .

أما الخبرة والدراية والسياسة العسكرية ، فقد دلت تصرفات هذا القائد العجيب وهو يهيىء جيشه لمقاتلة المسلمين ـــ وكأنه من خريجى المعاهد العسكرية الحديثة ، فقد رأينا كيف حرص هذا القائد الشاب (بعد أن علم بخروج المسلمين من مكة)على أن يسبقهم إلى مكان التجويف الواسع من وادى حنين ويجعله معسكراً لجيشه ، لأنه (كما وصفه المعمِّر الخبير دريد بن الصمة) واسع وصلب غير رخو صالح لمجال الخيل التى هى سلاح الصاعقة فى ذلك العصر ولدى هوازن منها يوم حنين الآلاف .

كما رأينا من شاب صغير لم يتخط الرابعة والعشرين من عمره ، كيف

كانت قدرته على الدقة فى رسم الخطط وسرعة تنفيذها ، والتى منها ــ ولعلها أبرعها ــ خطة الكمائن التى كان مالك دقيقاً فى وضعها وتنفيذها إلى أبعد الحدود ، كما رأينا كيف لجأ القائد مالك (وهو يعبِّىء جيشه فى الوادى) إلى التمويه الحربى حين جعل جيشه يظهر فى أعين المسلمين أكبر من حجمه الحقيقى بعدة أضعاف .

إذن فالمسلمون واجهوا يوم حنين أعداء مقاتلين شجعاناً وقادة ممتازين من الدرجة الأولى .. أما شجاعة القائد العام لهوازن شخصياً ، فلا أدل عليها من أنه (بشهادة المؤرخين المسلمين) كان ساعة انهزام عامة هوازن ، قد ثبت فى الميدان على رأس عشيرته الخاصة (بنى نصر) حتى كادت سيوف المسلمين أن تبيدها عن آخرها ، ولم ينهزم القائد مالك إلا حين رأى أن لا فائدة من الاستمرار فى القتال ، ومع ذلك فلم يفرّ من الميدان فرار الجبان الرعديد ، بل كان انهزامه أشبه بالانسحاب المنظَّم ، فقد رأينا فيما مضى من هذا الكتاب كيف تراجع هذا القائد فى هيئة أركان حربه ، ووقف فى كتيبة من فرسانه على تل يوفرّ الحماية لبعض الفارين من الميدان من قومه ، وخاصة الضعفة والنساء ، وظل ثابتاً على التل فى هيئة أركان حربه حتى أيقن أنه إن لم يختف ستحيط به كتيبة الفرسان المطاردة التى يقودها الزبير بن العوام ، فلجأ إلى الاختفاء بين الأشجار فى وادى اليمانية (نخلة) وواصل ترحاله حتى لحق بحصنه فى وادى ليَّة ، ثم لحق بثقيف فتحصن معها فى الطائف .

إذن ما دام مستوى هوازن القتالى والقيادى ممتاز إلى هذه الدرجة فما هى الأسباب التى أدَّت إلى هزيمتها المدمرة ؟

يمكن تلخيص أسباب هزيمة هوازن بعد انتصارها فى الأمور الآتية .

أ ــ غياب العقيدة :

فإذا كان المسلمون أصحاب العقيدة الجديدة (عقيدة التوحيد) يستعذبون الموت فى ظلها ، ويرون هذا الموت أعزَّ ما يتوق إليه المسلم ــ وهذا أعظم رافد يمد النفس بالروح المعنوية اللازمة للصبر على القتال حتى الموت ــ فإن جند هوازن (رغم شجاعتهم) ليس لهم عقيدة يستعذبون الموت فى سبيلها ، بل ويبحثون عنه ليكونوا شهداء فى سبيل الله كما هو شأن المسلمين

فى كل معركة خاضوها تحت قيادة الرسول ﷺ .

وإذا كانت لهوازن عقيدة ، فإن هذه العقيدة (وهى عقيدة وثنية) هى فى حكم المعدوم ، لأنها عقيدة ضحلة مهزوزة غير واضحة ولا راسخة ، وليس من معطياتها الاعتقاد بأن المقتول فى سبيلها سيفوز بالجنة ، فليس فى جيش هوازن جندى واحد يعتقد أنه إن قتل دفاعاً عن اللات والعزّى أو أى صنم آخر ، سيكون مأواه الجنة .

إذن فهوازن يمكن القول : إنهم خاضوا المعركة بدون عقيدة ، ولهذا فإن قائدهم مالك بن عوف ـــ لعلمه بهذه الحقيقة كوثنى ـــ لجأ إلى جعل الدفاع عن النساء والأطفال والأموال يحل محل الدفاع عن العقيدة الصحيحةالراسخة كالتى لدى المسلمين والتى يفقدها الهوازنيون ، فأمر جميع الجند باصطحاب أهلهم وأموالهم إلى الميدان كى يستميتوا فى الدفاع عنهم ، حينما لم يكن لديهم غيرهم ما يجبرهم على الاستماتة فى الدفاع عنه ، ولكن هذه الخطة لم تجد شيئاً ، فقد انهزمت هوازن هزيمة كاملة شاملة تاركة الأهل والأموال وراءها .. والسبب غياب العقيدة الصحيحة الراسخة التى لا يقوم مقامها شىء فى مد الجندى بالروح المعنوية اللازمة للصمود حتى الموت .

ب ـــ القبلية الضيقة والمطامع :

أثناء تحليل الدوافع لخوض القبائل الوثنية (مثل هوازن) للمعارك مع أى كان ، يتضح للباحث أن العنصرية الضيقة المتمثلة فى الدفاع عن القبيلة فقط ، وكذا الرغبة فى السلب والنهب هما الباعثان الرئيسيان للجندى الوثنى العربى على القتال ، وهذان الباعثان (فى نظر الخبير العسكرى) غير كافيين لمد الجندى بالثبات والصمود حتى الموت .

فالعنصرية رغم أنها قد تكون عامل تجميع وحشد ، فإنها لدى المحارب ليست عامل ثبات وصمود حتى الموت ، فهو سيقاتل إلى جانب من هو من قبيلته دونما شك ، وقد يصمد بشجاعة ويضحى ، ولكن ليس إلى الحد الذى يجعله يُقبِل على الموت راضياً كى يحيا الآخرون (ولا عبرة بالنادر الشاذ) فهو سيقاتل بشراسة وشجاعة مادام أنَّ هناك أملاً فى الانتصار ، ولكن عندما

تضرّسه الحرب وتشتد عليه وطأة القتال إلى الحد الذى لا خيار له معه إلا اتبَاع أحد إما الموت أو الفرار ، فإنه ـــ دونما شك ـــ سيفضِّل الفرار .

أما باعث السلب والنهب فإنه أضعف من باعث العنصرية ، لأن المحارب من أجل السلب والنهب ، فإنما يخوض الحرب من أجل التمتع (حياً) بما يسلب وينهب ، ولذلك فإنه عندما يترجح لديه أن الموت سيكون مصيره إذا ما استمر فى القتال ، سيركن إلى الفرار دونما شك ، مهما كان شجاعاً وبارعاً فى القتال وهذا هو الذى حدث لهوازن .

ج ـــ الغرور والاستبداد :

هاتان الصفتان ، هما صفتا قائد هوازن مالك بن عوف ، فبالرغم من أن هذا السيد الشاب ذكى شجاع ألمعى ، فإنه كان مغروراً مستبداً ، والغرور والاستبداد فى قادة الجيوش من أخطر ما يتهدد هذه الجيوش ويسبب لها النكبات كما سجل التاريخ ذلك عبر القرون .

أما استبداد مالك فقد كان جلياً (كما رأينا) فى رفضه نصيحة المحارب الخبير المعمّر دريد بن الصمة ، حينما انتقده لإجباره الجند على اصطحاب أهاليهم وأموالهم معهم إلى الميدان ، ونصحه بأن يعيد النساء والأطفال والأموال إلى رؤوس الجبال لتكون فى مأمن إذا ما كانت الهزيمة على هوازن ، فرفض هذه النصيحة بعجرفة ، وعندما استصوب وجوه وقادة عشائر هوازن نصيحة دريد بن الصمة ومالوا إلى الأخذ بها ، هددهم قائدهم بأنه سينتحر إذا لم يسيروا حسب خطته وتبعاً لمزاجه ، فأذعنوا له ، (رغم الخطأ القاتل فى تصرفه) ، لأنه كان محبوباً لديهم ، ولأنهم يخشون الانقسام والمعركة على الأبواب .

أما غروره فقد ذكر المؤرخون أنه كان متكبِّراً لا يسير إلا مُسبِل الإزار ، وقد تجلى غروره فى إعلانه الاستهانة بقوات المسلمين ، هذه الاستهانة التى تجلت فى قوله (ضمن كلمة ألقاها فى جنده قبيل المعركة) : (إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب

فينصر عليهم)[1] . مع أن دريد بن الصمة نصح مالكاً بأن يترك الغرور لأنه سيقاتل رجلاً لا كالرجال ، حين قال له : (يا مالك إنك تقاتل رجلاً كريماً وقد أصبحت رئيس قومك وإن هذا اليوم كائن لما بعده من الأيام)[2]) .

وغرور القائد واستهانته بجنود الجيش الإسلامى ، كان بمثابة إيحاء إلى جنده بأن يكونوا مثله ، فسرب روح الاستهانة بين فصائلهم بجند الإسلام لا سيما بعد أن انهزم المسلمون عند الصدمة الأولى ، فكان هذا الغرور والاستهانة (دونما شك) من أهم أسباب انتكاسة هوازن بعد انتصارها ، هذه الانتكاسة التى تحولت إلى هزيمة ساحقة شاملة .

د ــ الانشقاق بين هوازن :

بالرغم من أن هوازن كانت فى حنين قوة جبارة (عشرين ألف محارب) إلا أنها كانت قد تعرَّضت (منذ اللحظة الأولى من التحشد) الانشقاق كان له الأثر السيء على معنوياتها فقد رفضت قبيلتان من هوازن الاشتراك فى حرب المسلمين ، وهاتان القبيلتان (وهما كعب[3] وكلاب[4]) من أشجع وأقوى قبائل هوازن ، بل هما بشهادة المعمر الخبير دريد بن الصمة ، أقوى قوة بين عشائر هوازن ــ وذلك بقوله ــ (لما أخبِر أنهما لن تشهدا حنيناً مع هوازن ــ: (غاب الجِدُّ والحد ، ولو كان يوم رفعة وعلاء لم تغب عنه كعب ولا كلاب) .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٩٣ .

(٢) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٧ .

(٣) هم كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . كانوا بطناً عظيماً من هوازن ، وكانت ديارهم منتشرة فيما بين تهامة والمدينة وأرض الشام . وكانوا مشهورين بالشجاعة والشرف بين العرب .

(٤) كلاب هؤلاء بطن من أعظم بطون هوازن ، وهم من بنى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، كانت من منازلهم حمى ضرية بنجد وهو حمى كليب ، وحمى الربذة فى جهات المدينة المنورة ، وفدك والعوالى ، وقد انتشروا فى الشام . وكانوا شعباً محارباً فعظم شأنهم فملكوا حلب ونواحيها وكثيراً من مدن الشام ، وإلى عظمة وشرف كعب وكلاب هؤلاء يقول الشاعر لآخر يهجوه :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ورغم امتناع كعب وكلاب وأكثر بنى هلال من الانضمام إلى حشد مالك ابن عوف لم يحدث أى تردد بين أوساط عشائر هوازن الأخرى ، إلا أن امتناع كعب وكلاب وبنى هلال كان له أثره الضّار على معنويات العشائر الأخرى من هوازن ، لأن جيش مالك بن عوف الذى يتكون من هذه العشائر قد خسر (بمختلف العشائر الثلاث عنه) عنصراً من أهم عناصره القتالية ، فأنقص ذلك من مستوى روح هذا الجيش المعنوية ، حتى أن الخبير الحربى المعمر الذى بلغ مائة وستين سنة قضى معظمها فى الحروب ، توقع نزول الشر بجيش هوازن لما بلغه غياب كعب وكلاب وبنى هلال عن مقاتلة المسلمين ، حين قال : (لو كان خيراً ما سبقتموهم إليه ، ولو كان ذكراً أو شرفاً ما تخلّفوا عنه فأطيعونى يا معشر هوازن وارجعوا وافعلوا ما فعل هؤلاء)(١) .

وفعلاً (وكما توقع دريد بن الصمة) فإن هوازن لم تلق فى حربها ضد المسلمين إلا الشر كل الشر وهو الهزيمة الشاملة الساحقة .

هـ ــ الرعب المفاجىء :

لقد أظهرت هوازن (وخاصة فى المرحلة الأولى من المعركة) مقدرة قتالية كبيرة ، وعندما تراجع المسلمون المنهزمون وشنوا هجومهم المعاكس الضارى ، قاتلت أيضاً هوازن قتالاً شديداً ، وثبت قائدها مالك بن عوف فى الميدان يجالد المسلمين بثبات وضراوة حتى كادت قبيلته الخاصة أن تفنى لثباتها إلى جانبه .

ولكنَّ جند هوازن ــ ساعة استئناف المسلمين القتال واشتداد هذا القتال ــ تعرّضوا لسلاح خفى كان له أكبر الأثر فى التعجيل بهزيمة هوازن .. وهذا السلاح هو الرعب المفاجىء الذى قذفه الله فى قلوب جند هوازن ، بالإضافة إلى جنود مجهولين كان جند هوازن يشاهدونهم على هيئة مفزعة إلى جانب العسكر الإسلامى ، وقد ذكر مؤرخو الإسلام (استناداً إلى نصوص موثوق بها) أن هؤلاء الجنود الذين يشاهدهم جند هوازن على هيئة خيالة ، هم من الملائكة لبث الرعب فى نفوس المشركين ، وقد أكد حقيقة هذا الرعب المفاجىء رجال من ثقيف ممن شهدوا حنيناً مع المشركين ثم هداهم الله

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٨٨٧ .

للإسلام كما تقدم تفصيله فى هذا الكتاب .

أسباب فشل المسلمين فى حصار الطائف :

كما تقدم فى هذا الكتاب ، كان الرسول ﷺ قد قام ـــ يقود جميع جيشه ـــ بمطاردة هوازن من حنين ، حتى وصل إلى الطائف ، حيث يوجد بها أهم أجنحة هوازن (ثقيف) وفرض الحصار على حصونها ، وكان يأمل من وراء هذا الحصار أن تستسلم ثقيف للمسلمين ، ولكن ثقيفاً قاومت بعنف واستعصت حصونها ، فلم ينجح الحصار ، فاضطر النبى ﷺ إلى فكه وترك ثقيف وشأنها ، فما هى أسباب الإسراع بفك الحصار دونما أية نتيجة إيجابية للمسلمين ؟.. يمكن إيجاز الأسباب فى الأمور الآتية :

أ ـــ كانت حصون الطائف منيعة بحيث يصعب على مشاة المسلمين وفرسانهم اقتحامها ، وكان لدى الجيش الإسلامى سلاح ثقيل يستخدم عادة فى الهجوم على القلاع والحصون ، وهذا السلاح هو المنجنيقات والعرّادات والدبابات ، وقد استخدم الرسول ﷺ هذا السلاح الثقيل بغية تسهيل مهمة اقتحام تلك الحصون ، ولكنَّ الدفاع من ثقيف كان شديداً والأسوار كانت منيعة بحيث لم يكن القذف بالقذائف النارية وغير النارية ذا أثر فعال على هذه الحصون .

ب ـــ المقاومة الشديدة .. مما لا جدال فيه أن ثقيفاً جيل محارب ممتاز ، وكانوا من أهم أجنحة هوازن ولا أدل على شجاعتهم من أنهم فقدوا يوم حنين وحدهم مائة قتيل بمن فيهم قائدهم عبد الله بن عثمان . وكانوا ـــ استعداداً للمقاومة فى الحصون ـــ قد أدخلوا فى حصونهم من المواد الغذائية ما يكفيهم لسنة كاملة ، أما الماء فقد كان موجوداً بكثرة داخل حصونهم .

وقد كانت مقاومتهم للحصار شديدة ، وكانوا ماهرين فى القصف بالسهام ومقاومة الدبابات التى يستخدمها المهاجمون لنقب الأسوار كدروع يحتمون بها ، ولقد كان جل اعتمادهم على القوس والنبل ، فقد صوبوا سهامهم بمهارة نحو المسلمين وقصفوهم بها بغزارة مما أحدث بينهم عدة إصابات قاتلة ، الأمر الذى اضطرهم إلى التراجع بعيداً عن مرمى السهام .

كذلك عندما حاولت بعض الوحدات الإسلامية استخدام الدبابات (وكانت من الخشب السميك) لفتح ثغرات فى أسوار الحصن يدخل منها جند الإسلام ، قابلت ثقيف هذا السلاح الثقيل بسلاح مضاد فعال ، وهو قذائف من الحديد المحمى المنصهر ، كانت تقذف به هذه الدبابات فتحرقها ، الأمر الذى كشف الجنود المحتمين بها ، فصاروا عرضة لسهام ثقيف ، فاضطروا للتراجع وفشل هجومهم المدَّرع لنقب الأسوار . وهكذا لم تنجح محاولات الجيش الإسلامى لاقتحام حصون ثقيف عنوة .

ج ـــ صعوبة تطويل أمد الحصار .. لم يبق أمام الجيش الإسلامى إلا أمر واحد لإجبار ثقيف على الاستسلام وهو أن يظل المسلمون محاصرين ثقيفاً حتى ينفد ما لديهم من مواد غذائية ، وذلك يستغرق سنة كاملة ، والمحارب المسلم فى ذلك العهد ، لم يتعود (بعد) على البقاء مثل هذه المدة بعيداً عن أهله وعياله .. فلم ير الرسول ﷺ البقاء لفرض الحصار وتجميد الجيش أمام حصون ثقيف طوال هذه المدة .

د ـــ عدم خطورة ثقيف .. كذلك يعتبر من الأسباب ، أن ثقيفاً (بعد اضمحلال قوة هوازن) لم تعد ذات خطر على الإسلام بحيث يتحتم على المسلمين تجشيم أنفسهم متاعب الانشغال بحصارها لمدة سنة كاملة ، فثقيف بعد دخول جميع عشائر هوازن فى الإسلام بقيت معزولة تماماً ، ومحاطة بالأعداء الذين كانوا أصدقاء وإخوة الأمس ، فهؤلاء وحدهم كفيلون بإزعاج ثقيف وتضييق الخناق عليها ، كلما سنحت لهم الفرصة ، وهو ما حدث (فعلاً) وخاصة بعد أن دخل ملك هوازن وقائدها العام يوم حنين مالك بن عوف فى الإسلام ، وصار بنفسه (وهو الشجاع المطاع فى قومه) يشن الغارات العنيفة على ثقيف .

هـ ـــ ثبت (وهو الأهم) أن الرسول القائد ﷺ جاءه الأمر من السماء بأن يفك الحصار عن ثقيف ، لأنه سبق فى علم الله تعالى أن ثقيفاً نفسها ستأتى طائعة مختارة إلى المدينة لتعلن إسلامها ، ولهذا فإن النبى ﷺ لما طلب منه بعض أصحابه (وهو يفك الحصار عن ثقيف) أن يدعو عليها ، رفض ودعا لها قائلاً : « اللهم اهد ثقيفاً وائت بها » أو كما قال ﷺ وهكذا عَجَّل

الرسول ﷺ بفك الحصار عن ثقيف التى جاءته مسلمة فى أواخر السنة التاسعة من الهجرة .

انهيار الوثنية فى جزيرة العرب :

كان الوثنيون العرب فى الجزيرة كلها يعلقون الآمال — لمقاومة التيار الإسلامى ولحماية الوثنية من خطر التوحيد فى الدرجة الأولى — على قريش سدنة الكعبة وحرّاس المشاعر ، وعندما وقعت عاصمتها مكة فى أيدى المسلمين لم يعد هناك من قوة حربية فعالة تتجه إليها أنظار المتبقين على الوثنية فى الجزيرة لمواجهة التوحيد والتغلّب على قواته المسلحة سوى قبائل هوازن الكثيرة العدد وذات القدرة القتالية الممتازة ، ولكن ها هى هوازن تسقط آخر الأمر وينتهى وجودها العسكرى كقوة معادية للإسلام ، بل ويتحوّل كل عشائرها أنصاراً لهذا الدين ..

فماذا عسى أن تفعل الجيوب الشركية الضعيفة المبعثرة هنا وهناك فى جزيرة العرب الشاسعة ، فقد انهار آخر معقل للوثنية فى الجزيرة بانهيار جيوش هوازن يوم حنين ، وبهذا صح يقيناً القول : إن الوثنية قد انهارت فى الجزيرة العربية إلى الأبد بعد معركة حنين ، بدليل أنه بعد هذه المعركة أخذت وفود العرب تتوارد إلى المدينة لإعلان الدخول فى الإسلام .

والجيوب التى أبدت بعض العناد ، كالتى فى أقصى الشمال (كقبيلة طيىء) أو فى أقصى الجنوب كبنى الحارث ناحية نجران ، جرّد عليها الرسول ﷺ حملات عسكرية صغيرة قضت على مقاومتها ، ولم تأت السنة العاشرة من الهجرة إلا وأصبحت الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها داخلة فى الإسلام ليس بها وثنى واحد ، اللهم إلا جاليات يهودية ونصرانية صغيرة بقيت على دينها فى ظل سلطان الإسلام لأنها من أهل الكتاب الذين يُكتَفَى منهم بأخذ الجزية كإقرار بالخضوع لسلطان الإسلام .

وهكذا كانت معركة حنين آخر معركة حربية عنيفة يخوضها المسلمون بقيادة نبيهم ، مع الإشارة إلى غزوة تبوك —وإن لم يخض الرسول فيها قتالا مع الرومان — إلا أنها كانت لنجاحها ذات أثر معنوى عظيم فى تثبيت دعائم

الإسلام وهيبة المسلمين فى نظر البيزنطيين حكام الشام والعرب المتنصرة الموالين لهم هناك . وهكذا وبعد الانتصار العسكرى الحاسم فى حنين ومجىء الناس ليدخلوا (باختيارهم فى الإسلام أنزل الله تعالى ــ كإشارة إلى انتهاء الصراع المسلح فى جزيرة العرب التى كانت فيه انتصارات المسلمين الحربية تمهيداً لهذه الفتوحات المعنوية المتمثلة فى تسابق القبائل إلى المدينة المنورة للدخول فى الإسلام ــ أنزل الله تعالى قوله : (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبِّح بحَمدِ ربِّك واستغفِره إنَّه كان توابا) .



خارطة تبين مواطن القبائل العربية
عند ظهور الاسلام وقبله
× هذا الرمز إشارة الى القبائل القحطانية
هذا الرمز إشارة الى القبائل البائدة
شمال
العراق
بلاد فارس
الشام
غسان
لخم
العمالقة
تنوخ
بكر
تغلب
شيبان
سليم
عاملة
قضاعة
طي
دومة الجندل
طيء
قيس عيلان
عبس
جديلة
عجل
الابلق
خيبر
تيماء
ديار تبوك
اليمامة
الرياض
كندة
عبد القيس
العمالقة
عمان
القطيف
الاحساء
الربع الخالي
طسم وجديس
كعب بن ربيعة
هوازن
هذيل
ثقيف
المدينة
فزارة
مزينة
جهينة
غطفان
خثعم
بجيلة
باهلة
مذحج
تبالة
يام
نجران
همدان
قضاعة
بكيل
حاشد
صنعاء
مأرب
سبأ
اليمن
حضرموت
عاد
كهلان
ظفار
عدن
مذحج
السودان
الحبشة
بحر العرب
المحيط الهندي
البحر الاخضر
خليج فارس (الخليج العربي)

أهم مراجع هذا الكتاب

اسم الكتاب	اسم المؤلف
تفسير ابن كثير	ابن كثير
فتح القدير (تفسير)	محمد بن علي الشوكاني
في ظلال القرآن (تفسير)	سيد قطب
الكشاف	الزمخشري
صحيح البخاري	البخاري
صحيح مسلم	مسلم
زاد المعاد	ابن القيم
تاريخ العرب قبل الإسلام	الدكتور جواد علي
سيرة ابن هشام	محمد بن إسحاق
الأغاني	أبو الفرج الاصبهاني
الصداقة والصديق	أبو حيان التوحيدي
صبح الأعشى	أحمد بن علي القلقشندي
المغني في الفقه	ابن قدامة
الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف	علاء الدين المرداوي
كشاف القناع	منصور بن يونس البهوتي
شبهات حول الإسلام	محمد قطب
جمع الفوائد	محمد بن محمد بن سليمان
زاد المسلم (تفسير)	ابن الجوزي
سقوط الجولان	خليل مصطفى

اسم الكتاب	اسم المؤلف
غاية المنتهى	الشيخ مصطفى السيوط الرحيباني
الطبري (تاريخ)	محمد بن جابر الطبري
القانون الدولي العام	الدكتور سموحي فوق العادة
محمد نبى ورجل دولة	الدكتور مونتجمرى وات
حقائق الإسلام وأباطيل خصومه	عباس محمود العقاد
ما يقال عن الإسلام	عباس محمود العقاد
فقه السنة	السيد سابق
الرسول القائد	اللواء الركن محمود شيت خطاب
تفسير الإمام محمد عبده	السيد رشيد رضا
حياة محمد ورسالته	مولانا محمد على
السيرة الحلبية	ابن برهان الدين
فقه السيرة	محمد الغزالى
سمط النجوم العوالى	عبد الملك بن حسين العصامى
البداية والنهاية	إسماعيل بن كثير
الكامل فى التاريخ	محمد بن الأثير
جوامع السيرة	على بن حزم
آثار المدينة	عبد القدوس الأنصارى
وفاء الوفاء	على بن أحمد السمهودى
دائرة معارف القرن الرابع عشر — العشرين	محمد فريد وجدى
لسان العرب	ابن منظور الإفريقى المصرى
نيل الأوطار	محمد بن على الشوكانى

اسم الكتاب	اسم المؤلف
اليهود فى القرآن	عفيف عبد الفتاح طباره
الطبقات الكبرى	ابن سعد
معجم البلدان	ياقوت الحموى
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع	صفى الدين عبد المؤمن ابن عبد الحق
معجم النساء	عمر رضا كحالة
الأعلام	خير الدين الزركلى
ديوان الحماسة	أبو تمام الطائى
العرب قبل الإسلام	جورجى زيدان
الأبطال	توماس كارليل
حضارة العرب	جوستاف لوبون
التشريع الجنائى فى الإسلام	الشهيد عبد القادر عودة
الإصابة	ابن حجر العسقلانى
الاستيعاب	ابن عبد البر
أيام العرب فى الإسلام	محمد أبو الفضل ـــ على النجاوى
الروض الأنف	السهيلى
نهاية الأرب	القلقشندى
معجزة محمد رسول الله	عبد العزيز الثعالبى
قصص الأنبياء	عبد الوهاب النجار
تاريخ ابن خلدون	عبد الرحمن بن خلدون
مروج الذهب	المسعودى
معجم قبائل العرب	عمر رضا كحالة
معجم البكرى	البكرى
تاريخ الإسلام السياسى	الدكتور حسن إبراهيم حسن

اسم الكتاب	اسم المؤلف
تاريخ الأمة العربية	محمد أسعد طلس
عجائب الأقاليم السبعة	محمد بن موسى الخوارزمى
حياة محمد	محمد حسين هيكل
بهجة المحافل	يحيى بن أبى بكر العامرى
إمتاع الأسماع	المقريزى
تهذيب تاريخ ابن عساكر	عبد القادر بن أحمد بن مصطفى الدمشقى
عصر النبى	محمد عزة دروزة
البدء والتاريخ	أبو زيد أحمد بن سهل البلخى
مغازى الواقدى	محمد بن عمر بن واقد
صورة الأرض	ابن حوقل
الآثار الباقية من القرون الخالية	محمد بن أحمد البيرونى
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم	المقدسى المعروف بالبشارى
أنساب الأشراف	أحمد بن يحيى البلاذرى
جمهرة أنساب العرب	على بن أحمد بن حزم
جمهرة رسائل العرب	أحمد زكى صفوت
مجمع البيان فى تفسير القرآن	الفضل بن الحسن الطبرسي
جامع الأصول من أحاديث الرسول	المبارك بن محمد بن الأثير الجزرى
مسند الإمام زيد	زيد بن على بن الحسين
نصب الراية	عبد الله بن يوسف الحنفى الزيلعى
النهاية فى غريب الحديث	المبارك بن محمد بن الأثير الجزرى
منهاج السنة النبوية	أحمد بن تيمية
جزيرة العرب	حافظ وهبة
صفة جزيرة العرب	الهمدانى

اسم الكتاب	اسم المؤلف
نسب قريش	المصعب بن عبد الله الزبيرى
فتوح البلدان	أبو الحسن البلاذرى
الحرية عند العرب	إبراهيم الحداد
تاريخ اليعقوبى	أحمد بن أبى يعقوب
جزيرة العرب	جان جاك بيرك
الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة	الدكتور محمد حميد الله
لمحات من تاريخ العالم	جواهر لال نهرو
المحبّر	محمد بن حبيب بن أمية الهاشمى
قصة الحضارة	ول . ديورانت
فجر الإسلام	أحمد أمين
عيون الأخبار	محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة
معالم تاريخ الإنسانية	هـ . ج . ولز
تاريخ الشعوب الإسلامية	كارل بروكلمان
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	محمد بن أحمد بن على الفاسى
تاريخ الأمم الإسلامية	محمد الخضرى
المختصر فى تاريخ البشر	شمس الدين محمد بن أبى
نخبة الدهر من عجائب البر والبحر	طالب الأنصارى
عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
غزوة بدر الكبرى	المؤلف
غزوة أحد	المؤلف
غزوة الأحزاب	المؤلف
غزوة بنى قريظة	المؤلف
تهذيب الصحاح	محمود بن أحمد الزنجانى

اسم الكتاب	اسم المؤلف
مجمع الزوائد	على بن أبى بكر الهيثمى
الجامع الصغير	الإمام السيوطى
صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار	محمد بن بلهيف
صحيح الترمذى	الإمام الترمذى
سنن أبى داود	الإمام أبو داود
الفاروق القائد	محمود شيت خطاب
تاج العروس	محمد مرتضى الزبيدى
الأخبار الطوال	أبو حنيفة الدينورى
الفتوحات العربية الكبرى	الجنرال جلوب باشا
التنبيه والإشراف	على المسعودى
المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول	شكرى فيصل



كتب للمؤلف

سلسلة معارك الإسلام الفاصلة

١ ـــ غزوة بدر الكبرى	الطبعة التاسعة
٢ ـــ غزوة أحد	الطبعة السابعة
٣ ـــ غزوة الأحزاب	الطبعة السابعة
٤ ـــ غزوة بنى قريظة	الطبعة الخامسة
٥ ـــ صلح الحديبية	الطبعة الخامسة
٦ ـــ غزوة خيبر	الطبعة الخامسة
٧ ـــ غزوة مؤتة	الطبعة الثانية
٨ ـــ فتح مكة	الطبعة الثانية
٩ ـــ غزوة حنين	الطبعة الأولى
١٠ ـــ القومية فى نظر الإسلام	الطبعة الثالثة
١١ ـــ صراع مع الباطل	الطبعة الثانية
١٢ ـــ لهيب الصراحة	الطبعة الثانية
١٣ ـــ لا .. يافتاة الحجاز	الطبعة الثالثة
١٤ ـــ إسكات الرعاع	
١٥ ـــ أكذوبة الاشتراكية	
١٦ ـــ الإسلام ونظرية داروين	الطبعة الثانية
١٧ ـــ كيف نحارب الإلحاد	
١٨ ـــ العرب فى الشام قبل الإسلام	الطبعة الأولى
١٩ ـــ هل هذا من العروبة (قصيدة)	